الإهداء

إلى روح أستاذى وصديقى :

المرحوم محمد زكى الدين سند

مؤسس ورئيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

ومنشئ المحاضرات الدينيـــة الإسلامية بنادى

الجمعية فى مساء الخميس من كلّ أســـبوع

ومنشئ مجله مكارم الأخلاق الإســـلامية ،

أهدى هذا الكتاب ، وأرجو له الرحمة والثواب ، وإلى الله المرجع والمآب ؟

العباسية فى { ٢ المحرم سنة ١٣٧١ هـ
{ ٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ م

سكرتير الجمعية سابقا
على فكرى
الأمين الأول ورئيس المعيرين
بدار الكتب المصرية سابقا

كلمة للاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك

المحاضرة لغة : المجاثاة عند الحاكم ، وهى جلوس الخصمين لديه بحيث تكون ركبتا أحدهما ملاصقتين لركبتى الآخر ليدلى كل منهما بحجته أمامه ، وهى كالمغالبة والمكاثرة . ومن معانيها : المجاراة ، والمجالدة ؛ وحاضر الجواب : جاء به حاضرا .

وقد اتفق أهل عصرنا على إطلاق كلمة المحاضرة على ما ينشئه الأستاذ أو الأديب من موضوعات علمية أوأدبية ويلقيها على حفل من الناس فى ناد ، قاصدا بذلك الموعظة الحسنة ، أو تنوير الأذهان فى موضوع من المواضيع الأدبية أو العلمية .

ولست بمبد رأيا هنا فى صحة أو خطأ هذا الإطلاق ، لأن فى ذلك خروجا عما نحن بصدده من وضع مقدمة على مجموعة من خطب أدلى بها حضرة الأستاذ الأخلاقى النابه على بك فكرى على جمهرة من المستمعين فى بعض النوادى الأدبية .

هذه المجموعة القيمة تشتمل على أربع وعشرين محاضرة ، ألقيت فى جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية : أربع عشرة منها خاصة بالرجال ، ومثلها - تزيد خاتمة - خاصة بالنساء ، وكلها على غرار واحد من حسن البيان ، وجودة الأسلوب ، وشمول ما يجب الأخذ به من مكارم الأخلاق ، وأحاسن الأعمال . ونحن عارضو عنوانات بعض هذه المحاضرات إدلالاً على أن الأستاذ منشئها قد تحرّى أكثر نواحى الضعف فى حياتنا الاجتماعية ، وحللها تحليلاً علمياً ، وبين ما تؤدى إليه من المضاعفات المرضية ، وأتى على ما تعالج به من الوسائل . وما تتقى مضاعفاتها به من الذرائع ، فجاء عمله هذا من ألزم الأعمال للدور الذى تجتازه الأمة المصريه من فتنه هذه المدنية المادّية التى فتن سحرها العالم أجمع ، فجعل موضوع محاضرته الأولى للرجال (التّقوى) ودلّل على أنها أولى بحياه الإنسانة من الاستهتار فى الموبقات . وألمّ فى المحاضرة الثانية (بالاستقامة) وأثبت أنها سفينة النجاه من عوادى الانحرافات ، ومآرم الشهوات . ثم أخذ يبين فىالثالثة أن (الدين) هو الحصن الذى يجب أن يأوى إليه الإنسان لاتقاء شرور الحياة الحيوانية التى تودى به ، وتجرّده من جميع مواهبه الملكية التى فيها سعادته الحقيقية ، وبها وجوده الكريم .

ومضى الأستاذ فى تحير الموضوعات القيمة ، فأتى على أصول المعاملة والحقوق والواجبات ، وطرق انفاق المال ، بعد أن ذكر وسائل تحصيله . وما زال ينتقل من

موضوع إلى آخر حتى تأدى إلى السعادة ، وبين وسائل الحصول عليها ، وجعل خاتمة محاضراته التربية الصحيحة ، التي عليها يتوقف نشوء الأجيال الإنسانية السليمة من الأدواء .

وقد سلك في المحاضرات الخاصة بالمرأة مسلك المربي العارف بمهمته ، فافتتح محاضراته بتاريخ تربية البنات في مختلف العصور ، وهو بحث طريف يقف القارئ على تدرّج الجماعات في تربية المرأة والسماح لها بقسط من المعارف يناسب طبيعتها ، ويلائم مهمتها ، من تكثير النوع ، وسياسة الأسرة ؛ وقد أشبع القول في هذا الباب ، وأيد أقواله بالبينات .

ولما كان الإنسان في حاجة ـ بعد أن يعرف نفسه ، ويدرك مهمته ـ إلى أن يقف على حقيقة المؤهلات التي تمكنه من أداء الواجب عليه في المجتمع الذي أنجبه لم يدّخر المؤلف وسعاً في بيان هذه المؤهلات ، والإسهاب في إيضاح وجوبها له .

هذا ، ولم يغفل الأستاذ ما يفيده الدين للمرأة ، فتوسع في بيان تقديره لمواهبها ، وتنويهه بمكانتها ، وفي التدليل على أن هذه المواهب النفسية والأدبية ، وتلك المكانة الاجتماعية ، لا يمكن أن تتجلى فيها إلا إذا تخلقت بالأخلاق الكريمة ، وسلكت في حياتها الطريقة القويمة ، وهي ما قرّرته لها شريعتها الإسلامية من التربية الصالحة ، والسيرة الطاهرة ، والآداب العالية ، وكل هذا عرضه حضرة المؤلف الفاضل أحسن عرض ، وشرحه أوفى شرح ، ونقل فيه من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ما لم يدع مجالاً لمعترض ، ولا مقالاً لمتعنت .

وقد رأى حضرة المؤلف الفاضل أن الحاجة ـ وبخاصة في هذا العصر ـ ماسة إلى نشر هذه المحاضرات لعلها تضع حداً لما يشكو منه العقلاء من تدهور الآداب ، وذيوع التبرّج بين النساء ، وهو ما نهى عنه الشرع ويؤثر في سلامة المجتمع ، ويجرّ إلى معضلات عظام ، منيت بها قبلنا مجتمعات ، فزعزعت أركانها ، وكادت تنوء تحت أثقالها الفادحة ؛ فعمد إلى جمع هذه المحاضرات وطبعها وإذاعتها بين الناس .

فنحن ننوّه لحضرة الأستاذ المؤلف بهذه العَيرة المحمودة ، ونشكره على ما بذله من جهد في إبراز هذا العمل الحسن ، ونرجو أن يكون له من الأثر في العقول والنفوس ما هو به جدير ، ونثني على جهاده المتواصل في سبيل الأخلاق وسلامة الاجتماع ، راجين له التوفيق والنجاح ؟

محمد فريد وجدي

كلمـــة

المرحوم الشيخ محمد الحسيني الظواهري

المدرس بكلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نوّع طرق الهداية تسهيلاً للوصول إلى السعادة ، وأمر الأمة أن تقوم طائفة منها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعل التذكير بالدين مطلوبا لتطهير النفوس من ادران المعاصى « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » شرع الخطب الجُمُعَية وجعلها فرضا وكأنها قامت مقام ركعتين ، وما ذاك إلا لأنها دواء لما يقع بين الجمعتين . فسبحانه من إله أرشد للسعادتين .

والصلاه والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه فى الأولين والآخرين .

وبعد : فقد اطلعت على كتاب (المحاضرات الفكرية) للسيد على فكرى ، فراق عندى موضوعاً وأسلوباً ، لأنه جمع من المحاضرات ما فيه النفع العميم بأساليب عذب مجذب أربه إلى وجوب التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . بما وهبه الله من العمل دائما لما يصلح النوع الإنسانى . وكم للسيد على فكرى من المحاسن فى مؤلفاته العديدة التى جاءت نداء على ما لهذا الفاضل من الأيادى البيضاء فى إظهار مؤلفات تجعل عمره باقياً ما دام فى الأمة من يظهر هذه المؤلفات ، وإن الله وعد ببقاء النافع (وأمَّا ما ينفعُ النَّاسَ فيمكُثُ فى الأرضِ) .

أسأل الله أن يطيل عمره فى طاعته سبحانه وتعالى مع صحة وعافية ، وأن يمنّ عليه بالقبول كما هو ـ إن شاء الله ـ المأمول ؟

محمد الحسيني الظواهري

الزيتون ــ ضواحى القاهرة

٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ ــ ٢٥ إبريل سنة ١٩٤١ م

كلمـــة

الدكتور الحاج أحمد عارف الوديني

لتقريظ المحاضرات الدينية القيمة التى ألقاها الرجل التقى ، المؤمن النقى ،
صديقى القديم الأستاذ على فكرى بك فى دار جمعية مكارم
الأخلاق الإسلامية بالقاهرة فى لياليها الزاهرة

لَقَطْتُ الدُّرَّ من فيه وتُهْتُ فى مغانيــه
وما أدرى معانى الشعـــر أحلى أم معانيــه
(على فكرى) يحاضرنا فلســحرنا : نواديه
وما يحتاج للتقــر يظ (فكرى) أو لتنويه
وما ينفع تقــريظى وأشــعارى وتنبيهى
فَدَعْ ما قال (سحبان وقسٌ) فى مراقيه
وَدَعْ ماقيل فى (صخر) إذ (الخنساء) ترثيه
وَخُذْ من فكره دُرًّا على الأسماع يُلقيه
له أعــذب منثور لقلب الصَّبِّ يُشجيه
فمن (آيات قرآن) هو : الذخر لتاليــه
وقول (المصطفى) صلى عليــه الله باريه
وأشــعار ومنثور توســع فى مبانيــه
فأهــلا بالذى يخـــرج من فيض أماليه
وأهلا يا (علىٌّ) بما لهـــذا الناس تُهديه
وأنعم بالذى ألَّفْـــتَ للكون ومن فيه
بقَيتَ (لعارف) ذخرا وعـــلم أنت تُحييه

الدكتور أحمد عارف الوديني

مصر الجديدة فى ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ هـ .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فلما كان العرض من المحاضرات هو إلقاء دروس وعظية علمية دينية وأدبية على أفراد المجتمع من الخاصّ والعام ، الذين يحضرون لسماعها فى الجمعيات العامة والنوادى الخاصة ، ليفيدوا منها عظةً واعتباراً ، وعلماً وأدباً وديناً ، فتهذّب نفوسهم ، وتثقف عقولهم ، وتنمو مداركهم . وقد انتشرت الآن المحاضرات فى كثير من الجمعيات حتى جعل لها عنوانات خاصة فى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، كما انتشرت فى المذياع يومياً لحضرات العلماء والأدباء المحاضرات الدينية والأخلاقية . تطبيقاً على بعض السور والآيات القرآنية التى تذاع فى (الراديو) بمعرفة حضرات القراء المشهورين وتفسيراً لها .

ولما كان لى حظّ إلقاء بعض المحاضرات فى جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية التى أتشرّف بالانتساب إليها ، وقد نشرت فى مجلة الجمعية وفى مجلات أُخَر كمجلة الإسلام ، ومجلة هَدْى الإسلام ، ومجلة نشر الفضائل والآداب الإسلامية ، ومجلة النهضة النسائية .

فقد رأيت حفظا لها من الشتات أن أجمعها فى كتاب واحد أسميته :

المحاضرات الفكرية

وعهدت بطبعها إلى حضرات السادة أصحاب (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر) .

وأرجو أن يكون من وراء طبع هذه المحاضرات النفع الجزيل لأبناء وادى النيل .

والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب ؟

السيد على فكرى

المراجع

١ — مجلة جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية .

٢ — « الإسلام

٣ — « هَدْيِ الإسلام

٤ — « نشر الفضائل والآداب الإسلامية

٥ — « النهضة النسائية

المحاضرات العلمية فى عهد النبوة

ظنت طائفة أن تعليم الناس من طريق المحاضرات فى أوقات معينة من صنع المدنية الغربية وتنظيمها ، فأخذت تثنى على أهل الغرب بالخير ، وتذكرهم بما نتوهم أنهم دون سواهم أهل له .

ولو اقتصر قول هذه الفئة على هذا لهان الخطب ، ولكنها توغلت فى ذمّ الشرق وأهله بعنف .

ولما كان هذا غلوّا فى غير الحقّ (والغلوّ مذموم فى كل شىء) رأيت أن أورد ما كان من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه فى تعليم الناس مما جاء فى الآثار الصحيحة عسى أن يكون فيه هدىً ونور لمن كَلِفَ بالأدب والأخلاق الغربية ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

قال البخارى : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة قال : حدّثنا جرير عن منصور عن أبى وائل قال : « كان عبد الله (يعنى ابن مسعود) يذكّر الناس فى كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، قال : أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أُمِلّكم (يعنى أُضْجركم) وإنى أتخوّلكم بالموعظة (يعنى أتعهدكم) كما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بها مخافة السآمة علينا » .

فهذا عبد الله بن مسعود وحبر الأمة المحمدية كان يخرج للناس فى كل يوم خميس فيحدثهم ويعلمهم ويعظهم ، وما كان رضى الله عنه مملولا فى تعليمه وتذكيره . بل المستمع له يودّ لو يذكّر كل يوم ، لكنه عليه رضوان الله آثر أن يكون فى فعله كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إنك لتعلم من هذا أن المحاضرات الموقتة قديمةٌ فى الناس ، ولا حرج عليك إن قلت إنها من غرس النبوّة الصادقة . ولو فكرت لعلمت أن من مكارم الأخلاق التبشير وترك التنفير ، ولو أدى ذلك إلى تقليل الدروس أو تقصير زمنها . والعبادة تجرى مجرى العلم : فلا يجمل بالمصلى ولا بقارئ القرآن أن يكثر من فعله حتى تملّ نفسه . فان للنفس انصرافا قد يكون خطراً أحيانا . ولقد ورد فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن الدّينَ يُسرٌ ولن يُشادَّ الدّينَ أحدٌ إلا غلَبَه » .

هكذا كان السلف الصالح ، فما أبهى رسوم الأولين ، وما أحسن ما كان عليه السابقون الأوّلون ، أنار الله بصائرنا ، وقيض لنا من يبصرنا حتى نرى الحقّ فنتجرّعه وإن كان مرّا .

أولا

المحاضرات الخاصة بالرجال

المحاضرة الأولى :

التقــــوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، الحمد لله مفيض الرحمة على عباده الصالحين ، الحمد لله الذى وعد بالجنة عباده المتّقين ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وجاء بالحقّ المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : ففى كل جمعة نسمع الخطيب يقول : اتّقوا الله فى السرّ والعلن ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ولما كان كثير من الناس لايعرف معنى التقوى ولا فضائلها ، أردت أن أجعل موضوع محاضرتى فى هذه الليلة التقوى وما جاء فيها من الآيات البينات ، والأحاديث الباهرات ، والحكم والعظات . وبالله دون سواه أستعين ، وعليه أتوكل .

التقــــوى

التّقوى ـ وفقنى الله وإياكم إليها ـ هى امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه .

وقال الإمام علىّ كرّم الله وجهه : التّقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد للرحيل .

وقد حثّ الله تعالى عليها فى آيات كثيرة ، نكتفى بذكر بعضها مع بيان ما يترتب عليها من جزيل الثواب ، وحسن المآب ، ورفيع الدرجات ، وعظيم الخيرات فى الجنات.

قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ ولْتنظُرْ نفسٌ ما قدّمت لغد . واتّقوا الله إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم أُولئك هم الفاسقون)

هاتان الآيتان الكريمتان تهديان إلى ثلاثة أمور :

(الأول) الحثّ على التقوى . (الثانى) الحثّ على العمل الصالح ، ومحاسبة الإنسان نفسه قبل أن يحاسب ، والنظر فيما ادّخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضه على ربه ؛ فالله عليم خبير بجميع أحوال العالم وأعمالهم ، لاتخفى عليه خافية ، فيجازى عليها ، إن خيرا فخير ، وإن شرًّا فشرّ .

وفى هذا قلت فى كتابى (آداب الفتى) : يعيش المرء تارةً فى عزّ وهناء ، وطوراً فى ذلّ وعناء ، ثم ينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وتكون ذكراه من بعده أعماله . أسألك اللهمّ أن توفقنا إلى ما به تطيب ذكرانا وتحسن سيرتنا .

(الثالث) الحثّ على مداومة ذكر الله تعالى وعدم نسيانه .

قال جلّ شأنه فى الحثّ على التقوى ، وبيان ما يترتب عليها من الفوز العظيم ، والتوفيق لصالح الأعمال ، وتكفير الذنوب والخطايا :

(يا أيها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ وقولوا قولا سديداً يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومن يُطعِ اللهَ ورسوله فقد فاز فوزًا عظيماً) .

المقصود من هاتين الآيتين : حثّ المؤمنين على تقوى الله ، وأن يعبدوه عبادة من يسمعهم ويراهم ، وأن يقولوا قولا سديداً : أى مستقيماً لااعوجاج ولا انحراف عن الحقّ فيه ، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن يثيبهم عليه أجراً عظيماً ، ويمنحهم من كرمه فضلاً جزيلاً وخيرًا عمياً ، بأن يصلح لهم أعمالهم (أى يوفقهم للأعمال الصالحة) وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منه (وهو الذى يقبلُ التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيئات) .

وبعد أن حثّ الله عزّ وجلّ على التقوى وبين ما يترتب عليها من التوفيق لصالح الأعمال وتكفير الذنوب قال : (ومن يطعِ اللهَ ورسولَه فقد فازَ فوزًا عظيماً) أى ظفر بالخير ظفراً عظيماً سواء فى الدنيا ، أو فى الآخرة .

وقد أشار الله تعالى إلى أن التقوى من أعظم الحصون ، وأنفع الوقايات لصاحبها ، يوم توفى كل نفس ما كسبت بقوله :

(يا أيها النّاسُ اتّقُوا ربّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شىءٌ عظيمٌ . يومَ ترَوْنَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عما أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملَها وترَى الناسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى ولكنّ عذابَ اللهِ شديدٌ) .

وبعد أن بين الله فظاعة هذا اليوم وعظيم هوله بَيَّن أحواله وما يحصل فيه من نتائج تلك الأهوال فقال :

(يومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عما أرضعت ، وتضعُ كل ذاتِ حملٍ حملَها وترَى الناسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى) أى وقت رؤيتكم لها تذهل كل مرضعة عن رضيعها لو كان لها رضيع ، وتذهل عنه لهول ما ترى ، وتضع كل امرأة صاحبة حمل حملَها قبل تمامه لو كانت ذات حمل ، وذلك من شدَّة الهول والجزع والذعر (وترى الناسَ سُكارَى) أى تظنهم كذلك لشدَّة ما دهمهم من الأمر الذى قد صاروا فيه . فتراهم قد غابت عقولهم ، وفترت أذهانهم ، فمن رآهم كذلك ظنَّ أنهم سُكارى وهم ليسوا بسُكارى فى الواقع ونفس الأمر (ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ) .

ثم يبين لنا أن التقوى تكون سببا فى تكفير السيئات وغفران الذنوب وتنوير الأبصار ، حتى يمكن لصاحبها أن يفرق بين الحقّ والباطل فى قوله :

(يا أيها الذين آمنوا إن تتَّقوا اللهَ يجعلْ لكم فرْقاناً ويكفرْ عنكم سيِّئاتِكم ويغفرْ لكم واللهُ ذو الفضلِ العظيم) .

ولا جرم أن من رضى اللهُ عنهم رزقهم من ثبات القلوب وتنوير البصائر وحسن الهداية وسلامة الأفكار ، ما يفرقون به بين الحقّ والباطل عند الالتباس ، وكفَّر عنهم ذنوبهم فلا يؤاخذهم عليها ، وغفرها : أى سترها عن الخلق .

وناهيك بمن رُزِق رضوان اللهِ تعالى ، ومُنح المزيدَ من كرامته ، فانه يفوز بالسعادة الأبديَّة ، ويُعْطَى الفضلَ الجسيمَ ، لأنه جلَّ شأنه صاحب الفضل العظيم .

وقال عليه الصلاة والسلام « اتقِّ اللهَ حيثما كنت ، وأتبِع السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُها ، وخالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حسنٍ » رواه الترمذىّ وأحمد .

والتقوى من الأسباب التى تقرِّب العبد من مولاه ، وتدعو لفلاحه وسعادته بدليل قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ وابتَغُوا إليهِ الوسيلةَ وجاهدوا فى سبيله لعلَّكم تُفْلِحُون) .

فالمطلوب فى هذه الآية ثلاثة أشياء :

(الأول) اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ومحارمه .

(والثانى) طلب التقرّب إلى الله بجميع أنواع البرّ والخير والطاعات والعباداتْ

وترك المعاصى والموبقات ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) .

(والثالث) مجاهدة النفس فى سبيل الله ، والعمل بشرائعه التى شرعها وسنها لعباده ؛ وذلك بأن يروض نفسه على فعل الخيرات وعمل الطاعات ، ويكبح جماحها عن الشهوات والمنهيات ، وقد وعد الله جلّ شأنه من عمل بأوامره ، واجتنب محارمه ، وترك نواهيه ، وطلب التقرّب إليه بالطاعات والعبادات ، وجاهد نفسه بمنعها عن كل ما تشتهيه ـ أن يمنحه الفلاح والسعادة الخالدة المستمرّة بقوله (لعلّكم تُفْلِحون) .

ثم بَيَّن لنا سبحانه وتعالى أنّ طاعته وطاعة رسوله ، ومراقبته والخشية منه ـ سبب الفلاح والفوز بالسعادة الأبدية فى قوله تعالى :

(ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ ويَخشَ اللهَ ويتَّقْهِ فأولئك همُ الفائزُون) أى طاعة الله تعالى ورسوله ، والخشية منه جلّ شأنه ، والخوف منه فيما مضى من الذنوب وحفظ نفسه من اقترافها فى المستقبل ـ سبب للفوز والسعادة الأبدية ، والأمن من كل شرّ فى الدنيا والآخرة ؛ لأن من أطاع الله ورسوله واتبع ما أمرا به واجتنب ما نهيا عنه ، وخشى الله تعالى ، وخاف عقابه ، وندم على ما فعله من الذنوب ، وراقب جانبه حتى لايقع منه ذنب فى المستقبل فاز بحبّ الله وكان له أهلا . قال تعالى :

(قُل إن كنتُم تحبُّون اللهَ فاتبعونى يُحبِبْكم اللهُ) .

ومن أحبه الله منحه الفضل الجزيل ، والخير العميم ، وأدخله دار النعيم .

ثم إن التَّقوى تنجى الإنسان من الشدّة والكرب ، وتجعل له من كلّ همّ فرجا ، ومن كلّ ضيق مخرجا ، وتساعده على اكتساب رزقه من حيث لايدرى بدليل قوله تعالى : (ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له مخرجا ويرزقْه من حيثُ لايحتسبُ) .

أى من لايخالف الملك الأعظم ، ويجعل بينه وبين ما يسخطه وقايةً بما يرضيه ، وهو اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، يجعل له بسبب التَّقوى مخرجاً : أى مخلصا من كلّ شدّة . قال أبو ذرّ ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ، وتلا قوله تعالى (ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له مخرجاً ويرزقْه من حيثُ لايحتسبُ) » أخرجه أحمد والحاكم . والمعنى : جعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة . وقال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعى.

وقصته كما أخرجه ابن مردويه : هى « أنّ المشركين أسروا ابنا له يسمى سالما ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يشتكى إليه الفاقة . فقال : إن العدوّ أسر

ابنى وجزعت الأم ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : اتّق الله واصبر ، وآمرك وإيّاها أن تكثرا من قول : لاحول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ؛ فقالت المرأة : نِعْمَ ما أشار به رسول الله ، فجعلا يقولانها ، فغفل العدوّ عن ابنهما ، فساق غنم العدوّ وجاء بها إلى المدينة فنزلت هذه الآية ، وجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام لهم وأصبحوا أغنياء بعد أن كانوا فقراء بفضل تقواهم » .

وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر ، فمالوا إلى غار فى الجبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرّجها . فقال أحدهم : إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم ، فاذا رُحت عليهم فحلبت ، بدأت بوالديّ أسقيهما قبل أولادى ، وإنه ناء بى الشجر فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلُب ، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية ، والصبية يتضاغَوْن عند قدمى (يعنى يصوّتون من الجوع) فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ؛ فان كنت تعلمُ أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء . ففرج الله لهم حتى رأوا السماء . وقال الثانى : إنه كانت لى ابنة عمّ أحبها كأشد ما يحبّ الرجال النساء ، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها ؛ فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتقّ الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه ، فقلت ؛ اللهمّ إن كنتَ تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة ، ففرج لهم فرجة . وقال الثالث : اللّهمّ إنى كنت استأجرت أجيرا بفَرَق أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه حقه فتركه ورعب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا وراعيها ، فجاءنى فقال : اتقّ الله ولا تظلمنى ، فقلت : اذهب إلى تلك البقر وراعيها ، فقال : اتقّ الله ولا تهزأ بى ، فقلت : إنى لاأهزأ بك ، فخذ تلك البقر وراعيها ، فأخذها وانطلق بها ؛ فان كنتَ تعلم أنى فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقى . ففرج الله عنهم بفضل تقواهم وصالح أعمالهم » أخرجه البخارى ومسلم .

والتقوى من أسباب تيسير الرزق لقوله تعالى (ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له من أمره يُسرًا) .

أى من يتق الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه لطاعته . وهى أيضا من أسباب تكفير السيئات ومحوها لقوله تعالى :

(ومن يتّقِ اللهَ يكفِّرْ عنه سيئاتِه ويُعْظِمْ له أجراً) .

أى من يخف الله وينفذ أحكامه ويراع حقوقه يمحُ عنه سيئاته ، فان الحسنات يذهبن السيئات . ويُعْظِمْ له أجرا بأن يبدّل سيئاته حسنات ، ويوفيّه أجرها فى الدارين مضاعفةً ، فيفوز فوزًا عظيماً .

وكما أن الانسان لابدّ له عند السفر من أخذ الزاد الذى يكفى ، كذلك عند انتقاله من دار الدنيا إلى دار الآخرة لابدّ له من زاد ، وخير الزّاد هو التقوى .

ثم إن الله تعالى أعدّ الجنة لعباده المتقين ، وبيّن أوصافهم فى قوله :

(وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنةٍ عرضُها السّموات والأرضُ أُعِدّتْ للمتّقين الذين يُنْفقون فى السَّرّاءِ والضرّاءِ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناسِ والله يُحبُّ المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكرُوا اللهَ فاستغفرُوا لذنوبهم ومن يغفِرُ الذنوبَ إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين) .

فأصحاب الجنة هم الذين يبذلون الإحسان فى حالتى العسر واليسر ، والشدّة والرخاء فإنّ من الناس من يبذل الإحسان فى حالة اليسر والرخاء ، ولا يبذل فى حالة العسر والشدّة ، وهؤلاء ليسوا من المتقين .

ثم ذكر كفّ أذاهم للناس بحبس الغيظ بالكظم ، وحبس الانتقام بالعفو . فهذا حالهم مع خلق الله . ثم ذكر حالهم معه سبحانه وتعالى فى ذنوبهم ، فبين أنها إذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار . ثم وعدهم الثواب والخلود فى الجنة . وهذا جزاء العاملين على ما قاموا به من أعمال البرّ والتقوى .

وقد ذكر الله أن الدار الآخرة ليست للمتكبرين القاسين ؛ بل هى لعباده المتقين فى قوله :

(تلك الدّارُ الآخرةُ نجعلُها للذين لايُريدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتّقين) .

ثم حثّ على حسن معاملة الأيتام ، وبين أن التقوى تنفع الذرية فى قوله :

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولا سديداً) .

وإذا كان هذا أمره سبحانه وتعالى لنا بالإحسان إلى أبناء غيرنا وأن نعاملهم بالحسنى ، فما بالكم بأبنائنا الذين نسيء معاملتهم بتركهم فى ظلمات الجهل حيارى لانرشدهم إلى حَسَنٍ ولا نزجرهم عن قبيح ، ونغادرهم لايعرفون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فراقبوا الله فى أولادكم ، واتّقوا يوماً تُرْجعون فيه إلى الله .

هذا ، والمسلمون فى جميع بقاع الأرض متساوون ، ليس لواحد منهم على الآخر فضل إلا بالتّقوى والأعمال ، كما قال تعالى :

(يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرَمكم عند الله أتقاكم) .

أى إن الأكرَم عند الله تعالى والأرفع منزلةً لديه عزّ وجلّ فى الدنيا والآخرة هو الأتقى . فان فاخرتم فتفاخروا بالتقوى لابالغنى والثّروة والحسب والنسب ، فان مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص لايكون إلا بالتقوى ، فمن رام العلوّ فعليه بالتقوى .

أخرج البيهقى وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال « خَطبنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى أيام التشريق خطبة الوداع فقال صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ، إنَّ ربّكم واحد . لافضل لعربىّ على عجمىّ ، ولا لعجمىّ على عربىّ ، ولا لأسودَ على أحمرَ . ولا لأحمرَ على أسودَ إلا بالتّقوى (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) ألا هل بلّغتُ ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فليبلغ الشاهد الغائبَ » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله يوم القيامة : يا أيها الناس إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وفلان أكرم من فلان ، وإنى اليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم . ألا إن أوليائى المتّقون » .

والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وفى الآية الشريفة إشارة الى وجه ردّ التفاخر بالنسب ، حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب (وأنْ ليس للإنسان إلا ماسعى) وأنه لافرق بين النسب وغيره من جهة المادّة لاتحاد ما خُلقنا منه ، ولا أحد أكرم من أحد عند الله سبحانه وتعالى إلا بالتقوى ، وبها تكمل النفس وتتفاضل الأشخاص . وما ألطف قول الشاعر :

لم يُجْدِكَ الحسب العالى بغير تقى مولاك شيئاً فحاذر واتقّ الله
وابغ الكرامة فى نيل الفخار به فأكرم الناس عند الله أتقاها

ولله درّ القائل :

واشدد يديك بحبل الله معتصما فانه الركن إن خانتك أركان
من يتقّ الله يحمد فى عواقبه ويكفه شرّ من عزّوا ومن هانوا
من استعان بغير الله فى طلب فان ناصره عجز وخذلان

وقال ابن الوردى :

واتقّ الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئ إلا وصل
ليس من يقطع طرقا بطلا إنما من يتقى الله البطل

وقال صالح بن عبد القدوس :

عليك بتقوى الله فالزمها تفز إنّ التقىّ هو البهىّ الأهيب
واعمل بطاعته تنل منه الرضا إنّ المطيع لربه لمقرّب

وقال أمية بن أبى الصلت فى حال العصاة والأتقياء :

إلهُ العالمين وكلّ أرض وربُّ الرّاسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رجال
وسوّاها وزيّنها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ فى دجاها مراميها أشدّ من النصال
وشق الأرض فانبجست عيوناً وأنهاراً من العذب الزلال
وبارك فى نواحيها وزكّى بها ما كان من حرث ومال
فكلّ معمّر لابدّ يوما وذى دنيا بصير إلى زوال
ويفنى بعد جدّته ويبلى سوى الباقى المقدس ذى الجلال
وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال
فنادَوْا ويلنا ويلا طويلا وعجّوا فى سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحرّ النار صال
وحلّ المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال فى خطبته :

أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليكم كتاب ، فما أحلّ الله على لسان نبيّه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إنى لست بقاض دائما ، وإنما أنا منفذ لله ، ولست بمبتدع ولكنى متبع ، لست بخيركم دائماً وإنما أنا رجل منكم ، ألا وإنى أثقلكم حملاً . يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، يا أيها الناس عليكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شىء ، ولا خلف من التقوى .

وقال المرحوم الشيخ زكى الدين رئيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية فى أول عهدها :

اتقّ الله فالتقوى جمال أرباب الكمال ، وشفاء من الداء العضال . اتقّ الله فبالتقوى تقوى وتحظى بما تهوى وتلحظ بالجلال . وليَحْرِص كل منا وفيه بقية ، على أن تكون له نفس تقية ، فلن يسعد إلا التقىّ ، وكل من عداه فهو شقىّ . واتقوا الله حقّ تقواه ، وراقبوه مراقبة من يسمعه ويراه ، واعملوا للآخرة ، فسيجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإنى أختم كلمتى بما قاله يحيى بن سعد القلّى والمقرّى تذبيلاً :

عفوُك اللّهمّ عنا خير شىء نتمنى
ربّ إنّا قد جهلنا فى الذى قد كان منّا
وخطئنا وغفلنا ولهونا وجنّا
إن نكن ربّ أسأنا ما أسأنا بك ظنّا
فأنلنا الختم بالحسنى وإنعاماً ومنّا

المحاضرة الثانية :

الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أمرنا باتباع الصراط المستقيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، الذى بعثه الله بالذكر الحكيم .

وبعد . فموضوع محاضرتنا فى هذه الليلة المباركة كلمة صغيرة ذات معان كبيرة فى :

الاستقامة

الاستقامة ـ وفقنى الله وإياكم إليها ـ هى أن يسير المرء فى طريقه معتدلاً لايميل مع هوى النفس الأمّارة بالسوء .

فالتلميذ المستقيم الذى يسير فى طريقه مستقيماً يصل إلى مدرسته قبل التلميذ المعوجّ السير .

والطالب المستقيم ينال بلا شكّ رضًا ومحبةَ رؤسائه ، وعطف أهله وإخوانه ، ويكون ممتازاً .

والاستقامة فى السلوك أساس التقدّم ، والوسيلة الأكيدة لجلب محبة الغير واحترامه ، لأن الإنسان لايكون سعيدا بماله ولا بجاهه ، ولا بمعارفه ، ولا بحظوظه الدنيوية ، ما لم يكن مستقيماً فى نفسه .

قال أحد الحكماء لولده :

بُنَىّ استقم فالعود تنمو عروقه قويماً ، ويغشاه إذا ما التوى التّوى
وعاص الهوى المردى فكم من محلّق إلى الجوّ لما أن أطاع الهوى هوى

وقال الله تعالى لنبيه : (فاستقم كما أُمِرْت ومن تابَ معك ولا تَطْغَوْا إنه بما تعملون بصير) .

ـ أمر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة نبيَّه صلى الله عليه وسلم فقال (فاستقم) أى داوم على عبادة الله تعالى مع الوثوق به والتوكل عليه ، والقيام له بحقّ العبودية ،

والوفاء بحق الربوبية (ومن تاب) أى رجع (معك) إلى طاعة الله ، والعمل بما أمر به ربه من بعد كفره (ولا تطغوا) أى لاتتجاوزوا ما حده الله لكم (إنه) تعالى (بما تعملون بصير) أى مطلع عليه .

والاستقامة فى المعاملة : هى أن يسعى كل إنسان إلى حقه ، بحيث لا يُجحِف بحق غيره .

لقد كان النبى يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

فاذا سعى كل شخص إلى حقه على خط مستقيم فانه لايمس حق غيره .

رُبَّ قائل يقول : إن الإنسان يمكنه أن يحصل على أغراضه باستعماله الحيلة والدهاء والتصنع والمراوغة .

فالجواب على ذلك : نعم يمكنه الحصول على ذلك ، بل الحصول على فوائد عظيمة تستدعى إجهاد الفكر وتعب العقل ؛ ولكن القيام بالواجب بالدقة والضبط ، والاستقامة أضمن للإنسان فى نجاح الأعمال ، وموجب لراحة البال ، وإسعاد الحال .

وبالإجمال : إن الاستقامة هى الاعتدال فى الأقوال والأفعال والمحافظة على جميع الأشياء التى تكون بها النفس آمنة مطمئنة ، فلا يظهر منها قبيح ، ولا يتوجه إليها ذم ولا لوم .

وأجل الخلال فيها كمال المروءة ، وتمام الإيمان ، وبها تكتسب الفضائل ، وتسلب الرذائل ، وتحمد السيرة وتحسن السريرة ، وتعمر البلاد ، ويرتاح العباد ؛ وبها تنمو الأموال ، وتحسن الأحوال ، وفقنا الله وإياكم لاتباعها والعمل بها حتى ينصلح الحال ، فى الحال والاستقبال .

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المستقيمين وبالغ فى إكرامهم ومنحهم أعظم ما يكون فقال :

(إنَّ الذينَ قالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزَنوا وأبشِرُوا بالجنَّة الَّتى كنتُم تُوعدُونَ . نحن أولياؤكم فى الحياة الدُّنيا وفى الآخرَة ولَكم فيها ما تشتهى أنفسُكم ولَكم فيها ماتدَّعونَ . نُزُلاً من غفور رَحيمٍ) .

فالاستقامة على طاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، والارتباط بحفظ مواثيقه وعهوده ، والائتمار بأوامره ، واجتناب نواهيه ومحارمه حتى لايراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ، هى الاستقامة المطلوبة التى منح الله صاحبها من الخير أكثره ،

ومن الثواب أعظمه وأكبره ، فنزل عليه الملائكة فى حال حياته عند حلول الملمات به ، وتراكم الأهوال عليه ، بما يشرح صدره ، ويدفع عنه الخوف والحزن . وعند الموت تقول له الملائكة : لاتخف مما قدمت عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزن على ماخلفت فى الحياة الدنيا من مال وولد وأهل فانانخلفك فيه . وفى القبر تؤمنه من الأهوال ، وتؤنسه فيه من الوحشة . وحين البعث تؤمنه مما يشاهده من الهول الجسيم والخطب العظيم الذى تشيب له الولدان ، ويفرّ المرء فيه من الأصحاب والخلان ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى النّاس سُكارَى وما هم بسُكارى : فتؤمنه الملائكة من هول ذلك اليوم العظيم ، وتبشره بالجنة التى وعد الله بها على ألسن الرسل الكرام ، وفيها من جميع ما تختاره النفوس وتشتهيه ، وتقَرّ به العيون وترتضيه . ومهما طلب من أىّ شىء وجده حاضرا بين يديه .

كل ذلك بفضل الله تعالى ضيافةً وعطاءً وإنعاماً منه جزاء استقامته وملازمة طاعته وعبادته .

إن الاستقامة تجاب الخير وتوسع الرزق بدليل قوله تعالى (وأن لَّو استقامُوا على الطَّريقة لأسقيناهم ماء غدَقاً) .

ولقد حثّ الله عزّ وجلّ على الاستقامة ورغّب فيها . وبيّن أنها جالبة للرزق موسعة له فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى :

(ولو أنّ أهلَ القُرَى آمنوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السَّماء والأرض) .

ومنها قوله تعالى :

(ولو أنهم أقاموا التَّوْراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِل إليهم من ربهم لأكلُوا من فَوْقهم ومن تحت أرجُلهم) .

فما أحسن الاستقامة وما أجلبها للخير وأدَرَّها للرزق .

ولنضرب لكم الأمثال فى فضل الاستقامة وفوائدها . وفى أن عدم الاستقامة موجب للحسرة والندامة .

الاستقامة سبب السعادة والسلامة

كان لأحد التجار الأغنياء خادم فطن ، وكان يحبه محبةً شديدةً لأمانته وحسن سيْرته ؛ فى ذات ليلة سمعه يشكو دهره مرَّ الشكوى . فرقّ قلبه عليه ، ومالت

عواطفه إليه وجاءه قائلاً : لم تشكو وأنت عندى فى أعظم منزلة ؟ فأجابه : أشكرك يا سيدى شكر العبد لمولاه ، وإنى أشكو سوء حالى وكثرة عيالى ، فقال له : وما الذى يمنعك من أن تكون غنياً وهو فى طاقتك ؟ قال : يمنعنى قلة المال ، فان كان للغنى باب غير تحصيله فدلنى عليه لأطرقه وأعيش آمنا مرتاح البال ، فقال : اذهب فى الغد إلى الساحل تجد هناك الناس مقبلين على شراء مركب من الشاى ، فزد على الجميع واشتره لنفسك ، قال : وهل يتاح لى ذلك وأنا فقير لاأملك شيئاً ؟ قال : ذلك لايهمك فاذهب وزد على الجميع واشتره وأنا أعينك بعد ذاك ، فبات الغلام ليلته على أحرّ من الجمر ، وما طلع الصباح حتى هرع إلى الساحل ، فوجده غاصًا بالناس وجميعهم مقبل على شراء مركب الشاى ، فاخترق الصفوف حتى وصل إلى الأمام ورفع الثمن ، ولكنه لم يلبث برهة حتى سمع همساً : إن المشترى غلام فلان التاجر الشهير ، فقبل البائع قوله دون أن يفوه بكلمة ، فانتشر الخبر فى كل نواحى البلاد أن التاجر الفلانى الشهير يخزن الشاى ، وارتفعت أسعاره ارتفاعا فاحشا . وفى اليوم الثانى قال التاجر لخادمه : اذهب وبع الشاى ، فأسرع وباعه بثمن أقل من الثمن المتداول حتى باعه فى وقت قصير وربح منه مالاً طائلاً كان سبباً فى سعادته ، وذلك كله بفضل استقامته وحسن سيرته .

هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟

لاوحقك لايستقيم الظل والعود أعوج ، ولا يُقوَّم ذهب إبريز خالص ببهرج ، فظلُّ العود مثله ، فان كان العود أعوجَ كان الظلُّ أعوجَ تبعاً له ، وإن كان مستقيماً كان كذلك مستقيماً ؛ وكما أن الغرس لايثمر إلا من نوعه ، فالورد مثلاً لايثمر قطناً ، والفول لايثمر زيتوناً ، كذلك الرجل الطيب المستقيم لايعيب ولا يسعى فى ضرر غيره ، فالرجل ليس هو الجسم الذى تراه ، بل هو الكلمة الطيبة التى تخرج من فمه ، والعمل الصالح الذى يصدر عنه . والنفس الحرة التى يملكها .

فالرجل يُقدَّر بأقواله وأفعاله . لابجسمه وماله (وقيمة كل امرئ ما يُحسنه) .

عدم الاستقامة سبب الفضيحة والملامة

قال أحد الأدباء : دعتنى بعض الظروف للذهاب إلى جهة وزارة المالية فجلست عند أحد باعة المرطبات ، وكان بجانبى خمسة شبان تلوح عليهم مخايل الذكاء

وشرف النفس ، ثم جاء شاب سادس فحياهم فلا يردوا عليه تحيته بل قالوا له بلهجة شديدة تنحَّ عنَّا أيها الساقط ، فما أحد منا يريد أن يدنِّس يده بوضعها فى يدك ، فمضى الشاب كاسف البال يتعثر فى أذياله ، فأردت أن أستفسر عن السبب الذى حدا بهم إلى مقاطعة هذا الشاب ، فأجابونى : أنه كان فيما مضى حسن السير والسيرة محبوبا من الجميع ، وكنا نستأنس به ونجالسه ، ولكن مع الأسف الشديد عرَف شابًّا أكبر منه سنًّا ، فأغراه وقاده إلى حيث تذبح الفضيلة وتُهتك الحرمات ، فزلَّت قدمه معه فى الرَّذيلة ، فضلَّ طريق الهدى والاستقامة وسلك مسالك التهم والملامة ، وقد اتصل بنا سوء خبره من اثنين من أسرته طالما نصحاه بالإقلاع عن هذه الخطة الشائنة والسلوك السيئ فلم ينتصح ولم يرجع إلى سيرته الأولى ، وذلك لشدّة تأثره بمؤثرات ذلك القرين السوء ، وقد أجهدا أنفسهما معه فلم يظفرا ببغيتهما ، فتوسلا إلينا لعلمهما بصداقتنا وإخلاصنا له بأن نوالى نصحه وننقذه من مخالب ذلك الشقىّ الفاسد ، فكان حظنا معه كحظّ قريبيه ؛ فلهذا السبب آلينا على أنفسنا أن نتركه وشأنه وأن نقاطعه ونبتعد عنه ابتعاد السليم من الأجرب .

سمعت هذه الحكاية منهم فأكبرت شعور هؤلاء الطلبة النجباء ، وقلت : يا ليت شعرى متى ترجع النَّفس عن غيها ، لكنى تذكرت قول الشاعر :

لا ترجع النفس عن غيها ما لم يكن لها عنه زاجر

إن مقاطعة أولئك الشبَّان الشُّرفاء المستقيمى السلوك لذلك الشاب له معنى شريف كبير ، لأن مصاحبة مثله يعتبر سيئة لهم ووصمة عار يوصمون بها ، وقرين السوء يشين سمعة قرنائه ، وجدير بأن يُحكَمَ على هذا الشاب المغرور الفاسد الأخلاق السيئ السلوك بالموت الأدبى والطرد من مكارم الأخلاق ، فلا يصاحبه فاضل وتكون عاقبته الوبال ، والوقوع فى أسوأ حال .

كلمة ختامية

كان يوجد فى مصر فى وسط القاهرة سوق للرذيلة ومذبحة للفضيلة ، مهواة مغشاة بكثير من الزخارف الجذَّابة والمناظر الخلابة والأضواء الساطعة والوجوه الخادعة ، يأخذ بَريقُها بأبصار الشبان وبصائرهم ، ويتسللون إليها ويتهافتون عليها تهافت الجباع على القصاع ، ثم ينزلون عن طهارتهم وعفتهم وكرامتهم ، ويخلعون بُرْدَ شبابهم القشيب ، وفيه القوّة والأمل والمستقبل ، ولا تزال تلعب بهم الأهواء وتتجاذبهم

الغانيات من النساء ، وتتلقفهم الحانات ، حتى إذا لم يعد فيهم من خير ترتجيه ، ولا نفع تبتغيه ، لفظتهم خارجها صُفر الوجوه ، صِفر اليدين ، مرضى الأجسام ، ضعاف النفوس ، واهنى العزيمة ، لايصلحون إلا مثلا للغرور والشرور أو حشواً للقبور .

فمن المسئول عن ضياع هذا الشاب فى بؤرة الفساد وحمأة الرذيلة ؟ الوالدون هم المسئولون عن تلك الزهرات الناضرات التى جنت عليها أيدى الباغيات ، واستولت عليها سموم الحانات ومزقتها الأمراض الفتاكة القتالة ، لأنهم لو غرسوا فى نفوسهم حبّ الفضيلة والاستقامة والخير لما أثمر إلا خيرا ، ولو قبضوا أعنتهم قليلاً ومنعوهم عن طرق الفسق والحرام لما استرسلوا فيه ، ولو عرفوا سبيل المعروف لما سلكوا سبيل المنكر .

أيها الآباء ، وأيها الأبناء ، اعلموا أن الشباب نفيس فلا تبيعوه ، كما قال الشاعر :

آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولى

أيها الشبان الأعزاء ، لا تضيعوا شبابكم وماء حياتكم فى ساعة من اللهو تذهب لذتها وتبقى حسرتها ، واربئوا بأنفسكم عنها .

أسأل الله أن يحفظنا ويحفظكم ، ويحفظ أبناء الأمة من الفساد والشرور ، وإلى الله تصير الأمور .

والصلاه والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحاضرة الثالثة :

مرض الأخلاق وعلاجه

الإنسان فى الدنيا معرّض للأمراض فى أخلاقه كما هو معرّض لها فى جسمه ؛ فكما أن المريض فى جسمه يحتاج إلى الطبيب ليداويه . كذلك المريض فى أخلاقه يحتاج إلى أديب حكيم ليعالجه ويداويه .

ولكن طبيب الجسم يعالج بأشياء مادّية محسوسة كالنباتات والأملاح وغيرهما . أما طبيب الأخلاق فلا يداوى بشىء محسوس . فهو لايعطى مسهّلا ولا مرهماً . وإنما ينفث فى روحه من الحكم والمواعظ والإرشادات والنصائح ما يهذّب تلك الأخلاق وينقيها ويطهرها ويصلح شأنها ، فتسلم من العلل التى كانت بها باذن الله . فيخرج الإنسان صحيح الأخلاق كما يخرج مريض الجسم ناقها من مرضه . فيصبح الغضوب حليماً . والظلوم عادلاً . والمعوجّ مستقيماً . والعاصى مطيعاً . والمبتذل وقوراً . والمتكبر خضوعاً وغير ذلك ، كما يصير مريض الجسم سليماً معافى فى بدنه . وكثيرا ما يتوهم مريض الأخلاق أنه صحيحها لاعلة فيها ولا سقم . لأنه لايشعر فى الحقيقة بمرضها ، أو يدّعى كذباً أنه صحيحها لأنه لايرضى أن يقرّ بعيب فى نفسه كما يتوهم أو يدّعى مريض الجسم . والدواء على كلّ حال صعب يرغب عنه المريض ويأبى تعاطيه . بل ربما ألقاه على الأرض وادّعى أنه تعاطاه مع أنه هو الشفاء له مما هو فيه من الأمراض ، كما قال أحد الحكماء : اصبر على مرّ الدواء حتى يمنّ الله عليك بالشفاء .

كذلك مريض الأخلاق يكره أن يسمع منك نصيحة . فيصُمّ أذنيه . ويلوى وجهه عنك معادياً لك مبغضاً إياك . إلا إذا كان فيه شىء من العقل وأهلية للاهتداء والإرشاد ، فيأخذ الدواء مع غضاضته . ويصغى إلى النصيحة مع مرارتها . وربما تعب المعالج فى أوّل الأمر ، ثم وجد من مريضه امتثالاً وقبولاً ، وبذلك يسهل صلاح الحال ويرجى له الشفاء المطلوب .

علاج سوء الخلق

خير للإنسان إذا أراد التخلّص من خُلُق سيئ ، ألا يديم التورّط فيه ، وألا يطيل

الأخذ والردّ في شأنه ، بل يجتهد في أن ينشئ محله خلُقا جديداً كريماً ، فإن إطالة التفكير والمحاسبة قد تؤدّي إلى انقباض النفس ، والإحساس بضعفها ونقصها وفقدان الثقة بها ، فان أخذ ينشئ محل القديم الفاسد جديداً صالحاً ، نشطت نفسه وانفتح أمامها باب الرجاء ؛ فمن كان سكيرا مثلا لايطيل التفكير في أنه سكير إلا بمقدار ما يتحوّل عن هذا العمل ، وليوجه همه وميله إلى عمل جديد ، كمطالعة كتاب نفيس ، أو القيام بعمل عظيم يستغرق وقت فراغه وينسيه سكره . ومن اعتاد أن يضيع أوقاته في بؤر اللهو وفي أندية اللعب ، فليرسم لنفسه خطة جديدة ، ويحبب إليها عملاً مفيداً ، فبذلك يتحوّل عنه الميل السيئ إلى ميل آخر صالح ، وهكذا .

هذا ، ومما يربي الخلق ويؤثر فيه تأثيراً حسناً ، معاشرة الأخيار من الناس ؛ فالإنسان مولع بالتقليد ، فكما يقلد من حوله في أزيائهم يقلدهم في أعمالهم ويتخلّق بأخلاقهم . قال حكيم : نبئني عمّن تصاحب أُنبئْك من أنت .

وقال الشاعر :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكلّ قرين بالمقارَن يقتدى

فمعاشرة الشجعان تغرس الشجاعة في نفوس الجبناء وهكذا ، وكثير من النابغين يعرون نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو أصحاب أثّروا فيهم أثراً صالحاً ، ونبهوا فيهم قوى كانت خاملة .

ومما يربي الخلُق ويقوّمه مطالعة سيَر الأبطال والنابغين ، فان حياتهم تتمثّل أمام القارئ ، وتوحي إليه أن يقلدهم ويقتدى بهم . ولم تخل أمة من أبطال ، لايقرأ القارئ ترجمة حياتهم إلا ويشعر بأن روحا جديدة دبّت فيه وحركة للإتيان بعظائم الأعمال .

وكثيرا مادفع الناس إلى العمل الجليل حكايةٌ قرءوها عن رجل عظيم ، أو حادثة رويت عنه ، كما أن مطالعة الروايات الغرامية والقصص الخرافية مما يؤثر في نفوس مطالعيها ؛ وربما كانت سبباً في فساد أخلاقهم .

وسنتكلم في المحاضرة الآتية في سموم الأخلاق ومضارّها . والله الهادى لما فيه صلاح الحال .

المحاضرة الرابعة :

سموم الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان وعلّمه البيان ، وفضّله على سائر الحيوان ، بالعقل واللسان ، والصلاة والسلام على من أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، سيدنا محمد المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق .

وبعد : فان الأخلاق عماد الفضائل ، وعليها يتوقف مستقبل الأمم ، فبها تكون الأمة سعيدة أو شقيّة ، وبها تكون الأمة راقية أو منحطة ، مهما كانت على جانب عظيم من العلم والمعرفة كما قال أمير الشعراء :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فلا يفرحِ الآباءُ ولا الأُمَّهات إذا رأوْا أبناءهم وبناتِهمْ يسبِقونَ إخوانهم فى العلوم والمعارف ، لأن ذلك لايغنيهم شيئاً إذا لم يكونوا على خلق عظيم ؛ ماذا يفيد الولدَ كثرة ما يعرفه من العلوم واللغات إذا كان كاذباً سكيراً فاسقاً قليل الحياء ؛ وماذا يفيد البنتَ تعلمها إذا ساء أدبها وتلطّخت سيرتها ؟ .

سموم الأخلاق

توجد موادُّ سامّةٌ للأخلاق إذا علقت بأصحابها أصابت منها مقتلاً فى حياتهم الأدبية ، وقضت على سمعتهم وشرفهم ، كما أنه توجد موادّ سامة للأجسام إذا دخلت فيها فتكت بها فتكاً ذريعاً وقضت عليها .

ولنشرح فى هذه المحاضرة بعض المواد السامة للأخلاق فنقول :

الأول : الاختلاط بفاسدى الأخلاق

انظروا إلى الطفل الذى ينشأ بين طائفة منحطة الأخلاق ، أو الذى يعهد فى تربيته إلى النساء والرجال الذين لا يحتفظون بالآداب فى محادثة بعضهم بعضاً ، أما ترون

أنه يشبّ وقد التقط منهم بذاءة الألفاظ وتخلّق بخلقهم ، واتّصف بصفاتهم ؟ .

وإذا ترعرع واشتدّ ساعده كان من أهمّ المؤثرات فى أخلاقه أخلاق رفقائه الذين يلقاهم فى المدرسة . أو يختلط بهم فى أوقات اللهو واللعب والرياضة ، فاذا لقى صاحبا مهذّبا اقتبس منه وصار نافعاً لنفسه ولبنى جنسه .

أما إذا اختلط بأصحاب شرّ وقرناء سوء ، انصرف عن التربية الصحيحة وصار شرّاً ونكالاً على نفسه وعلى المجتمع الإنسانى .

وَعَدْوَى الأخلاق ليست خاصة بالأحداث والشبان ، بل تتعدّاهم إلى الرجال والنساء . فاختلاط الرجل بالرجل . والمرأة بالمرأة قد يؤدّى إلى الفساد .

وبالإجمال للاختلاط قوّة عظيمة التأثير فى أخلاق الإنسان . فتراه من حيث لايشعر انقلب إلى الغلظة والخشونة والشراسة متى وُجد بين أصحاب هذه الصفات .

حدثنى صديق قال : أعرف شابا كان فى غاية التهذيب ورقّ الأخلاق ، ولكن ساقه سوء الحظّ الى الاختلاط بشاب آخر فى أسرته اعتاد تناول المسكرات على اختلاف أنواعها ، فأثّر فيه وحبّب إليه تناول نوع منها على سبيل التجربة ، فما لبث أن وقع فى الشرك . وأصبحت هذه العادة خاصّة فيه لم يستطع الخلاص منها . رغماً عما بذله أهله من المجهودات فى علاجه . ومحاربته للإقلاع عنها . وأخذ يسرف فى صحته ويسرف فى ماله حتى تسمّم جسمه وضعفت نفسه . ولم يعد ينفع فيه النصح ولا علاج الأطباء ، وآل أمره إلى الخراب . ومات ضحية هذا الاختلاط الشائن ، والضلال المبين .

ولقد صدقت السيدة فاطمة بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قولها (أصلح شىء للمرأة ان لاترى رجلاً ولا يراها رجل) .

هذا ، وليس من المستحيل أن تقوّم أخلاق من يشب وينمو فى وسط فاسد وكان قد تخلّق ببعض خُلُق الشر . فانه إذا أُبْعِدَ عن هذه البيئة ومنع من اختلاطه بهؤلاء السفهاء وقوى عقله وسمت مداركه بالتربية والتهذيب ، وبثّت فيه روح مكارم الأخلاق كان من الناجين .

أما إذا ترك فى ذلك الوسط واستمرّ فى مخالطة فاسدى الأخلاق مع مداركه الضعيفة وقواه الكامنة . فلا يكون له نصيب من الخلاص مما هو فيه من سوء الخلق ، اللهمّ إلاّ إذا أراد الله به خيرا . وأسعده بعنايته وهداه إلى الصراط السوىّ .

فالحذر الحذر من مخالطة الأشرار السفهاء وسلوك طريقهم ، لأن جفونهم لاتنام إلا إذا عملوا الشرّ وأوقعوا غيرهم فى التهلكة .

السعى السعى فى اختيار الصاحب ذى الدين المتين . والحسب الشريف ، والرأى السديد ، والخلُق الحسن ، ليكون عوناً عند الحاجة ، وأنيساً فى الوحشة ؛ ولقد صدق الشاعر فى قوله :

واحــذر مؤاخاة اللئــيم فإنه   يعدى كما يعدى الصحيحَ الأجربُ
واخترْ صديقك واختبره محاذرا   إنّ القرين إلى المقارَن يُنْسَبُ

وقال آخر :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردى فتردى مع الرَّدِى
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينــه   فكلّ قرين بالمُقارَن يقتــدى

الثانى : الـكتب الضارّة كالروايات الغرامية والقصص الخرافية

فالكتب للنفوس كالأغذية للأجسام تختلف وتتفاوت .

فمنها الطيب النافع . ومنها الخبيث الفاسد . ومنها ما هو جدير بأن يطبع بماء الذهب . ومنها ما يستحقّ أن يمحى بماء النار ، ومنها ما هو عديم النفع عظيم الضرر ، بل هو السمّ الزعاف ينفث فى النفوس فيميت الشعور والإحساس .

وكل كتاب لاخير فيه فضرره أكثر من نفعه ؛ ومن الواجب على كل إنسان انتخاب الكتب المفيدة التى يكون الغرض من مطالعتها تقويم الفكر وتهذيب الخُلُق والتقرّب من الله سبحانه وتعالى ، واجتناب الكتب الرديئة المملوءة بالخرافات والأكاذيب المشحونة بآيات العشق والغرام وأحاديث الهيام والأوهام . لأن فى مطالعتها ضياعاً للوقت وإفساداً للعقل بإجماع آراء الحكماء والأدباء .

نعم ، إن اطلاع العاقل على مثل هذه الكتب ربما يزيده عظةً واعتباراً (وربما يجد الإنسان جوهرة فى وسط مزبلة) ولكن كل ما يجعل الإنسان يألف الشرَّ شرٌّ ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومن سلك مسالك التهم اُتهِمَ وَلا أجر له .

نعم ، يوجد عدد عظيم من الكتب التى تسرّ المرء قراءتها ، وترقّى أفكاره ، وتنسيه شواغل الدنيا ومتاعب الحياة . ويمكننا أن نستغنى بها عن مطالعة الروايات الغرامية

والقصص الخرافية المشتملة على ضروب المكر والحيل وأنواع اللصوصية والخداع .
ربّ قائل يقول : ماهى هـذه الكتب وأين هى ؟ فأقول له : عليك بدار الكتب المصرية تجد فيها من أنواع الكتب الدينية والأدبية ما تنفعك قراءته فى الدين والدنيا .

وبما أنى أمين هذه الدار ، وعالم بما فيها من الكتب العلمية والأدبية يسوغنى إخباركم أن عدد طلاب العلم والأدب قليل جدا ، أما طلاب الروايات والقصص فعددهم لايحصى ، وهذا الأمر يدلّ على تدهور الأخلاق فى الأمة المصرية .

ربّ معترض يقول : ولماذا وجدت هذه الروايات بدار الكتب ؟

فالجواب على ذلك سهل وبسيط : وهو أنها وجدت حفظاً للتاريخ ولقياس الحركة العلمية والأدبية فى الأمة .

وإنى ليسوءنى جدا أن أرى كثيرا من الشبان والفتيات والسيدات يهافتون على مطالعة الروايات بشغف زائد ، حتى أصبح سوقها فى ارتفاع ورواج .

الثالث : الصحف الساقطة

لقد انتشر فى جوّ مصر وباء هذه الصحف ، وأصبحت ميدانا خصيبا للطعن والسب والسفاهة . بل مدرسة جامعة لتعليم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأشكالها .

ولقد تمادت هذه الصحف فى غوايتها ، وتطرّفت فى حرّيتها ترويجا لبضاعتها ، فهى إذن وباء ، بل سمّ زعاف يُودى بآداب الأمة وسمعتها .

فلو قامت الصحافة بواجبها خير قيام ، لأثّرت فى نفوس القرّاء تأثيراً عظيماً ، وحملتهم على الإصلاح . فتقطع الفساد من جذوره ، وتُصلح المختلّ من بذوره ؛ كما أنها لو حردت عن الطريق السوىّ ، وأساءت العمل ، أفسدت الصالح ، وزادت الشرّ شرّا ، وأخلّت بالنظام العام . وخالفت الأصول والأحكام .

هذه الصحافة الضالّة ، التى غايتها طلب الربح مما فيه خسران ، لايهمها صحة الأخبار أو بطلانها ، ولربما اختلقتها اختلاقاً ، وأكثرت من الحوادث استلفاتاً لنظر الجمهور ، وسارت مع الهوى كيفما شاءت .

فهى لذلك جرثومة فساد فى الأمة ، وتَضرّها ضرراً بليغاً بالسموم التى تنفثها بأقلامها فى نفوس أبناء الأمة .

فعلى الشعب العاقل الرزين أن يبتعد عنها ويمتنع عن مطالعتها حفظاً لكيانه ، وصيانة لآدابه ؛ والله الموفق لما فيه الخير والنفع لعباده .

الرابع : دور التمثيل الهزلى

وقع فى يدى من عهد قريب إعلان عن مسرح جاء فيه (هلموا يا أرباب الحظّ والطرب إلى سماع ومشاهدة رقص وخلاعة السيدة . . .) وامصيبتاه ! يقولون للراقصة « سيدة » تارة بالمزمار البلدى ، وتارة بالأرغول ، وأخرى على آلات الطرب الوترية ، وهى آية فى الجمال ، وقوّة فى التصرّف ، وتحريك الرجال ، فتبدع وتغنى بصوتها الرخيم غناء العاشق الولهان (روح يا كروان بلغ سلامى) .

(وهى قطعة غنائية غاية فى الإبداع . . . وترقص الرقص الشرقى على أنواعه ، بمساعدة آنسات شرقيات غاية فى الحسن والجمال ، يتحركن بأجسامهن حركة خفيفة تهزّ أوتار القلوب) .

إنى أذكر لحضراتكم هذا الإعلان وأنا فى غاية الخجل والأسف ؛ ولا أريد به التحريض على غشيان تلك الدور ، بل التشهير بها ، والنهى عن الذهاب إليها . ومما يؤسف له أن بعض الجرائد ينشر مثل هذه الإعلانات على صفحاته يومياً طمعاً فى اكتساب الأجر عنها ، وهو لايبالى بأنه يدعو إلى الفسق والفجور .

فمن ذا الذى يطلع على هذا الإعلان ويكون عنده غيرة على الشرف والأخلاق ومسكة من العقل ؟ ولا يحكم بأن فى مثل هذا الإعلان تحريضا على الفسق والفجور ، وأن هذه الدور دور شرّ وفساد .

وإنى لاألوم أصحاب هذه المسارح فهم طلاب رزق وحياة ، إنما اللوم على الشعب وأرباب الصحف .

فحاذروا أيها الصحفيون أن تلتوا أمتكم فى أسفل الدركات ، وحافظوا على كرامتنا وأعراضنا أن تمتهن على أيدى أصحاب تلك الدور .

ارفضوا باحتقار ذلك المال الذى يقدم لكم أجرا لإعلان عن سلاح مسموم يصيب صميم قلوبنا .

حاربوا هذه المخازى ، واطلبوا من الحكومة بإلحاح مصادرتها ، وازجروا الآباء

والأزواج الذين يسمحون لنسائهم وبناتهم وأبنائهم بدخول هذه البقع ليخرجوا منها وقد أراقوا فيها آخر قطرة من ماء الحياة .

أما أنت أيها الشعب الطيب القلب ، السليم السريرة ، فأعرنى سمعك لحظة أُنبئْك بما يُدسّ لك من السمّ الزّعاف خلال تلك العبارات الباردة ، والمناظر الفتانة ، التى يعرضونها على سمعك وبصرك ليضحكوك ويخدّروا أعصابك .

إناك تقصد إلى تلك الملاهى لتقطع جزءاً من وقت فراغك فى الترويح عن نفسك فتخرج منها وقد علقت بك الأوساخ والأدران التى تسمّم عقلك وجسمك ، تخرج منها وقد ألفت أذنك سماع هجر القول وفاحشه ، وتعوّد نظرك أن يبصر أشنع صور الفساد والقبح .

وأنت أيها الشباب الناهض عليك أكثر التّبعة إذا أنت تهاونت فى محاربة تلك المفاسد . فحاربها ، فانّها عدوّك الذى يضحكك ليضحك منك .

كن أيها الشباب الناهض قائد الجمهور فى طريق الرقىّ والصلاح ، واصعد به أوج الكمال والفلاح . وكن سدّا منيعاً يحول بينه وبين السفلة الذين يسطون على مالك وعرضك .

وأنتنّ يا نساء مصر ، يا أمّهاتنا الكريمات ، ويا أخواتنا العزيزات ، ويازوجاتنا المحبوبات ، ويا بناتنا الغاليات ، أسألكنّ بحرمة الدّين والشرف الاحتفاظَ بما عرَف العالَمُ عنكنّ من فضيلة وشرف . أسألكنّ بحرمة الفضيلة والعفاف أن تربأن بنفوسكنّ عن غشيان هذه المسارح الفاسدة ، وأن تزجرن أزواجكنّ وإخوانكنّ وأبناءكنّ من أجل غشيانها ، ففيها سموم الأخلاق وقبر الفضيلة .

الخامس : دور التمثيل الصامت

الصور المتحركة (السينما)

هذه الدور من المخترعات الحديثة التى جاءت من أمريكا وأوروبا . وهى بدعة لاتقلّ ضررا عن دور التمثيل الهزلى . بل هى أشدّ فتكا منه حيث تعرض فيها الروايات الغرامية بأشكالها الفعلية .

وهى بذلك مدارس عملية لتمثيل الرذيلة ، حيث ترى المرأة ما لم تكن تراه منْ قبلُ

من ضروب الخلاعة ، وأساليب الغواية ، وغير ذلك مما ترغب فيه المدنية الغربية الحديثة ، فلا يعود النساء من هذه الحفلات إلا وقد تأثرت نفوسهن من رؤية المناظر المهيِّجة المحرّكة للعواطف والشعور ، مما يَندى وجهُ الحياء خجلاً منه ، كما أنه لايعود الرجل أو الشاب منا إلا وقد علقت نفسه بحوادث ومناظر تأخذ بلبّه وتؤثر فى مجموع أعصابه . وفى هذا من الخطر الأدبى على مجموع الأمّة المصرية ما لايخفى على كلّ عاقل ورشيد .

أسأل الله لى ولكم العافية ، وأضرع إليه تعالى أن ينير بصائرنا حتى نرى الحقّ حقاً ، والباطل باطلاً ، وأن يملأ قلوبنا بحبّ الحقّ حتى نعمل به وله ، آمين .

المحاضرة الخامسة :

التربية الأخلاقية وأثرها فى ارتقاء الأمم

التربية الأخلاقية هى المقياس الصادق الذى تقاس به خطوات الشعوب ونهضات الأمم ، بل هى الأساس المتين الذى تبنى عليه عظمة الأمم وارتقاؤها ؛ فما ارتقت أمة فى العالم القديم والحديث إلا وكان سبب ذلك سموّ أخلاق أفرادها ، وقناعتهم واقتصادهم وحبهم الناسَ محبتهم أنفسهم ؛ وإخلاصهم فى العمل لوطنهم ، وانتشار روح النشاط والإقدام بينهم ، وبُعدهم عن الفخر والرياء والدسائس والفتن ، ونفورهم من الانقسام والمخاصمة .

قال لوثر : ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ، ولا بقوّة حصونها ، ولا بجمال مبانيها ، وإنما سعادتها بكثرة المهذّبين من أبنائها وعلى مقدار الرجال ذوى التربية والأخلاق فيها .

وما انحطت أمة ولا أفَل نجم مجدها ، وزال سلطانها إلا بزوال تلك الأخلاق الفاضلة من نفوس أبنائها وانغماسهم فى الشرّ والفساد .

والأدلّة على ذلك كثيرة : انظر إلى الدولة الرُّومانيَّة القديمة التى أخضعت العالم القديم ، وامتدّت شوكتها إلى غالب ممالكه ، تر أن الأخلاق الكريمة كانت سبب رفعتها ، وأن الترف والفساد كانا سبب انحطاطها .

وألق معى نظرة أخرى إلى الدولة العربية بعد ظهور الإسلام ، دين العلم والأخلاق الحسنة ، ببلاد المشرق ، وبلاد الأندلس ، تر أنها قد بلغت بين الأمم أسمى ما تصبو إليه نفوس الشعوب الناهضة ، حتى كانت جنة هذا العالم ، وزينة الحياة الدنيا ، وأضحت واسطة عقد حضارة العالم ، والغرّة المشرقة فى جبين الأيام ، وكعبة طلاب العلوم والآداب ، فامتدّ سلطانها ، وعلا كعبها وزها نجمها ، وكمل بدرها يوم كانت تنشر ألوية الحضارة على جميع العالم ، وتتلو عليه آياتٍ بيناتٍ من الهدى والفرقان .

لم تزل الأمة العربية كذلك حتى دبّ دبيب الفساد الأخلاقى فى نفوس أهلها ، وتدلى إلى الحضيض مترفوها ، فحقّت عليهم كلمة ربك (وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمرْنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمّرْناها تدميرًا) .

حقاً إن أمراض النفوس لأشدُّ فتكاً بالشعوب وأسرع إبادةً للأمم من أمراض الأجسام . ومن نظر فى تاريخ الأمَّة المصرية قديماً ، رأى أن الفضل فى تقدُّمها وعظمتها راجع إلى الأخلاق الكريمة التى كان عليها سلفها .

كتب مسيو (بورجيه) الذى كان يرافق العالم الأثرى (شمبليون) فى سنة ١٨٢٢ بمصر فيما كتب هذه الكلمة :

رأيت الأمَّة المصرية بالرغم من كوارث الزمان ، وحوادث الدهر التى لو نزلت بأكبر الأمم لقصمت ظهرها ، وأفنت وجودها ، رأيتها على جانب كبير من مكارم الأخلاق والشمم والإباء ، فهى تبتسم للعاملين الصادقين من أىّ جنس كانوا ، كما تعبس فى وجوه الأشرار ، وتقابل المثل بالمثل ، ولقد قوى هذا الخلق الكريم عند ما تجمل به واليها « محمد على باشا » العظيم ، من إكرام الغريب ، المجدّ النافع ، وأصبح الاعتراف بالجميل لدى المصريين إرثاً وحكماً .

ومن نظر إلى حالتها الآن ، رأى بعين الأسف أن السبب فى تأخُّرها وانحطاطها راجع إلى عدم الأخذ بتلك الأخلاق الفاضلة ،واتّباع معظم أفرادها داعى الشهوات والمنكرات .

لو نظر الإنسان إلى الحركة العلمية يسرّ ويفرح بهذه النهضة القائمة بنشر العلم بين أفراد الأمَّة المصرية ، ولكن لو مال ببصره إلى الحالة الخلُقية التى عليها الأمة (لرجع البصر خاسئاً وهو حسير) .

يقولون إنه ينقصنا العلم لمباراة الغربيين واسترداد مجد مصر القديم . وهو قول وجيه ، لأن العلم النافع هو الذى يثقّف العقل. وينمّى الفكر ،ويبعث الذهن على البحث والاختراع والاستكشاف ، وهو قوّة لايستهان بها . ولكن ينقصنا أيضا ما هو أقوى وأعظم من العلم، ينقصنا الأخلاق التى هى ألزم لحياة الأمم ورقيّها من العلم كما قدّمنا . إذ لو عملنا على نشر العلم فقط .وأصبح المصريُّون كلهم علماء ، وهم على ماهم عليه من النقص الخُلقى ماوصلت الأمَّة إلى المجد الحقيقى الذى يرفعها ويعلى شأنها . ولا تصل إلى الاستقلال الحقيقى الذى يرجوه لها كلّ محبّ مخلص لبلاده ، فنحن وإن كنا فى حاجة إلى العلم عشرين مرّة ، فحاجتنا إلى الأخلاق عشرون ألف مرّة .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : تعلَّموا العلم ، وتعلّموا للعلم السكينة والحلم .

وقال العالم الأخلاقي (صمويل سميلز) : إن العلم يجب اقترانه بالخير ، فربّ عالم أقل من جاهل أمانة وفضيلة وأخلاقاً وعملاً بالواجب . وقال (جورج هربرت) الشاعر الإنجليزى : الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة .

ألا ترى بعد هذا أن العلم لايغنى عن الأخلاق . ومن تأمّل بعين الحق المجرّدة عن الهوى فى مواضع الضعف فى الأمّة المصرية وجدها كلها أخلاقية ، ورأى أخلاقنا فى الفردية والاجتماعية دلائل النقص الخلقى تكاد تكون ملموسة باليد ، لو أردنا أن نشرح النقائص الأخلاقية المنتشرة فى الأمة لضاق بنا المقام . على أن فى سردها إثارة للنفوس وتهييجاً للخواطر . فأمسكنا عن ذكرها إشفاقاً على القارئ، ومحافظة على مكارم الأخلاق، فاذا أردتم إصلاحاً وفلاحاً لأمتنا المصرية العزيزة فاجتهدوا فى تربية أخلاق أبنائها وتخليصها من براثن الفساد . وذلك بنشر الدين بجانب معاهد التعليم ؛ فالدّين هو روح الآداب . ومنبع الأخلاق الصحيحة المنزّهة عن الهوى والمطامع الشخصيّة .

الدّين هو الأساس المتين للتربية الأخلاقية فى الشرق قاطبة ، فالشّرقيون يخالفون الغربيين فى تغلّب عواطفهم على عقولهم . والدين موطنه العواطف ؛ ومركزه الفؤاد ، فلذلك كان الشرق من قديم الزمان مهبط الأديان ، وموطن الأنبياء والمرسلين . ولئن جاز لبعض الأمم الغربية تجريد التربية الخُلُقية من روح الدين ، فلا يجوز لأمة شرقية كالأمة المصرية أن تسير على هذا المنهج . لأن الوازع الدينى ، والرجوع إلى خالق قادر ، خالق الكائنات ، واقف على السرائر المدفونة فى أعماق القلوب ، أقوى عامل فى إصلاح الأخلاق . بل هو الأساس الوحيد لنجاح الأفراد وعظمة الأمة .

لهذا الغرض الشريف قامت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، فهدرت شقشقتها حيناً ثم قرّت . والآن قد عادت لشنشنتها .

نسأل الله أن يأخذ بيدها . وأن يوفقها إلى إصلاح المعوجّ من أخلاق الشبيبة المصرية ، وأن يهديها إلى طريق الخير والفلاح آمين .

المحاضرة السادسة :

الحقوق والواجبات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تنزّه عن الولد والصاحب . وأمرنا باتباع الحقّ وأداء الواجب . والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الذى أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد : فان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأمرهم بالعمل والسعى فى الحياة . فقال تعالى :

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولهُ والمؤمنون) .

وقال عليه الصلاة والسلام « اعملوا فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له » .

وجاء فى الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

فكان حقاً على كلّ مخلوق أن يعمل عملاً يدلّ على وجوده فى الحياة . وأن يقوم بأداء الواجب المفروض عليه ، ليكون سعيداً فى الدنيا والآخرة .

ومتى نظرنا فى أحوالنا ، وجدنا أن سبب تأخرنا هو عدم معرفتنا حقوقنا . وجهلنا بالواجبات لغيرنا .

ولذا جعلت موضوع محاضرتى فى هذه الليلة :

الحقوق والواجبات

ولنبدأ بالتكلم على الحقوق فنقول وبالله التوفيق :

الحقوق : هى التى تكون للإنسان على الغير . والواجبات هى التى تكون على الإنسان للغير . فمى عرف كلّ إنسان ما لَه من الحقوق . وما عليه من الواجبات . عاش عيشةً راضيةً مطمئنةً ، ومات مرتاح الضمير .

للإنسان حقوق طبيعية ، وحقوق قانونية شرعية :

فالحقوق الطبيعيّة : هى التى حصل عليها الإنسان من طبيعته . وبعبارة أخرى : هى التى منحها الله للإنسان منذ وُلد ، وليس القانون الوضعى هو المانح لها .

أما الحقوق القانونية أو الشرعية : فهى التى منحته إياها قوانين البلاد ، مثل حقّ البيع ، حقّ الشفعة . حقّ الارتفاق ، حقّ الانتخابات وغيرها ، وهى خارجة عن موضوع بحثنا فى هذه المحاضرة . فلنتكلم فى الحقوق الطبيعية للإنسان .

الحقوق الطبيعية

الحقوق الطبيعية للإنسان : هى حقّ الحياة ، حقّ الحرية ، حقّ المساواة ، حقّ الملك ، حقّ التربية والتعليم .

١ — حق الحياة

لكلّ إنسان الحقّ فى الحياة ، وعليه أن يحفظ حياته ، ويقضيها فى أحسن الأعمال التى تنفع الناس جميعاً . وعلى الناس أن يحترموا هذا الحقّ ، فلا يتعدّوا عليه بأذًى أو بقتل .

وكلّ من تعدّى على حياة شخص آخر عُدّ قاتلاً . واستحق أشدّ العقوبات ، وكان من الحقّ والعدل أن يسلب منه حقّ الحياة .

وهنا نتكلم عن القتل وما جاء فى تحريمه وعقابه . فى الزمن الغابر بعض قبائل العرب كانت تئد البنات خوفاً من العار ، وتقتل الأولاد خشية الفقر .

وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى الحرب متى ظفرت بهم ، وفى بعض الأمم الراقية لايزال حقّ الحياة عندهم معرّضًا للخطر كما هو الشأن عند الأمم التى تبيح المبارزة .

ولو أن الناس قدّروا الحياة حقّ قدرها ، وتقدّموا فى فهم معناها لما تحاربوا ولا تقاتلوا ، وقد نهى الله تعالى عن القتل بقوله : (ولا تقتلوا النّفسَ التى حرّمَ اللهُ إلا بالحقّ) لأن القتل دليل على جمود القلب وقسوته ، وعلى غضب الربّ وسخط الخالق . بل على انسلاخ مرتكبه من الإنسانية .

والقاتل عاصٍ لله سبحانه وتعالى . خائنٌ لبلاده ووطنه ، ساع فى تلاشى العالم وفناء الخلق . معرّض نفسه للإعدام ، وبنيه لليتم والانتقام ، فمن قتل يقتل (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها) .

القاتل الذى يقتل نفساً بريئة لمجرّد سَوْرة غضبيّة ، أو الوصول إلى غرضه مهما سفل إذا تعرّض له أىّ شخص آخر وخالفه فى هواه كان أكبر همّه قتله ، فهو بذلك مستعدّ لقتل كلّ من ينازعه متى أمكنته الفرصة .

وعلى هذا فقاتل النّفس الواحدة كقاتل النّاس جميعاً . ولذلك كان إثمه شنيعاً وعذابه أليماً .

فوجب على كلّ من علم بعزم إنسان على قتل آخر أن يمنعه من تنفيذ عزمه ، كما يمنعه عن نفسه . للمقتول أولياء وأقارب يطالبون بدمه أمام الحكومة . ولا يهدأ بالهم إلا إذا اقتصّوا من القاتل ، ومثّلوا به شرّ تمثيل . والحكومة تعمل جهدها فى القصاص من الجانى لتحافظ على حياة أفرادها ، بدليل قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياةٌ يا أُولى الألباب) .

ولقد اتفقت جميع الأديان على معاقبة القاتل فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالخلود فى عذاب النار وبئس القرار . ومما جاء فى القرآن الكريم فى جزائه قولُ الله تعالى :

(ومن يقتلْ مؤمنا متعمّدًا فجزاؤه جهنّم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ لهُ عذاباً عظيماً) .

فأىّ عاقل يقدم على القتل ويرضى الهلاك لنفسه فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة ؟ .

لهذا كله كان حقّ الحياة حقاً مقدّساً لكل مخلوق . لايسمح لأحد أن يتعدّى عليه بالقتل . وما يقال عن الحياة والمحافظة عليها من اعتداء الغير يقال أيضاً عن صونها من صاحبها أيضاً ، فليس أشنع جرماً . ولا أقبح ذنباً ، ممن يجنى على حياته ويقتل نفسه بيده : أى ينتحر . ونظرا لكثرة انتحار الشبان فى هذه الأيام أرى من المناسب أن أذكر كلمة فى الانتحار .

الانتحار

كنّا من زمن غير بعيد لانعرف الانتحار ولا نسمع به ، حتى أصابنا هذا السيل الجارف ، وهو اختلاط الغربىّ بنا . ذلك الذى حمل إلينا من قبيح العادات تلك العادة الخبيثة ، والخصلة الذميمة الحقيرة . وهى الانتحار . فقوّتْ خلُق اليأس فى نفوس شبابنا ، وهوت زهرة أمتنا إلى مهواة سحيقة عميقة مالها من قرار . فأصبح أولادنا لأدنى سبب

ولأيسر أمر ينتحرون، أو يقتلون أنفسهم بأيديهم بتعاطى السموم ، أو إطلاق الرصاص، أو بقر البطن . أو بطريق الغرق . أو الحريق إلى غير ذلك من وسائل الهلاك .

وإنى لاأجد سبباً يبرّر هذا العمل الوضيع الحقير مهما كبر فى نفس ذلك اليائس المسكين المنتحر .

يرشد الآباء أبناءهم . والأولياءُ مواليهم ، ويتشدّدون معهم فى الإرشاد رغبةً فى نجاحهم . فاذا ما سقطوا فى امتحان ولم ينالوا رغبة آبائهم . ضاقت الدنيا فى وجوههم فيفرّون من الحياة ، ويقدّمون أنفسَهم للموت بهيئة شنيعة ، استسلاماً لليأس . واتباعاً لخَوَرِ العزائم (ألا ساء ما يفعلون) .

ولو فكّروا قليلا لعرفوا أن ذلك التشدّدَ لصالحهم ، وكلّ ما يظهر من أوليائهم إنما هو لنفعهم . فان الأب يحب أن يكون ولده أكبر النّاس، وأعظم الناس، ولو صرف فى ذلك أعزّ عزيز عليه . وأنفسَ نفيس لديه . كما أنه يكره أن ينظر فلا يجد فلذة كبده وروضة حياته . ونعيم وجوده فى هذه الدنيا وهو ولده .

لو علم الأبناءُ ذلك ما أقدموا على الانتحار ولا فعلوه . ولكنه اليأس الذى قبحت نتائجه تمكّن قلوبهم . فأعمى بصائرهم وأبصارهم . وأفقدهم سعورهم ، وقادهم وهم بين مخلب الموت مستسلمين .

وقد ينتحر المنتحر لضيق فى العيش . أو يأس من الشفاء من مرض مزمن، أو خوف من الإفلاس . أو فرار من شماتة الأعداء ، أو عدم الوصول إلى مبتغاه من حبيب يحبه . أو رفض صاحبه . ولكنه والله مخطئ . فانّ مع العسر يسْراً . ومع المرض شفاء . ومع الضيق الفرج . وإن الأمور كلها بيد الله يصرّفها كيف يشاء .

قال الله تعالى (لاتيأسوا من رَوْح الله إنّهُ لاييأسُ من رَوْح الله إلاّ القومُ الكافِرُون) .

وقال حكيم : لامعنى للحياة مع اليأس . ولا معنى لليأس مع الحياة .

ينتحر المنتحر فيترك وراءه أمّا تبكيه ، وأباً يتحرّق شوقاً إليه ، وإخوة تذوب حزناً وأسًى عليه . ووطناً ربما كان فى أشد الحاجة إليه ، وأمةً ساءها حظُّها وضاع أملها . وأكبر من هذا وذاك غضب الله ورسوله . لأنه قد قتل نفسه متعمّداً ، ومن يفعل ذلك فجزاؤه جهنم وبئس المصير .

فماأقبحَ الانتحار وما أشنعه ، وما أحقر فاعليه ، وما أشقى أمّةً شاع فيها مثلُ هذه العادة السيئة الوخيمة العاقبة ! .

لو فكّر المنتحر وقدّر ونظر فى عاقبة الأمر وتبصّر ، لرجع القهقرى ظافراً منصوراً بحياته ، ولألقى باليأس من شاهق ، وادّرع بالثبات والصبر حتى يدرك مرغوبه وينال مطلوبه . ويعيش سعيداً ويموت سعيداً ، فكم من ساقط نجح . وكم من خائب فاز . وكم من فقير أصبح غنياً ، وكم من شقىّ صارسعيداً . ذلك لأنهم صبروا فظفروا ، وتركوهم بعدهم ذكراً حسناً وثناءً طيباً . وأعمالاً نافعة . وذلك جزاء الصّابرين .

ألا فليتجنّب العقلاءُ هذه العادة التى ليست من عاداتنا . رزقنا الله قوّة ندرأ بها هذا الشرّ الوبيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولما كانت معيشة الإنسان معيشة اجتماعيّة لأنه لايمكنه أن يعيش بمفرده كان حقاً وعدلاً أن يضحّىَ بحياته لحفظ حياة المجتمع إذا اقتضى الحال ذلك كما إذا هوجمت أمّة من أمّة أخرى قَصْدَ الاستيلاء عليها .

وهذه التضحية واجبة ما دامت فى سبيل الوطن . وفى سبيل حبّ الله .

٢ — حق الحرية ، معناها والغرض منها

الحريّة غرض الإنسان فى الحياة . وكانت ولا تزال هواه الذى طالما أنفق فى سبيله المال والجاه والروح . كانت ولا تزال أشرف حال يرضى بها الرجل . وأعلى وصف يبغيه لنفسه . وهى لاتُشترى ولا تمنح ولكن تُكسَب بالعمل وحسن الاستعداد .

ومن التقاليد القديمة ، والعادات الحديثة ، أن يمدح الرجل بأنه رجل حرّ فى قوم أحرار . وأن يذمّ بأنه عبد فى قوم عبيد ، وما ذلك إلا لأن الحرية قاعدة الفضيلة . ومناط التكاليف

فأىّ إنسان خمدت فى صدره نار الحريّة . وأظلمت جوانب عقله من شعاعها الساطع جدير بألا يعتبر إنساناً .

والحرّية هبة من الله ، هى حقّ للفرد من يوم ولدته أمّه . وقد وُلِد النّاس أحراراً كما قال سيدنا عمر بن الخطّاب لعمرو بن العاص : متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً . وقال علىّ بن أبى طالب : لاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً .

وقد منح الناس جميعاً الحرّيّةَ لسببين :

أوّلهما — أن حبّ الحرية طبيعي ، متأصّل في نفس كلّ إنسان ، فمن الظلم أن تسلبه هذا الحقّ .

ثانيهما — أن الإنسان لايستطيع أن يقرّر شئونه بنفسه إلا إذا كان حرّا : أى أنه لايمكنه أن يكون مسئولاً إلا إذا كان حرّاً .

ليست الحريّة كما يفهم بعض العوامّ مسوّغاً يرخّص للإنسان عمل كل شيء ولو محرّما . أو أمراً خارجاً عن حدّ الشّرع والأدب .

فتراهم باسم الحرية يتعاطون المنكرات ، ويرتكبون الجنايات ، ويجاهرون بالتمرّد والعصيان . وباسم الحرية لايكرمون والديهم ولا معلّميهم ، ولا يحترمون أكبر منهم سنّاً وعلماً وفضلاً . وباسم الحرية تخرج النساء فى الشوارع والطرقات ، وتكشفن أذرعتهنّ ووجوههنّ . ويبدين زينتهن لكل ناظر وسائر ، فهذه هى الحرية الفاحشة ، الحرية المنكَرة .

أما الحرية الشرعية المعتبرة . الصالحة للعالم بأسره ، فهى إطلاق سراح الإنسان من ربقة الاستعباد.وجور الاستبداد ، فينطلق حرّ الضّمير والفكر ، متمتّعاً بحقوقه الماديّة والأدبيّة . لايعبث بامتيازات الإنسان ، ولا يهضم حقوق أحد ، لايستَبِدُّ ولا يُستَبَدُّ به . بل يقف عند حدّه محترماً حقوق غيره . محافظاً على شرفه ومركزه .

فهى حينئذ شعار العدل . وسُلّم المجد . وملاك الحكم . وقوام الرأى ، وغرس التمدّن . وأساس العمران ، وروح الأمن . وعماد النّظام ، وداعية الاستقلال ، وحليف السلام . يجب على الإنسان العاقل أن يتمسّك بها فلا يعمل ما لايليق عمله بدعوى الحرية التى لامعنى لها إلا الفوضى والهمجيّة ، بل يعرف لها حقها ، ويرعى لها حرمتها ، محترماً القوانين مراعياً الآداب . ليتّصف بمعناها الحقيقى ويكون رجلاً حرّاً .

وكما أن له الحقّ أن يكون حرّا يجب عليه أن يحترم حرية الآخرين .

يجب أن ينضمّ إلى شعور الشخص ـ بأنه حرّ وأنه سيد نفسه ـ شعورٌ آخرُ بأنه ليس يعيش وحده . ولكنه عضو فى المجتمع . وأنه مسئول عن حرية هذا المجتمع . ومن مميزات الأمم الشّرقية نماء هذين الشّعورين فى أفرادها وتعادلهما : أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية .

وهناك واجب آخر على كل حرّ . وهو أن يستعمل حرّيته فى خيره وخير النّاس ، فمن أساء استعمالها كان خليقاً أن تسلب منه حرّيته .

ولقد أصاب من قال :
من يتعشّق الحرية يجب أن يكون قبل طبيباً حكيماً .

أنواع الحرية

للحرية جملة أنواع :

النوع الأول : الحرية الشخصية

وتظهر فى ثلاث حالات

الحالة الأولى : أن يكون الفرد حرّا طليقا ليس لأىّ أحد سيادة عليه ، وهذه الحرية هى ضدّ الاسترقاق فيقال : فلان حرّ ، وفلان رقيق ؛ وقد كان الاسترقاق فاشيا فى العصور الماضية ، ولم يكن ينظر إليه بعين المقت التى ينظر بها إليه الآن .

وهنا يحسن أن نذكر كلمة عن الرقّ والاسترقاق فى الإسلام ومعاملة الأرقاء .

الرّق

الرقّ : هو حرمان الشّخص من حريته الطبيعية ، وصيرورته ملكاً للغير . وقالوا : إن الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الإنسانى ، وهو قول فى غاية الإصابة والسداد ، فانه ظهر حقيقة عندما وقعت الاجتماعات البشرية الأولى أيام كان حجاب الجهالة مسدولاً على عالم الفطرة .

والذى أوجب هذا الفعل هو أنه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأشقّها أخذ الإنسان فى البحث عمّا يخلّصه من عنائه ومكابدته ، فاذا بطلبته بين يديه عند الهيئة الاجتماعية ، فان القوىّ ألزم الضعيف بالأشغال ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق . وكان الاسترقاق بالشرق أكثر منه بالغرب نظرا لطبيعة الإقليم . ثم جاءت الحروب وتولّدت الأطماع . فتفشّت الاسترقاق فى جميع أجزاء العالم وعند معظم الأمم . وصار النّاس لايقتلون العدوّ بل يبقون عليه ليعمل لهم . ولما ظهرت الديانة المحمدية ببلاد العرب وكان الاسترقاق ضارباً أطنابه عند الجاهليّة من الأعراب . كما كان منتشراً عند غيرهم من الأقوام كان من أصعب الأعمال ، ولا جدال فى أنّ ما قام به عليه الصلاة والسلام من إخراج العرب من ظلمات الجهالة التى كانوا هائمين فيها . ومن نزع عاداتهم الوحشيّة

ونهيهم عن أمر ألفته طباعهم أعواماً بل أجيالاً . فلهذا لم تأمر الديانة الإسلامية بإلغاء الاسترقاق مرّة واحدة . ولكنها لم تقرّه على ما كان عليه ، لأن أحوالها العموميّة لم تكن لتنطبق على ما كان جارياً فى ذلك العهد . فعملت على إنضاب معينه ، وتقليل أثره من الوجود . وحصره فى حدود ضيقة على وجه يخالف تماماً ما كان عليه فى تلك الأيّام وقرّرت القاعدة الآتية :

« إن المسلم المولود من أبوين حرّين لايجوز استرقاقه فى أىّ حال من الأحوال » .

وكان لتقرير هذه القاعدة مزيّة كبرى . وفائدة عظمى . لأنها أخرجت من هذا الظلم الفاحش المهيمن قسماً عظيماً من العائلة البشريّة .

وكانت هذه القاعدة مفتاحاً لحلّ المسألة المعضلة ، مسألة الاسترقاق عند كثير من الأمم .

ثم إن الشريعة الإسلامية أمرت بالعطف والحنان وحسن معاملة الأرقاء بالرفق . انظر إلى ما رواه الإمام علىّ كرّم الله وجهه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم . أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلّفوهم من العمل ما لا يطيقون . فما أحببتم فأمسكوا . وما كرهتم فبيعوا ، ولاتعذّبوا خلْق الله . فانّ الله ملّككم إيّاهم . ولو شاء لملّكهم إيّاكم » .

وعن أمّ سلمة قالت : قال صلى الله عليه وسلم « اتّقوا الله فى الصّلاة وفيما ملكت أيمانكم » .

تر أن مراقبة المالك لله سبحانه وتعالى وخشيته منه فى معاملة عبده مجعولتان بمنزلة مراقبة وخشية المفروضتين عليه فى القيام بواجب الصلاة ، وهى عماد الدين ومن أهمّ أركان الإسلام . وفضلا عن ذلك فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه الذى انتقل فيه « الصّلاة وما ملكت أيمانكم » وكانت هذه آخر كلمة نطق بها قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

وقد جاء فى الحديث الشريف ما فيه زيادة التصريح والتعريف . فقد روى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتّقوا الله فى الضّعيفين : المملوك ، والمرأة » .

وفى الأثر « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرّفق بالرّقيق حتى ظننت أن النّاس لا تُستعبد ولا تستخدم » .

فهل يصحّ فى شرع العقلاء بعد وقوفهم على هذه الأحاديث الغرّاء أن يتهموا الديانة

الإسلامية السمحة بالتّوحش والهمجيّة ؟ وقد حثّت الشّريعة الإسلامية على تعميم التّربية والتعليم ونشر أنوارهما وفوائدهما فى كلّ زمان ومكان على كلّ إنسان . لايستثنى من ذلك الأرقاء ولا العبيد . فقد قال عليه الصلاة والسلام « من كانت له جارية فعلّمها وأحسن إليها وتزوّجها كان له أجران » فى الحياة الأخرى : أجر عن الزواج والتعليم ، وأجر عن العتق .

فهلا ترى فى ذلك دليلاً قاطعا وبرهاناً ساطعاً على أن الشّريعة لا تحثّ على معاملة الرّقيق بالحُسنى فقط ، بل تأمر أيضا بتهذيبه وتأديبه . وفى هذا القدر كفاية . ومن أراد الزيادة فليطلع على كتاب « الرقّ فى الإسلام » تعريب المرحوم سعادة أحمد زكى باشا . وقد جدّت أنواع الرقيق الأبيض والأسود فى العصور القديمة . وفى العصور الوسطى . وما زالت الحرية تظهر وتأخذ مكانها شيئاً فشيئاً حتّى قضت على الرقيق فى أوروبا فى أواسط القرن التاسع عشر .

ثم استصرخت الحرية الشرق . فكان أوّل من لبّى نداءها المغفور له إسماعيل باشا (ابن إبراهيم باشا) خديوى مصر الأسبق . فمنع الاتجار بالرقيق . وفى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ عقد مع بريطانيا معاهدة لمنع الاتجار بالرقيق ، وإبطال الرقّ بالقطر المصرى والسودانى . فكان عمله هذا جديراً بالإعجاب الشديد والثناء العظيم من دول الغرب والشرق .

ومن هذا الوقت سرت روح الحرية فى مصر . وفى أكثر أمم الشّرق . ويُظنّ أنه لم يبق للرقيق من أثر فى العالم إلا فى بعض الجهات النائية فى أفريقيا وآسيا .

الحالة الثانية : من مظاهر الحرية الشخصية أن يكون الفرد حرّا فى غدوّه ورواحه وظعنه وإقامته . يقيم فى هذا المصر . وينتقل منه إلى ذلك القطر . دون أن يمنعه من ذلك فرد آخر . ودون أن تتعرّض له السُّلطة فى شىء من هذا . إلا إذا كان لسبب يجنى عليه القانون .

الحالة الثالثة : ألا يكون الفرد عرضة للقبض عليه أو الحبس أو الحكم عليه بعقوبة ما لم يكن لذلك مسوّغ قانونى .

النوع الثانى : حرية الملك

حرية الملك : أن يكون الفرد حرّا فى أن يمتلك ما شاء . ويقتنى ما شاء من عقار

أو منقول ، وأن يتصرّف في ملكه كيف يشاء ، وفي أيّ وقت يشاء ، وألا يُحرَم من ملكه أو يُمنعَ عنه ما لم يكن هناك مسوّغ قانوني .

النوع الثالث : حرية المسكن

حرية المسكن : للساكن حرمة ، فلا يباح لأحد ، ولا للسلطة الدخول في مسكن الشّخص إلا باذنه ، أو في الأحوال التي يجيزها القانون ، وهذا ينطبق عليه قوله تعالى (يا أيها الّذين آمنُوا لاتدخلُوا بيُوتاً غير بيُوتكم حتى تستأنِسوا وتُسلِّموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلّكم تذَكّرون . فإن لم تجِدوا فيها أحداً فلا تدخلُوها حتى يُؤْذَنَ لكم . وإن قيل لكم ارْجِعوا فارْجِعوا ، هو أزكى لكم واللهُ بما تعملونَ عليمٌ) .

النوع الرابع : حرية العمل والصناعة والتجارة

هذا النوع من الحرية أن يكون الفرد حرًا في أن يعمل ما يشاء ، وأن يشتغل في الصناعات والحرف التي يريدها وأن يتّجر بما يشاء إلا بما يحرمه القانون من الأعمال والصناعات والتجارات . فاسعَ أيها المصري للاستقلال في عملك وصناعتك وتجارتك .

واعلم أن في الأعمال الحرّة مجالاً رحيباً لأبيّ النفس وعزيزها ، ولكبير الهمّة وعاليها . ولشديد العزيمة وقويها ، استقلّ بعملك . تنَشَّطْ إليه ولا تملّه ، لأنك تعلم أن فوائد عملك راجعة كلها إليك . فلا شريك يقاسمك إيّاها ، ولا رئيس أو مدبر عمل أو صاحب معمل يحتجنها دونك ، فكلّ ما تكتسبه فهو لك ، وهذا ما يرغّبك في استزادة الكسب [illegible] . فتح لك منه باب جديد ، وتستلذّ العمل لأنك حرّ لا مسيطر عليك [illegible] منه . وتشعر وأنت في عملك الحرّ أنك ملك مطاق في مملكته ، ويتّسع [illegible] الناس في مخالطتهم ، وبالتالي يتسع أمامك مجال السعي ، و[illegible] حتى إنك تستسهل الكسب أكثر مما يستسهل الموظف عمله الذي يزاوله كل يوم . [illegible] تتقوّى ثقتك بنفسك كلما رأيت سبيل الاسترزاق [illegible] خلائقك . ويرقّ طبعك بما تكتسبه من عشرة الناس على [illegible] .

استقلّ بعملك وتجارتك تنمُ ثروتك لأن دَخلك غير محدود وأنت غير مقيّد في [illegible] . وليس من يعيّرك بالتقتير مهما كنت مقترًا ، بل قد

يحسبك النّاس مُسرفا لأنهم يجهلون مقدار دخلك فلا يقابلونه بنفقتك ، ومتى كنت ذا مال كنت ذا كلّ شيء .

واعلم بأن الأمم لاتستقل استقلالاً حقيقياً إلا إذا تربّت أفرادها تربية استقلالية ، وتربية خُلُقية ، فاستقلّ أيها المصرى ، استقلّ فى عملك وصناعتك وتجارتك .

النوع الخامس : الحرية المدنية

لايتمتّع الفرد بهذا النّوع من الحرية إلا إذا كان فى أمّة قد بلغت حظّاً وافراً من المدنيّة ؛ أما إذا كان فى أمة همجية ، لايأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو السرقة أو مصادرة أملاكه .

فاذا تقدّم الناس فى الحضارة أصبح لكلّ فرد فى الأمة الحقّ فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وأمن أن يُسجَن أو يحبس أو يعاقب أية عقوبة إلا إذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد ، ولا يصحّ أن يُعتَدى عليه فى غير هذه الحالة ، ولا أن يكون ضحيّة لطمع ملك أو انتقام حاكم أووزير أو أمير .

وهذا النوع من الحرية يشمل : حرية الرأى ، وحرية الاجتماع والخطابة ، وحرية الصّحافة .

ولنتكلم على كلّ منها بغاية الإيجاز فنقول :

ا ـــ حرية الرأى والفكر : ونعنى بها أن يكون كل إنسان حرّا فى الحكم على الأشياء بما يعتقد أنه الحقّ ، فليس الاجتهاد والتفكير والحكم على الأشياء بأنها صواب أو خطأ فى حقّ طائفة خاصّة ، بل من حقّ كل فرد أن يقول أو يكتب مايراه صوابا بعد أن يتثبّت منه ويقوم عنده البرهان على صحته وإن خالف العظماء والعلماء . ذلك لأنه لايعرف كثير من الناس كل الحقّ ، وإذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرِمْنا ما قد يكون فى قولهم من رأى صائب أو فكرة حقّة ، ولهذا يجب أن يسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يشاء ، ثم تتطاحن الآراء والأفكار صحيحها وفاسدها حتى تظهر الحقيقة وبتغلّب الحقّ على الباطل ، والحقيقة بنت البحث .

ب ـــ حرية الاجتماع : نحن بالفطرة أحرار فى الفكرة ، وفى الاعتقاد ، وفى الكتابة وفى الخطابة ، وإنّا لكذلك أحرار فى الاجتماع أيضًا .

حرية الاجتماع ـ وهو أمر طبيعى فى الإنسان . ومظهر من مظاهر الحرية الشخصية .

ونتائجُها ذات أثر عظيم يكبر شأنه مع التطوّرات المدنية ، ويعجز الفرد عن القيام بالأعمال الجليلة بغير الجمعيات .

الجمعيات قوّات عظيمة تقاس بها درجات قوّة الأمم ، فأيما أمة كثرت جمعياتها القوية ، سياسيّة كانت أو علميّة أو دينيّة أو تجاريّة أو صناعيّة كانت أشدّ مغالبةً لطوارق الحدثان ، ومهما كان الزمان الذى تعيش فيه ، ومهما كانت مبادئُ الحكم التى تسير عليها . فانها بالجمعيات فى مأمن من أن تغلبها الحكومة على أمرها أو تنال منها مأرباً .

وحريّة الاجتماع أكثر خطرًا على الظلم من كلّ حرية سواها ، لأن الجمعية أكثر من الفرد قوّة وأطول عمرًا وأشدُّ تأثيرًا .

حرية الاجتماع لايجوز للشارع أن يمسّها من غير أن يظلمنا فى أعزّ ما لدينا ، من حيث كونُها مظهرًا من مظاهر الحرية الشّخصية .

أما من حيث كونُها الواسطة الكبرى فى مجد الأمّة وقوتها ، فلا يجوز للشارع أن يمسّها من غير أن يؤخّر الأمّة ويحبسها عن الأخذ بأسباب مدنيتها ، وذلك أعظم ضرر بالأمّة وأبنائها .

والذى نحمد الله عليه هو أن الحكومة السّنيّة لم تعارض فى حرية الاجتماع ما دام ذلك فى حدود القانون . ولم يقصد به حصول مؤامرات ضدّ النظام العامّ .

جـ ــ حرية الخطابة ـ حرية الكلام : والخطابة مظهر الحرية الشخصية ، بل هى ألصق مظاهرها بها . وهى الآلة الشائعة لحرية الفكر ، وحرية الضّمير ، وهى ألزم للفرد من حرية الكتابة .

حرية الكلام طبيعية . وهى حرفة لها دوافع قويّة فى النفس والإنسانية ، فهى لاتصبر على حبسها صبرها على حبس الجسم عن الحركة ، وعلى حبس القلم عن الكتابة ، وإنها كسائر مظاهر الحرية الشّخصية لاحدّ لها إلا ضرر الغير وإيذاؤه . ولقد تفعل الخطابة فى النفوس أضعاف ما تفعله الكتابة ، فهى التى تحرّك عواطف الجماعات النائمة . وهى التى تسكّن ثوران تلك العواطف . وهى أفضل ما اتخذه الإنسان سلاحا للإقناع . فمن منع إنسانا حرية القول فكأنما منع الناس جميعاً ، فان قول الحقيقة ليس مجرّد حق للمرء له تركه . بل هو أيضا واجب عليه للجمعية التى يعيش فيها ، وهمة تنقيدء ان تمام لا أن تعلم . فلا يتمّ إخلاص العالِم للعلم إلا إذا قال مايعتقده حقاً

من قواعده ، ولا تتم للفرد وطنيته إلا إذا أظهر ما يعتقده صالحاً لقومه ، وقد قيل : « الساكتُ عن الحق شيطانٌ أخرسُ » .

فالذين يتعرضون لحرية الكلام يعطلون حقاً من حقوق الأفراد الطبيعية ، وهم بذلك يمنعون الناس من واجب نحو الاجتماع لاغنى لمنافعهم عن أدائه ، إنهم يطفئون نور الحق بأفواههم ، ويمسكون الإنسانية على هُون من الجهل القاتل ؛ وكفى إظهاراً لأهمية الخطابة أنها آلة الإقناع فى المجالس النيابية ، وأنها تسحر الألباب ، فتحول الناس من فكرة إلى نقيضها ، ومن رأى إلى سواه فى جميع الأوساط المختلفة . والحمد لله فقد انتشرت فى مصر حرية الخطابة ولم تتدخل الحكومة فى منعها من المساجد والمجتمعات إلا فى الموضوعات التى تعتبرها خطرا على الأمن العام ، ومضرة برقى البلاد ومصلحتها .

د ــ حرية الصحافة ، ونعنى بها أن تكون الصحافة حرة فيما تكتب ، لاتتقيد بشىء إلا ما يقيدها به القانون العام ، ولا يكون عليها سلطان إلا سلطان محاكم البلاد . إنما منحت هذا الحق لأنها الواسطة بين الحاكم والمحكوم ، تعلم المحكومين حقوقهم وواجبهم ، وتبصر الحكومة برغبات الأمة ، وتبين لها عيوب ما تتبعه من نظام .

والصحافة هى المرآة الصقيلة الصادقة للرأى العام يرى فيها خلاصة أفكار جميع الطبقات ، بل وهى معرض تعرض فيه آراء الأمة بأسرها فيستفيد منها الحاكم والمحكوم معا ، فهى تستحق حماية الحكومة وحرص الأمة على تشجيعها وانتشارها لأنها العضد القوى فى خدمة البلاد .

النوع السادس : حرية القضاء

حقوقنا رهن باستقلال القضاء . فان لم يكن القضاء حرا مستقلا فصالحنا مهمل وحريتنا ضائعة .

لاريب فى أن مسألة استقلال القاضى . مسألة شخصية محضة . وصفة ثابتة مهما كان شكل الحكومة التى هو موظف عندها . ولكن كفالة القاضى بضمانات الحرية والاستقلال فى الرأى عن كل سلطة من السلطات كفيل باستقامة وأمان الناس على الحقوق والمرافق . ومرجعها سلطة القضاء .

إن استقلال القضاء بمصر لايزال عقدة العقد . أما فى أمريكا فالقضاة يُنتخبون هناك من قبل الأمة بالانتخاب العام . فليس للسلطة التشريعية ولا للسلطة التنفيذية

عليهم من سبيل ، إنهم أحرار فى تقدير الوقائع ، مستقلّون فى أعمالهم القضائية استقلالاً مدهشاً . فأين نحن من هذه الحرية وذلك الاستقلال ؟ فلنتضرّع إلى الله بقلوب خالصة ولنطلب إلى الله لمصر استقلالاً تامّاً حفظاً لحقوق الأفراد والأمة .

النوع السابع : الحرية السياسية

وتعنى بها أن يكون للإنسان نصيب فى حكم بلاده . فالأمة التى أمرها بيد فرد أو فئة لم تنتخبها الأمة لاتكون متمتعة بهذه الحرية ، وإنما تتمتع بها إذا كان أفرادها ينتخبون عنهم من يمثلهم ، وهؤلاء المنتخَبون هم الذين لهم حقّ وضع قوانين البلاد وإلغائها .

والحرية السياسيّة هى أضمن وسيلة لتمتُّع الأمة بالحرية المدنيّة ، فانه إذا كان أفراد الأمّة هم الحاكمون لها أمنوا من استبداد فرد أو أفراد يسلبونهم حرية الصّحافة أو الخطابة أو نحوهما .

النوع الثامن : حرية الأمم واستقلالها

كلّ أمة فى العالم تُحبّ أن تتمتّع بحريتها وتحكم نفسها بنفسها كما يُحبّ الفرد أن يكون سيّد نفسه ، وتحسّ بالضّعة والمذلّة إذا حكمها غيرها ، والفائدة التى تعود على الأمة من استقلالها كفائدة من يُفَكّ الحجْر عنه ، فاذا مُنِح المحجور عليه حرية التصرّف فقد يُخطئ ، ولكن هذا خير طريق ليعتنى بشئونه وليكون مسئولاً ، وإنه إذا كان حرّ التّصرّف زاد طُموحه لتكميل نفسه ، وشعر بأنه إنسان حقاً .

وكذلك الشأن فى الأمة ، فاذا نالت استقلالها شعرت بمسئوليتها ، وطمحت ببصرها لتكون خيراً مما كانت عليه قبل الاستقلال ، واعتقدت أن نتيجة مجهودها لها لا لغيرها فيضاعف ذلك فى جدّها .

ولا تُحِسّ الأمة بشخصيتها إلا إذا نالت حريتها ، ولا تنهض وتجدّ فى نيل كمالها إلا إذا كانت تدير شئون نفسها بنفسها ، وهذا الحقّ للأمة من الحقوق التى لايجوز للشارع أن يَنْتَقِص منه شيئاً .

نحن المصريّون لم نصل اليوم إلى استرداد هذه الحرية ، ولكننا طامعون جادّون

فى الوصول إليها ، معتمدين ـ بعد الله ـ فى ذلك على إجماع الأمة بضرورتها ، وعلى أعمالنا المختلفة لتقدّمنا ، ثم على الزّمان ، والله الموفّق لما فيه نجاح الأمة وتمام استقلالها .

*

ولله الحمد ، فقد تمّ بعونه تعالى لمصر « بعد إعلان حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النّحاس باشا رئيس مجلس الوزراء فى مجلسى البرلمان يوم الاثنين ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ » إلغاء المعاهدة التى كانت مبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، واتفاقيّى سنة ١٨٩٩ الخاصّتين بالسُّودان مع المناداة للجالس على عرش مصر (بملك مصر والسودان) .

وهذا أقوى تسجيل تاريخى للحكومة الرشيدة ، نسجّله بكلّ فخار دليلاً على حريّتنا واستقلالنا ، مع تضامن جميع الأحزاب المصرية مؤيّدين ومعارضين فى تعزيز مركز الحكومة فى هذا الأمر الجلل ، والوعد الشريف من كافّتهم بالتّضافر وتجميع القُوَى ، والالتفاف حول راية الاستقلال التامّ .

والحمد لله أوّلا وآخراً ، وهو مولانا ، فنعم المولى ونعم النّصير .

المحاضرة السابعة :

الشرف

كلمة الشّرف يهتف لها أقوام من النّاس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . وعلى ضدّها عاملون ؛ ولو فهم النّاس مزايا الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء . لكن منهم فئة ترى الشرف كلّ الشرف فى جمع المال ، وبناء الدّور ، وتشييد القصور ، ووفرة الخدم ، واقتناء الجياد من الخيل ، وركوب العربات والسيّارات ، وإقامة الحفلات والزّينات ، والسّعى وراء اللّذّات والشّهوات ، حتّى إنك ترى الرّجل يسلب مال أخيه ، ويبدّد ثروة أمّة وأبيه وذويه وبنى ملّته ومواطنيه ليشيد له قصراً ، ويقيم له حرّاساً ، ويظنّ أنه بذلك نال مجداً أبديًّا ، وفخارًا سرْمديًّا ، وأنه نال غاية الشرف .

وفئة ثانية : ترى أن الشرف فى لبس الفاخر من الثّياب ، والتّزيّن بألوان الملابس ، والتّحلّى بالجواهر الثمينة ، حتّى إنك ترى الرجل يجدّ فى كسب المال بأشنع الطرق وأحقرها ليكتسى رفيع الثياب . ويتزيّن بأجمل الحلىّ ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ويحسَب أنه بلغ درجة من الرّفعة والشّرف لايُدانَى فيها .

وفئة ثالثة : تتخيّل الشرف فى نيل الألقاب والرتب (كالبيك والباشا) أو فى الحصول على الوسامات المعروفة (بالنياشين) فيصرف الرجل نهاره وليله فى التّفكير فى وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب . ويحصل بها وساماً أو وشاحاً ، وإن أفضت إلى خراب داره أو ضياع ماله ، أو ذِلّةِ أمّته ، أو تمزيق ملّته ، ويتخيّل إليه أنه ارتقى بذلك إلى ذروة العلا والشرف .

هكذا يتصوّر بعض الناس الشرف ويظنّون أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف من غير أبوابه . وما أفسد عليهم تصوّراتهم إلا الذين أحاطوا بهم وكانوا على شاكلتهم . وهكذا تقوم هذه الأوهام مقام الحقائق فى أذهان كثير من الناس .

فماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره وخدمه ؟ ألا يُحِسّ أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوّره العقل فذاته التى هى أعزّ شىء لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع ماحصل عليه أجنبىّ عنه ، وليس له من عمله إلا العناء فى التّحصيل ؟

ألم ير كثيراً ممن بلغ مبلغه فى الثروة والأبهة قد سلبتهم صُروف الدّهر ما بأيديهم ، فان لم يكونوا على جانب عظيم من الكمال الإنسانى انخرطوا فى سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم فى القلوب منزلة ، ولا فى النفوس مكانة ؟ .

ماذا يشعر المفاخر بملابسه وحليّه إذا تجرّد منها وخلا بنفسه إن لم يكن لذاته حاية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو والفقراء العراة سواء ؟ .

ماذا يتصوّر المتظاهرُ برتبته، المُفاخرُ بوسامه، إن لم يكن على حالة يستحقّ معها التّعظيم والإكرام، والتّبجيل والاحترام؟ أليس يشعر أنه متى سلب الوسام، أو نزع عنه الوشاح، أو سحبت منه الرتبة، يعود إلى منزلته من الاحتقار. فان نال الكرامة عند بعض السُّذّج والوسام معلّق عليه أليس ذلك تعظيماً للوسام واللقب؟ ألا تكون هذه الكرامة الظاهرة عارضاً سريع الزّوال . ويغير الله الإنسان من حال إلى حال ؟ .

نعم ، لهذه الألقاب الشريفة والرتب شيء يرتفع به النّظر إلى صاحبها إذا قام بعمل يعترف العالم بقدره وشرفه وكان اللقب دليلاً عليه .

إن مما يؤسف له أنه يوجد بين الخاصّة الذين يُعتدّ بعقولهم ، وتُمتدَح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الشّرف المُزيّف والشرف الحقيقى : أى بين الرذيلة والفضيلة؛ فلولا فساد التصوّر ما جلس القاضى المرتشى فوق كرسى القضاء يفتل شاربيه ، ويصعّر خدّيه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتّهم الواقف أمامه موقف الضّراعة والذّلّ والمسكنة ، ولا ذنب له إلا أنه يدافع عن نفسه وعن عياله وعن عرضه فيحكم عليه حكماً مخالفا للقانون والشرف ؛ ولولا فساد التصوّر ما اجترأ مخلوق على سلب شرفه ، وقلب الحقائق فى تقريراته ليخلص بها المجرمين من تهمة الاتجار بالموادّ المخدّرة التى تسلب عقول النّاس وأموالهم . فيوقع نفسه فى الشرّ مع شركائه ووسطائه نظير دراهم معدودات ، فيخسر الدين والدنيا معاً . ولولا خراب الذمم وقلّة الشّرف لما اجترأ الأوصياء الأدنياء على أكل أموال اليتامى ظلماً .

لاشرف فى الدنيا إلا الشرف الحقيقى ، وما هو الشرف الحقيقى ؟ هو تاج على رءوس الشرفاء لايراه إلا أرباب النّفوس الطيّبة . الشرف الحقيقى هو الذى يحصل عليه الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع الإنسانى جميعه . أو نوع من أنواعه . كإنقاذ من تهلكة أو كشف لجهالة . أو ردّ حقّ سلب، أو تذكير بمجد . أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد إلى خير . أو تحذير من شرّ . أو تهذيب

أخلاق ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة ، أو تجديد رابطة ، أو إعانة لصبىّ يتيم .

فمن أتى عملاً من هذه الأعمال ، وكان له أثر من هذه الآثار فهو الشَّريف حقًّا ، وهو الذى يستحقّ الفخار وإن كان يسكن الجبال والأكواخ ، ويلبس الأسمال .

فالعالم شريف يجلو صدأ العقل الإنسانى ويصقل مرآته ، والمجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه شريف لأنه يحمى مواطنيه من غائلة الأعداء ويقيهم عادية الفناء .

والمحسن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف ، لأنه يأخذ بأيدى الضعفاء ، ويحيى أنفس البؤساء . والحاكم العادل شريف لأنه رسول العناية الإلهيَّة إلى المظلومين . وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثِّر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه ، ويعلّمهم بالقُدوة الصَّالحة أفضل درس فى الأخلاق والآداب .

قال المرحوم الشيخ « زكىّ الدين سند » مؤسس جمعية المكارم كلمة طيِّبة فى شرف النَّفس . نذكرها هنا اعترافا بفضله ، وتخليداً لذكراه :

(شرف النَّفس صفة كمال . وبها تتفاوت أقدار الرِّجال ، بها ترتفع النَّفس عن مداناة الدَّنايا . وبها تنفجر عيون العزائم من صخور الصبر الوثيق ، وبها تقبض أيدى الهمم على نواصى المعالى . وبها يعلو سلطان الشَّهامة على رءوس الأعالى ، بها أبانت الشريعة الغرَّاء فضل الأحرار على الأرقَّاء . بها جُعل الرجال قوَّامين على النِّساء ، بها حظرت على الشَّريفات التأهُّل بغير الأكفاء .

وليس شرف النَّفس بلبس رداء الكبرياء ، ولا بمشى الخيلاء ، ولا برفع الأنف فى السَّماء . بل بنفس عزيزة عن يمينها : عشْ شريفاً أو مت كريماً ؛ وعن يسارها : إن لم تكن عفيفاً لم تكن شريفاً .

ليس شرف النَّفس سوء الرَّدّ على الرَّئيس ، ولا بمدّ الرِّجل بين يدى الجليس ، ولا بإطلاق لسان البذاءة . ولا بغطرسة أهل الجراءة ، بل بأن تكون فى نفسك عالى الهمَّة كالنَّجم ارتقاء . وفى استقامتك طاهر العرض كالماء نقاءً ، وفى حميَّتك غيوراً وعلى الإسلام غيورًا كالنَّار اشتعالاً والأسد إباءً .

أما الغَيرة على الإسلام فاليها ينتهى الشَّرف العامّ ، لأجلها خاض المجاهدون غمرات البلايا ، وتناولوا من أيدى الحروب كئوس المنايا ، لأجلها كان حقاً لكل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وألزم كل مكلف ترك ما عنه نهى وفعلَ مابه أمر .

ولا يتحقّق شرف النّفس إلا بطهارة الأعراض من الدّنايا ، وعلوّ الهمم فى المزايا ، وتوقد الغيرة على الدين، وفى الغيرة على الدين سور من حديد ، يدفع عن الأمة عوادى الزمان ومكايد الشيطان . وفى طهارة العرض حسن السير والسيرة وصحّة الأبدان والأديان . وفى علوّ الهمّة صلاح المعاش والمعاد ، ونموّ حركة العمران فى البلاد . وفى الجميع على الجملة رفعة الدين والدنيا ، وتمام شرف الإسلام والمسلمين اهـ) .

وقال بعض الأدباء :

إذا أردت شريف النّاس كُلّهِمِ ... فانظرْ إلى ملكٍ فى زىّ مسكين
ذاك الذى حسُنت فى الناس قالته ... وذاك يصلح للدُّنيا وللدّين

وقال أحد الشعراء :

ليس الظّريف بكاملٍ فى ظَرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا
فاذا تعفّف عن محارم ربّه ... فهناك يُدعى فى الأنام ظريفا
إخوانَنا صونوا الحياة بعفّة ... ليس الفتى بسوى العفاف شريفا

وقال بعضهم : إن عزّة النّفس هى أن تنشأ بعيداً عن الأوصاف الذّميمة ، وتصون ماء وجهك ، وتعصم نفسك وعرضك ودينك . فتعيش مشرّفاً مكرّماً معظّماً أهلاً لاحترام النّاس لك والاحتفاء بك ، فانّ من أعزّ نفسه أعزّه الناس ، ومن أهانها كانت على الناس أهون .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا

وإن معيشة تكون مصحوبة بالذّلّة والهوان لهى الحياة التّعسة ، وإن معيشة مقرونة بالعزّة والكرامة لهى الحياة الطبيعيّة السّعيدة .

قال عمرو بن العاص : المرء حيث يجعل نفسه ، إن رفعها ارتفعت . وإنّ وضعها اتضعت .

وقال الإمام علىّ فى نصيحته لابنه الحسن : أكرم نفسك عن كل دنيئة وإن ساقتك إلى الرّغائب ، فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً . ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّا .

وقال حاتم :

ونفسك أكرمها فانك إن تَهُنْ ... عليك فلن تلقى لها الدّهر مُكرِما

وقال آخر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

فنفسَكَ أكرمها وإن ضاق مسكنٌ   عليك بها فاطلُب لنفسك مسكنا
وإيَّاكَ والسُّكنى بمنزل ذِلَّةٍ   يُعَدُّ مُسيئاً فيه من كان مُحْسنا

كان بعض السقَّائين يُنْشِدُ أثناء سيره فى الطَّريق وهو حاملٌ قربته قول الشاعر :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها   وحقِّك لم تُكْرَم على أحدٍ بعدى

فسمعه الأصمعىّ فأراد المزاح معه فقال له : عن أىّ شىء أكرمت نفسك وهذه حرفة دنيئة ؟ فقال : إننى أكرمتها عن ذلّ السُّؤال ، وعن الوقوف على باب لئيم مثلك . فأسكته .

قد عرفنا الآن معنى الشرف الحقيقى ، وسنتكلَّم على الوسائل التى يكون بها النَّاس شُرفاءَ إن شاء الله تعالى .

وسائل الشرف

١ — شرف الملوك :

يكون ذلك بعملهم على خير الرَّعيَّة المسئولين عنها ، بأن يبذلوا الأموال الطَّائلة فى إنشاء المدارس لتعليم أولاد رعاياهم ليكونوا رجالاً نافعين لأنفسهم ولوطنهم ، وليفخَرَ بهم ملوكهم ويباهوا بهم الأجانب . وأن يجودوا بالأموال لإقامة الملاجئ للعجزة والفقراء والمساكين ، وتشييد المستشفيات للمرضى وذوى العاهات ، وبأن يُقرّبوا منهم العلماء والأدباء والعاملين للخير من أبناء الأمة ، وبأن يساعدوا الجمعيَّات الخيريَّةَ والعلميَّة والدينيَّة بالمال . وبأن يتفقَّدوا أحوال الأمة ، لإصلاح أخلاقها وتمكين آدابها . ولمحاربة المفاسد والأمراض الخلقية ، وبأن يولُّوا الأعمال من هو أهل لها . لأنه إذا ولى الأعمال غير أهلها فسدت . وإذا أراد الله بأمَّة خيرًا ولى أمورها خيارها . وبأن يكونوا قدوة حسنة لرعاياهم كما قال أرسطو : ليس أصلح للناس من أولى الأمر إذا صلحوا . ولا أفسد لهم منهم إذا فسدوا .

٢ — شرف الوزراء والحكام :

يكون ذلك بمراقبة كلّ منهم شئون وظيفته ، فلا يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وعلِمَها . وبأن يجتهد فى تحسين حال الأمَّة فى العمل الموكول إليه ، ويحافظ كل المحافظة على مصلحة وطنه ، وإذا دعى لعمل أمر يخالف الواجب عليه ، ويخالف الذمَّة والضمير ترك مركزه غير آسف عليه . حتى يخرج منه مرفوع الرأس شريف النَّفس ، وأن يُقرِّب

إليه الرجال الموصوفين بالذمّة والأخلاق الكريمة ، ويبعد عنه المُنافقين والدسّاسين حفظاً لسمعته، وسمعة مصلحته ، وأن يدع المحاباة محافظةً على حقوق الرعيّة ، وأن يعمل على إحياء الشّعائر الدينية والعادات القوميّة المتّفقة مع الأخلاق الحسنة .

٣ — شرف القضاة :

يكون ذلك باقامة العدل بين كل الناس بدون تمييز فى دين أو مذهب ، وبلا مراعاة لجاه أو ثروة ، وبلا محاباة لأمير أو كبير ، وبدرس قضايا النّاس درساً دقيقاً حفظاً لمصالح العباد التى أصبحت أمانة فى عنقهم .

وبالجملة يكون شرفهم بإعلاء كلمة الحقّ والأخذ من القوىّ للضعيف مع مراعاة الذمّة والنزاهة ، لأن القاضى الذى يبيع ذمّته بالمال لايصلح لهذا العمل الجليل ، بل يكون وبالاً على أمّته وعلى جماعته ، ولن يفلح قوم فيهم قضاة يجورون ويهملون .

٤ — شرف المحامى :

يكون ذلك بدرس القضايا درساً جيّداً لمعرفة أسرارها ، والدفاع عن الضّعيف المظلوم ونُصرة الحقّ ، لاالدفاع عن الظالم المجرم ؛ وأن لايبيع المحامى ذمّته بالمال ، بل يتمسّك بحبل التّقوى والعدل والإنصاف فى جميع الأحوال .

٥ — شرف الطبيب :

يكون ذلك بأن يدقّق فى تشخيص الأمراض ووصف العلاج الناجع ، وبأن يقوم على درس المشكلات التى تصادفه فى عمله ، ويراجع الكتب والمجلات الطبيّة . ولا يجعل همّه المال ، بل يعتبر عمله أكبر خدمة للإنسانية ، وبأن يحافظ على أسرار الأُسَر والعائلات .

٦ — شرف مهندسى الرىّ :

يكون ذلك بتوزيع المياه على الأهالى بالقسط والعدل ، غير مراع الجاه والسطوة والمال .

٧ — شرف الجندى :

يكون بحفظ كيان الوطن ، وذلك بأن يكون شجاعا غيوراً محباً لوطنه محترماً قوانين الجندية ، مطيعاً لرؤسائه بعيداً عن الفتن والخيانة . محافظاً على الشرف والأمانة .

٨ — شرف المعلم والعلماء :

يكون بتثقيف عقول تلاميذهم، وتهذيب أخلاقهم وإرشادهم إلى طريق الخير والنفع في الحياة . وبأن يكونوا قدوةً صالحةً لهم . وإذا صحّ أن يقال إن الناس على دين ملوكهم نظرا لما للملوك من السُّلطان على الرعيَّة ، صحّ أن يقال إن الناس على دين معلّميهم وعلمائهم ، نظرا لما للمعلين والعلماء من التأثير في عقول تلاميذهم . وإذا كان من واجب الآباء تسليم بنيهم وقت المرض لطبيب ماهر كان أحرى بهم تسليم بنيهم للمعلّمين الأكفاء المشهود لهم بحسن السِّيرة والاستقامة والأخلاق الكريمة والعلم النَّافع الصَّحيح .

٩ — شرف الموظفين :

يكون بالإخلاص في أعمالهم فيؤدونها بسرور ويتقنونها كل الإتقان غير ظانّين أن الغرض من الوظيفة هو الاستيلاء على الأجر والرزق فقط ، فمن لايؤدى عمله ومن لايحسنه كان آكلاً حراما . إن الوظيفة عمل ككل عمل يقوم به الوطني يجب أن يُراعَى فيه الصالح العامّ خدمةً عامةً . وكما أنه يجب على كل إنسان قويّ البنية صحيح الجسم الدّفاع عن كيان بلاده إذا طرأ عليها خطرمَّا ، كذلك يجب على كل إنسان إذا شعر من نفسه بالمقدرة على العمل أن يتقدّم للوظائف العامَّة وإلا فلا .

إن من الواجب على الموظف أيضا أن يكون في معاملته للأهالي متصفاً بالرأفة والأدب ودماثة الخلق ، إذ لايتسنى له القيام بخدمة الأمة إلا إذا ساد حسن التفاهم بينه وبينهم ، ووجدت رابطة الإخاء والإخلاص والصدق بينهم .

١٠ — شرف التَّاجر :

يكون بالجد والاجتهاد الشَّريفين ، لابالغشّ ولا بالخيانة ، وبأن يدرس حاجات البلاد التي هو فيها ومحصولاتها والأسواق التي يمكنه بيع المحصولات فيها وجلب الحاجات منها . وبأن يصدق في القول والفعل ، ولا ينتهز فرصة جهل الناس فيخدعهم في البضاعة أو في ثمنها . ولا يبخس الوزن ولا ينقص الكيل ، بل يكون شعاره دائما : الصدق في القول والإخلاص في العمل .

١١ — شرف الزارع :

يكون باتقان زرعه وحرثه ومحافظته على حقوق جيرانه وعدم اغتيال أرضهم

زرعهم ، وإعانتهم بقدر الإمكان ، وبأن يقوم بأداء ما عليه من الحقوق المالية لأصحابها وأن لايسيء معاملتهم ، وأن يجتهد فى الابتعاد عن الدَّيْن والرَّهن ليحفظ بذلك أطيانه وشرفه وسمعته الطَّيِّبة .

١٢ — شرف الصانع :

يكون باتقان صناعته ، والعمل بالذمَّة ، والمحافظة على مواعيده ، وتوجُّه فكره إلى ما يمكنه من اختراع آلات حديثة توفيرا للوقت والمال ، وبالاجتهاد فى استعمال موادّ البلاد الأوليَّة فى صنع الآلات اللازمة للاستغناء بها عما يُجلب من الخارج ، ويكون أيضاً باتقان العمل ؛ فنى إتقان العمل غاية الشُّهرة وبلوغ الأمل ، ويكون بمراعاة الأمانة ، فلصوص الوقت بين العمال لايقلُّون جُرماً عن لصوص المال ، لأن الوقت ملك لصاحب العمل ، فاذا أضاف العامل إلى إتقان العمل والرغبة فيه الأمانة ، فقد جعل نفسه حصنا حصينا يُشرِف منه على السعادة .

١٣ — شرف الصحفى :

يكون بالسعى فى إثبات حقائق الأخبار وكشف كل غشّ وتدليس ، ونشر كلّ فضيلة ، وتقبيح كلّ رذيلة ، وإرشاد الأمة إلى ما فيه خيرها وإبعادها عن الشرّ ، وفتح أعين الجهَّال كيلا يغتالهم ذوو المكر والنِّفاق بحيلهم وأساليبهم الشَّيطانية ، فالصحافة لم توجد إلا لهداية الشعب ، فاذا كان وجودها داعياً للتَّضليل أو لنهش الأعراض فخيرٌ ألا توجد .

وإذا كان للطبيب فضيلة وقاية الأجسام من الأمراض ، وللمحاماة حسنة إظهار الحقّ وانتصاره على الباطل ، فللصحافة مزيَّة تربية العقول ووقاية الآداب من الانحطاط والانتصار للمظلوم من الظالم ، فضلاً عما لها من الميزة فى نشر العلوم والفنون ، وإيصال الأخبار الصحيحة من جهة إلى جهة أخرى ، والضَّرب على أيدى المرتشى والمستبدّ والمختلس والخائن ؛ فهى إذا قامت حقّ القيام بواجبها تقتلع الفساد من أصوله . وتصلح المختلّ ، وكان لها بذلك غاية التَّشرف .

والخلاصة أن العناية الإلهية تمنح الشرف لصاحب العمل الشريف ما دام حيًّا ، فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة روحه . نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم فى القلوب بعمله الطيِّب وأخلاقه الطيبة ، فنعمت الحياة حياة الخلود . ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى طلب الشرف فليتنافس المتنافسون .

المحاضرة الثامنة :

الدين المعاملة

إن من نظر فى أحوال العالم وجد أن المنازعات والمخاصمات الحاصلة بين الأفراد والجماعات سببها فى الغالب سوء المعاملات .

فلو أحسن الإنسان معاملة أخيه ، والابن معاملة أبيه ، والأب معاملة بنيه ، والتاجر معاملة زبائنه . والصانع معاملة عمّاله ، والزّارع معاملة زرّاعه ، وغيْرُهُمْ معاملةَ بعضِهم بعضاً لعاش النّاس جميعُهم فى أمان واطمئنان ، وهناء وصفاء ، ولزالت العداوة والشّحناء ، وحلّ الوفاق محل الخلاف والشقاق .

ولكن مع الأسف أصبحت معاملة كثير من الناس فى هذا الزمان ـ بعضها إن لم تقل كلها ـ غشًّا ونفاقاً ومكرًا وخداعاً ونصْباً واحتيالاً وظلماً وعدواناً وزورًا وبهتاناً ؛ لهذا قد انحطت الأمة وتدهورت الأخلاق وتلوّثت الأعراق .

ولا علاج لهذا الداء سوى اتباع الدين الحنيف، والتمسك بمكارم الأخلاق ، لأنّ الدين كما جاء فى الأثر هو المعاملة . ولنتكلم على المعاملة فنقول وبالله التّوفيق .

المعاملة

لايمكن تعريف المعاملة تعريفاً جامعاً نظرًا لتنوّعها واتّساع معناها ، وإنما يمكن تقسيمها قسمين كبيرين ، ينطوى تحت كلّ منهما أنواع من المعاملة .

القسم الأول : المعاملة المادية

ونعنى بها المعاملة التى ..ارها على الأشياء المادّيّة كالمبيعات ومبادلتها بالنقود . وبما أن النقود هى قاعدة هذا القسم ، فهو إذن شديد الخطورة كبير الأهمية نظرا للمنزلة التى للدرهم والدينار فى قلوب الناس ، والمحبّة الشّديدة المتمكّنة فى أفئدتهم لهما ، إذ تراهم على اختلاف آرائهم . وتنوّع صنوفهم يسعون وراء المال جَهدهم ، ويُعنَوْن دائما بتحصيله . لأن المال والبنين ليسا زينة الحياة الدنيا فحسب ، بل هما قوام الحياة الدنيا. ..ذلك إن أجحف أحد أقلّ إجحاف فى هذه المعاملة المادّيّة لايسامح على هذا

الذنب ولا يقبل منه عذر ، بل تنصبّ عليه أسهم الملام من كلّ صوب ، ويُفتح بينه وبين من أجحف بحقه أبواب الخصام ولو كان من أخلص الأصدقاء وأقرب الأقرباء لأن المال كما قال الشّاعر :

المال يفرق بين الأمّ والولد فذاك أدنى نسيب عند كلّ يد

وحقاً لايفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه سوى المال الذى عليه ؛ إما إصلاح الحال ، وإما سوء المآل ؛ فانصرفت إذن أفكار الناس إلى استنباط الوسائل والطُّرق لمنع هضم الحقوق والإجحاف بها ، ولربط الذين يريدون أكل أموال الناس بالباطل . وغلّ أيديهم لكى يُحسنوا معاملاتهم . فاستعملت الرهونات والسّندات وغيرهما من الاصطلاحات المعمول بها . ولكنّ هذه الوسائط لاتضمن حسن المعاملة . إذ لايمكن استعمالها فى جميع المعاملات ، فلا يمكن لكل بائع أن يحرّر سنداً على كل من اشترى منه شيئاً . أو يأخذ رهناً على كلّ من استدان منه . بل يقتصر على المعاملات التجارية ، وقد لاتفى بالمراد لأن الظلم من شيم النفوس ، كما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفّة فلعـله لايَظْلِم

والظّالمون لايهابون شرعا ، ولا يراعون قانوناً . فاخترعوا الطُّرق المتنوّعة ليخلصوا من روابط الحقوق الواجبة عليهم ، وكثيراً ما فازوا بمرامهم . فهضموا الحقوق واستباحوا المحرّمات ، ولم تنفع الرهونات ولا السّندات . وأكلوا أموال النّاس بالباطل ويكون عملهم أكثر شراً وظلما إذا كان المهضوم حقّ يتيم أو أرملة مسكينة لاحول لها ولا قوّة على المطالبة بحقوقها ، ولا باب لهما يرتزقان منه إلا ذاك المال الذى ابتلعه أولئك الظّالمون ، فحسن المعاملة والحالة هذه يتوقف على شيم المتعاملين وأخلاقهم ودينهم وحسن تربيتهم . أما من ليس له من نفسه دافع يدفعه إلى الوفاء بحقوق غيره فلا تقوى روابط المعاملة على سَوْقه إلى ذلك ، وإذا سيق بها قهر فلا يسمى حسن المعاملة (لأن الأعمال بالنيّات ولكلّ امرئ ما نوى) .

ولذلك نرى الناس متفاوتين فى المعاملة . فمنهم من يسيئون جميع معاملاتهم وكثيرٌ ماهم . ومنهم من يحسنونها وقليلٌ ماهم . ومنهم من يتوسّطون بين الفريقين فيُحسنونها فى أمرٍ ويسيئونها فى آخر إذا وجدوا أقلّ عذر يتحملونه وهؤلاء هم الأكثرون . ولكن الإنسان يصبو دائماً إلى الكمال الأدبى ، ولا يرضى أحد بالرذائل اسماً ولو كان مرتدياً بها فعلاً . وخصوصاً فى المعاملة فان أردأ الناس معاملةً ينفر من نسبته إلى ذلك .

فيجب إذن أن نشرح حسن المعاملة وفائدتها ، وسوء المعاملة وأسبابها على اختلاف أنواعها ليكون ذلك مقياساً لكل متعامل يقيس عليه معاملاته ليعلم من أىّ فريق هو فى الفرق الثلاث التى ذكرناها ، حتى إذا كان من الفرقتين الكبيرتين يعتزلهما وينضمّ إلى الفرقة الصغيرة الحسنة المعاملة لتحسن سيرته وتطيب ذكراه بين أحبته وعشيرته .

وتنقسم المعاملات المادّية إلى عدّة أقسام :

١ — البيع والشراء

البيع معناه : المبادلة أو المقايضة ، وشرعاً : مقابلة مال بمال مع إيجاب وقبول على وجه مخصوص . والمال : معناه كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ، أو كل شىء نافع للإنسان يصحّ أن يستأثر به شخص دون غيره .

وحكمة البيع نظام المعيشة وعمار الكون ، لأن حاجة الإنسان قد تكون فى يد صاحبه غالباً ، وقد لايعطيها له بغير المعاملة ، وربما يُفْضى إلى التّنازع والخصام فيختلّ النّظام ويفنى العالم ، فى تشريع البيع والشراء وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير ضرر ولا حرج ، لذلك أباح الله البيع فقال تعالى (وأحلَّ اللهُ البَيْعَ وحرَّمَ الرِّبا) رفقاً بعباده ورحمة بهم ، وتسهيلاً لمعاملاتهم .

ولكن مع الأسف الشديد لقد فشا بين الناس الغشّ والخيانة وعمّ بينهم الخداع والمكر والتدليس فى المعاملة ، يؤذى بعضهم بعضًا ، ولا يبالون أمن حلال أكلوا أم من حرام ، ولا همّ لهم سوى جمع المال وإطعام العيال ، وبناء الدور وتشييد القصور ، وقد نسوا يوم يحشرون فيه إلى الملك العلام ، ويؤخذون بالنّواصى والأقدام ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، فيحاسبون حساباً عسيرًا ثم يَصْلَوْن سعيرًا .

يحتال الرجل على كسب كلّ أنواع الحيل غير ناظر إلى حلال أو حرام ، همّه ملء جيبه وأكل أموال الناس بالباطل ، فتراه إذا باعك سلعة يُقْسِم لك الأيمان الغليظة إنها من أجود الأصناف ليزينها لك ويرغّبك فيها فتغترّ وتُخدع ، والله يعلم إنه لكاذب فيما قال وآثم فى يمينه ، فهذا وأمثاله وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « إن التجار هم الفجار ، قالوا : يا رسول الله أليس الله قد أحلّ البيع ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بلى ، ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدّثون فيكذبون » رواه أحمد .

يظن هذا التاجر الكذّاب أنه ربح بفعله هذا ، والله يعلم إنه خسر الدنيا والدين ،

واستحقّ عذاب ربّ العالمين ، لأنه حصل على ربح غير حلال ، وهذا الربح لا يعمّر بل يذهب بعد قليل أو كثير من حيث أتى ، وما صرف فى وجه من الوجوه إلا ذهبت البركة منه ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليمين الفاجرة منفقةٌ للسلعة ، وممحقةٌ للكسب » رواه البخارى ومسلم .

ألا فليعلم التاجر الغاشُّ أن كسبه سُحْت وحرام ، وأن كلّ لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وليعلم التاجر الحالف كذباً أن حقوق الذى خدعه محفوظة يستوفيها من حسناته فى يومٍ لا بيعَ فيه ولا شراء ، فى يوم لا درهمَ فيه ولا دينار .

أما التاجر الصّادق الأمين الذى لا يغش النّاس ، بل يبيّن لهم الجيِّد من الرَّدىء وينصح للمشترى ، فهذا كسبه حلال مبارك فيه ، ينمو ويزيد ، وأجره عند الله محقّق ، فقد بشّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال « التاجر الصَّدوق الأمين مع النبيِّين والصدّيقين والشُّهداء والصّالحين » رواه الترمذى .

وقد نهى الله تعالى عن بخس الوزن والكيل فقال (أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا منَ المُخسِرينَ وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُستقيمِ ولا تَبْخَسوا النّاسَ أشياءَهم ولا تَعْثَوْا فى الأرْضِ مُفسِدينَ) .

وقال تعالى (ويلٌ للمطفِّفين الذينَ إذا اكْتالوا على النّاسِ يَسْتَوْفُونَ وإذا كالُوهم أو وَزَنوهم يُخْسِرونَ ، ألا يَظُنُّ أولئكَ أنهُم مَبْعوثونَ ليَوْمٍ عظيمٍ يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ) .

أمرنا الله تعالى فى الآية الأولى أن نوفى الكيل ونُتِمَّه وألا نَنْقُصَ منه شيئاً ، وأن نزن بميزان العدل وألا ننقص من حقوق النّاس ولا نَبخَسَهم أشياءَهم ، ولا نُفْسِدَ فى الأرض باتّباع الشّهوات وفعل الشّرور ، لنعيش فى صفاء ووئام .

وفى الآية الثانية أنذر المطفِّفين بالهلاك والخسران ، وهم الذين إذا اكتالوا من الناس أخذوا حقوقهم وافية كاملة ، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم يَنْقُصون حقوقهم . لأنهم يُمَيِّزون أنفسهم على غيرهم ، وما هذا إلا لضعف إيمانهم ؛ فلو ظنّ الناس مجرّد ظنّ بالبعث فضلا عن التّعيين لما أقدموا على ارتكاب هذه المحرّمات .

فاذا أردت أيها التاجر أن تكون من السُّعداء المحبوبين عند الله والنّاس . فعليك باتّباع الصدق والحقّ والأمانة ، وترك الغشّ والكذب والخيانة فى البيع والشراء .

فاذا كان عندك بضاعة فاكشف للمشترى عن حقيقتها ليشترى منك بحسب قيمتها .

ولا تقل له إنها جديدة مثلاً إذا كانت قديمة ، ولا تقل له إنها سليمة إذا كانت سقيمة ، لأنك بذلك تخدعه وتغشه وتضره ، وذلك فعل الكذابين المنافقين الخائنين .

فان أخذها منك المشترى اغتراراً بقولك ، فلا بد أن يظهر له بعد ذلك حقيقة أمرها . فيفتضح أمرك ويمقتك ويبغضك ويدعو عليك ويجتهد فى رد بضاعته إليك ، فان لم يقدر فلا يزال يشكو من فعلك ويذمك ويذكر للناس ما وقع له من الغش والغبن منك ، فتشتهر بين الناس بذلك فلا يأتمنك أحد ، ويمتنع الناس عن معاملتك ويحترسون منك ويسيئون الظن بك ، فلا تربح سوى ضياع الشرف الذى لا يعوضها ولا يساويه شىء فى الدنيا . فضلا عن حرمانك من ثواب الله فى الآخرة .

فليس هناك والله أحسن ولا أسلم ولا أربح من الصدق فى المعاملة والأمانة ، فان صاحبها يأتمنه الناس ويقبلون قوله ، فتروج بضاعته وتزداد شهرته ويحسن حاله ، ويكون مرضياً عنه عند الله والناس . سعيداً فى الدنيا والآخرة .

وسأذكر لك مثلاً أعلى عن التاجر الأمين .

التاجر الأمين :

قال ابن الحريف : حدثنى والدى قال : أعطيت أحمد بن حسب الدلال ثوباً وقلت له : بعه لى وبين هذا العيب الذى فيه . وأريته خرقاً فى الثوب ، فمضى وجاء فى آخر النهار فدفع إلى ثمنه وقال : بعته إلى رجل أعجمى غريب بهذه الدنانير . فقلت له : وأريته العيب وأعلمته به ؟ قال : لا . وإننى نسيت ذلك . فقلت : لاجزاك الله خيراً . امض معى إليه . وذهبت معه وقصدنا مكانه فلم نجده . فسألنا عنه . فقيل لنا : إنه رحل إلى مكة مع قافلة الحجاج .

فأخذت صفة الرجل من الدلال . واكتريت دابة ، ولحقت القافلة وسألت عن الرجل فدللت عليه . فقلت له : الثوب الذى اشتريته أمس من الدلال فلان بكذا وكذا . فيه عيب فهاته وخذ ذهبك .

فقام وأخرج الثوب وبحث عن العيب حتى وجده . فلما وجده قال يا شيخ أخرج ذهبى حتى أراه . وكنت لما قبضته لم أميزه ولم أنتقده ، فأخرجته . فلما رآه قال : هذا ذهبى فانقده يا شيخ . فنظرت إليه فاذا هو مغشوش (مزيف) لايساوى شيئاً . [illegible] قد اشتريت منك هذا الثوب على عيبه بهذا الذهب ، ودفع [illegible] ذهباً خالصاً جيداً وعدت به .

هذا مثل التاجر الأمين . أما المشترى الأمين فلنضرب لكم مثلاً عنه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « اشترى رجل من رجل عقارًا ، فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرّةً فيها ذهب ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض بما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية ؛ قال : أنكحا الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه لتصرفا » .

التاجر الغاش :

لقد روى أن شخصا كانت له بقرة فكان يخلط لبنها بالماء ليبيعه . فجاء السيل فى واد ، وهى واقفة ترعى فأغرقها ، فصار صاحبها يبكى عليها ؛ فقال له أولاده : يا أبانا لاتحزن . فان المياه التى كنّا نخلطها بلبنها اجتمعت فأغرقتها ، وهذا نتيجة غشّنا . لأن من يأخذُ شيئاً قليلاً بغير حقّ يضيّع الله عليه شيئاً كثيراً من نعمه بالحقّ .

مثال التاجر الصادق :

دخل رجل حانوتَ (دكان) تاجر ، فأعجبه لون ثوب عنده وبهره جمال منظره . فأحبّ أن يشتريه منه . فقال له التاجر : لايغرّنّك حُسن المنظر ؛ فان نوعه غير جيّد ، فشكر له صدقه وحسن إرشاده . وطلب آخر من نوع جيّد فأسف التاجر لنفاده ووعده عند أوّل رسالة تأتيه أن يخبره . وبعد بضعة أيّام ورد النوع الجيّد فأعلمه به ليشترى منه مايحتاج إليه . فشكره ونشر اسم التاجر بين الناس لما عهد فيه من الصّدق والوفاء .

٢ — الاجارة

لاأريد أن أتكلم عن الإجارة من الوجهة الشّرعية . أو الوجهة القانونيّة . فهذا خارج عن موضوعنا . إنما أريد الكلام عليها من الوجهة الأدبيّة فأقول :

الإجاره : هى عقد يلتزم به المؤجّر انتفاع المستأجر بمنافع الشيء المؤجّر إليه ومرافقه مدّةً معيّنةً بأجرة معيّنة . ولمّا كان الكثير من النّاس لايملك عقارًا أو أطيانًا . اضطرّ لتأجير المساكن لتأويه . والأطيان لتعذيه . فكان حقا على المستأجر أن يقابل

هذه النّعمة بالشّكر ، ويُحسِن معاملة أصحاب الأملاك ، فلا يخونهم ولا يغدر بهم ولا يأكل حقوقهم . ولكن مع الأسف نرى كثيراً من المستأجرين لايقوم بشروط الإجارة ولا يفي بحقوق المالك . حتى يضطرّ لرفع القضايا ضدّه مطالباً بحقوقه ، أو مطالباً بإخلاء العين المؤجّرة له ليتخلّص منه ويُريح باله من جهته ؛ ومن يتوجّه إلى المحاكم الأهليّة يرها غاصّة بالقضايا المرفوعة ضد المستأجرين الذين أصبحوا لا يهتمّون بالشروط المأخوذة عليهم ، وصاروا يحتالون بكل الوسائل الشّيطانيّة فى التّخلّص منها ، فاذا تُوقع حجز مثلا على أحدهم ، أسرع ورفع دعوى استرداد ، وادّعت الملكية لمتاعه أو منزله زوجته أو ابنه أو قريبه أو شريكه ، فبذلك تضيع الحقوق على أربابها ، فضلاً عمّا يتكبّدونه من المتاعب والمصاريف فى سبيل هذه القضايا ، وكل ذلك راجع لعدم التّربية وخراب الذمّة حتى أصبحنا نقول : لاتوجد عند الناس ذمم بل هم رمم ، ويتمنى الإنسان ألا يكون له ملك لكيلا يصاب بمستأجر محتال .

ويحضُرنى الآن حادثة من أغرب الحوادث ، وقعت من مستأجر لأسرة كبيرة ، وهى أنه استأجر منها ضيعة بما لايقلّ عن ألف جنيه فى السّنة ، فاضطرت صاحبة الضّيعة إلى مبلغ مائة جنيه ، فأرسلت لحضرة المستأجر تطلب منه هذا المبلغ ، فحضر إليها مسرعاً ومعه المائة جنيه وإيصال مكتوب بخطه بالمبلغ ، فاستلمت السيّدة شاكرةً وأمضت عليه بختمها ، وشهدت على ذلك كريمتها وزوجها . ولما جاء ميعاد الإجارة طالبته بالمبلغ الباقى . فحضر إليها وقال : كيف تطالبيننى يا سيدتى بهذا المبلغ الكبير ، وأنت استلمت منه تسعمائة جنيه ؟ . فلما سمعت السيّدة منه هذا الكلام دهشت وكاد يضيع صوابها ، وأخذت تقنعه بعدم صحة كلامه ، وأنها لم تستلم منه سوى مائة جنيه . وانتهى الأمر بأن رفعت عليه دعوى ، واتضح من ذلك أن هذا الشقىّ المحتال بعد أن أمضت السيّدة الإيصال بالمائة جنيه ، ذهب إلى منزله وبجرّة قلم بسيطة أضاف كلمة تسع إلى مائة فصارت تسعمائة (وكان تاركاً محلاً يسعها) واستمرّت القضيّة زمناً بين المحكمة والخبراء الذين أقرّوا بصحّة السّند لعدم وجود دليل على تزويره لأنه بخطّه ، وخسرت السيّدة المسكينة مالها ووقتها ومصاريفها بسبب سوء معاملة هذا المستأجر وطمعه وخراب ذمّته .

فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

٣ — الاستعارة

جاء فى المثل : العارية عار ، وهى حقيقة لاشكّ فيها ، فمن يستعر شيئاً من آخر يعترفْ بلسان حاله أنه فى حاجة إلى من يستعير منه .

وللعارية شروط ، وهى الوفاء : أى ردّ العارية فى الوقت المعيَّن بحالتها التى كانت عليها ، وليس أصعب على الإنسان من أن يعير أحد أصدقائه كتاباً ولا يردّه إليه . وفى ذلك نظم أحد الأدباء :

لا تعيرنّ كتابا واجعل العذر جوابا
وخذ الرَّهن عليه إنّ فى ذاك صوابا
وإذا خالفت أمرى أنت ضيَّعت الكتابا

ولهذا وضعت دور الكتب شروطا خاصّة للإعارة فى الخارج لحفظها وعدم ضياعها وردّها فى معادها . ولنضرب مثلاً لكم فى جزاء خلف الوعد :

انكسر محراث أحد الفلاحين ، وأهمل إصلاحه حتّى جاء أوان الحرث ، فذهب إلى جاره وقال له : أعطنى محراثك لأحرث به يوماً ثم أردّه إليك . فقال له : كنت أودّ إجابة طلبك ، ولكن ما حصل منك فى السَّنة الماضية يمنعنى من مساعدتك ؛ فقد أعرتك إيَّاه لمدّة يوم واحد ولم تردّه إلا بعد ثمانية أيام . وكنت تعرف أنى فى حاجة شديدة إليه ، وإنى أعتقد أن من يُخلفُ وعده مرة يجوز أن يُخلفه مرة أخرى . فاذهب وأصلح محراثك أو تدبَّر فى أمرك .

فذهب إلى بعض أصحابه ، فوجدهم فى حاجة إلى محاريثهم . ولم يجد وقتا لإصلاح محراثه . فتأخَّرت زراعته بسبب ذلك وندم على خلف وعده .

٤ — الاستدانة

أما الدَّيْن فكما جاء فى الأمثال : الدَّيْنُ همّ باللَّيل وذلّ بالنهار . وقال الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى حِكمه : قد حملتُ الأحجار والصُّخور فما وجدت أثقل من الدَّيْن . وقال أحد الحكماء : الدَّيْن رقُّك فلا تبذل رقك لمن لايعرف حقَّك

ولكن قد تطرأ على الإنسان أعذار شرعية قوية تدعوه للوقوع فى هذا المحظور . فليتبع فى ذلك ما جاء فى كتاب الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل) .

فأمر الله تعالى بكتابة الدين وميعاده ، وإقامة الشهود على ذلك .

والأصل أن يملي المدين جملة الشروط ليكون إقرارا منه بالفعل ، فان كان ضعيف العقل أو صبياً أو شيخاً كبيراً فليمل الشروط ولي أمره .

والواجب ألا تدين أحداً إلا إذا اقتضته المعاملة ، ووثقت بأن مدينك ليس مشهوراً عنه السفه وسوء التصرف ، وأنه صادق الوعد ، وأن ما يطلبه منك ليس بقصد إنفاقه في بحبوحته ومسرته ، بل يصرفه في قضاء حاجته وتفريج كربته ، واجتهد في أن تفي بالحقوق في مواعيدها ، ولا تضيع حق أخيك اتكالاً على مابينك وبينه من الصداقة ، واعمل بالمثل المشهور : (تحابوا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب) .

٥ — الأمانات والودائع

الأمانات والودائع على نوعين :

١ — الأول : التجارية

وهي متاع أو مال يودعه تاجر عند آخر ليبيعه أو يستثمره على جعل معين يؤديه المودع للمودع عنده .

وهذا النوع يبنى على شروط وروابط يصطلح عليها لايسع معها أحد الفريقين هضم حق الآخر أو غبنه .

٢ — والنوع الثاني :

مال أو متاع يودعه أحد الناس عند آخر ليحفظ له عنده على سبيل الأمانة فقط حتى يطلبه . مثلاً يريد أن يسافر وعنده شيء لايمكن نقله معه فيودعه شخصاً آخر يأتمنه على حفظه حتى يرجع ويأخذه . والمتعارف في هذا النوع ألا يكون للمودع عنده أجره بل كل ما يناله جزاء قيامه بحفظ الوديعة أو الأمانة هو الشكر ، وثقة الناس به وائتمانهم إياه على مالهم .

ولكن هذا جزاء أدبي لايصح أن يسمى جزاء لعمل مادي كحفظ الوديعة والقيام بأدائها . ولذلك إن فقدت الوديعة أو سرقت لايطالب بها قانوناً ، إذ لايطالب أحد

لعمل ما لم يكن له أجرة عليه . وهذه الكيفيَّة من المعاملة خطرة . ووخيمة العاقبة في الغالب ، وهي من الدواعي الكبرى لضياع الحقوق ، لأنه قد يطرأ طارئ يذهب بالوديعة ، مثل موت المودَع عنده قبل أن يوصي بردّها إلى ذويها . أو قد يوصي ولا يكون ورثته على شاكلته في الأمانة والذمَّة فلا يؤدونها لأصحابها . أو ما شاكل ذلك من الطَّوارئ الممكنة الحدوث .

وقد دلَّت التَّجارب على أن هذه الطريقة من المعاملة تكون سبباً لإيقاع الذين لايكونون شديدي الأمانة في مهاوي الخيانة . لأنهم إذا ادَّعَوْا أن الوديعة سرقت أو فقدت أو أنكروها بالكليَّة لايكون للمودِعين (أصحاب الودائع) تمسكاتٍ عليهم تحفظ لهم حقوقهم . لأن الناس ليسوا سواء من حيث الأمانة وعلوّ النَّفس وطهارة الذّمَّة (فمنهم من إن تأمنْه بقنطار يؤدِّه إليك . ومنهم من إن تأمنْه بدينار لايؤدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً) والأمثال على ذلك كثيرة نذكر لحضراتكم بعضها :

استودع تاجر بالكوفة رجلاً من أهلها مالاً جزيلاً . وتوجَّه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحجّ ، فلمَّا عاد طالب الرجل بماله فأنكره وجعل يحلف له . فانطلق التاجر إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأخبره بذلك . فقال له الإمام : لاتكلم أحدا بجحوده . وكان عرف الرجل من جليسيه . فقال له وقد خلا لهما المكان : إن القوم بعثوا يستشيرونني فيمن يصلح للقضاء وقد اخترتك لهذا المنصب الرفيع .

ولما انصرف الرجل جاء صاحب الوديعة ، فقال له الإمام : ارجع إلى صاحبك وذكِّره لاحتمال أن يكون ناسياً . فرجع إليه فما احتاج معه إلى إشارة . بل دفع إليه ماله ، ثم توجَّه الرَّجل إلى أبي حنيفة يذكِّره بوعده . فقال له الإمام : إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى بحضر ما هو أنفس من هذا .

قصة أخرى :

حكي أن رجلا قدم بغداد قاصداً الحجَّ . وكان معه عقد يساوي ألف دينار . أراد بيعه فلم يجد من يشتريه ، فوضعه أمانة عند تاجر مشهور بالصلاح . ثم حجّ ورجع بهديَّة فاخرة ، وقدَّمها للتاجر وسلَّم عليه . فقال له التاجر : من أنت ؟ فقال : أنا صاحب العقد الذي أودعته أمانة عندك ، فقال التاجر : أنا لاأعرفك . وليس لك عندي عقد ، ثم طرده من دكانه ، فذهب الرجل إلى عضد الدولة وهو أمير تلك الجهة وقتئذ

وقص عليه خبره ، فقال له : اذهب واجلس عند التاجر ، وحينما أمر عليك وأقرئك السلام رُدَّ عليَّ السلام وأنت جالس .

ولما مرّ عضد الدولة بموكبه قال : السلام عليك . قال الرجل (صاحب العقد) : وعليك السلام ولم يتحرك . فقال الأمير (عضد الدولة) : يا أخى أتتقدم من العراق ولا تحضر عندنا ؟ قال الرجل : لم يتفق . فذهل التاجر .

ولما انصرف الأمير قال التاجر للحاج : ما صفة عقدك ؟ قال : كذا وكذا ، فقام التاجر وأحضر له العقد واعتذر بالنسيان . فأخبر الحاجُّ عضدَ الدولة بما حصل ، فأمر بصلب التاجر أمام باب دكانه جزاء خيانته . فصلب ومات ولسان الحال يقول :

أدّ الأمانة . والخيانة فاجتنب   واعدل ولا تظلم يحلّ المكسب
واحذرْ من المظلوم سهماً صائباً   واعــلم بأنّ دعاءَه لا يحجب

ونكتفى بذكر الحكايتين المذكورتين .

وفى حوادث سرقة الأمانات التى كانت مودعة بمجالس المديريات ومعاقبة المختلسين لها التى نشرت فى الجرائد أكبر عظة وعبرة .

٦ — الوصيات على القاصرين

هذا النوع من المعاملة هو أشدُّ الأنواع خطرًا وأعظمها شناعةً وفضيحةً فى الدنيا وعذاباً فى الآخرة . لأنه يتناول أكل أموال اليتامى والسفهاء والضعفاء .

إذا فقد الولد أباه ، أقام المجلس الحسبى وصيًّا عليه للمحافظة على أمواله والدفاع عن حقوقه والقيام بشئونه . فان كان الوصىّ من أهل الذمّة والأمانة والاستقامة قام بحفظ ما يوصى عليه من المال والمتاع بدون أجر ، بل يفعل ذلك حبًّا لصالح القاصر اليتيم ومرضاة لله تعالى . وإن كان على خلاف ذلك كانت الطامّة الكبرى ، والبليّة العظمى ، على هذا القاصر المسكين الذى لم يكفه موت والده . فتضيع حقوقه أيضًا .

فاذا كانت التركة أملاكا وعقارًا فقد لايهتمّ الوصىّ بإصلاحها واستثمارها كما يجب أو قد لاتمكنه أشغاله الخصوصيّة من الاهتمام بأشغال غيره ، فيقع الغبن إذ ذاك على القاصر . وإذا اهتمّ بذلك وتعب وقع الغبن عليه لأنه لاينال جزاء أتعابه ، وخصوصًا إذا ضحّى بعض مصالحه الخصوصية فى ذلك . وهذا ما يدعوه فى الغالب لأن يرتكب إثم الخيانة . فأكل أموال القاصر التى يقدم عنها حسابا للمجلس الحسبى ـ الله أعلم به ـ

ويتفق مع الخبير (الأمين عليه) فيسوّى له حكاية على الطريقة التى ترضيه ويصادق عليه المجلس ، وبذلك تضيع حقوق القاصر ويكون الجميع شركاء فى هذا الإثم العظيم . اللهمّ إلا إذا وجد مشرفا رجلاً طيبًا ، وأخذ يناضل ويناقش الوصىّ والخبير والمجلس حتى تظهر الحقيقة بعد حين . وإذا ظهرت وكان الوصىّ مفلساً أو مماطلاً فتكون النتيجة أيضا ضياعَ الحقوق وتذهب متاعب المشرف سدًى ، وتذهب معها أموال القاصر .

والعيب فى هذا كله راجع إلى عدم ذمّة الأوصياء وسوء نظام المجالس الحسبيّة والطّريقة المتبعة فى حساب الأوصياء . وقد فكّر أولو الشأن وولاة الأمور فى إصلاح هذا النظام ، فنسأل اللهَ أن يوفّقهم لما فيه الخير لهؤلاء القصّر الأيتام فيعملوا على ما فيه صلاحهم وحفظ حقوقهم .

والمعاملة الحسنة فى هذا النوع هى أن يكون للوصىّ سواء كان وصيًّا مختارًا أو وصيًّا معيّنا من قِبَل المجلس أجرٌ معيّن ليصبح مطالباً قانوناً بحسن إدارة التركة المُسلَّمة إليه ، بشرط ألا يطوح بها فى مهاوى الخراب ويعرّضها للضّياع ، وإلا فيكون مسئولاً قانوناً بردّها من ماله الخاصّ . فتصبح التّركة مثل مال يضعه الإنسان فى مصرف ليُستثمر ويقسم ربحه بين صاحبه ومستثمِره .

٧ — أوامر الله تعالى للأوصياء فى أموال اليتامى والسفهاء

لما كان كثير من الأوصياء يأكلون أموال اليتامى والسفهاء بغير حقّ ، أمر الله الأوصياء بإيتاء اليتامى أموالهم متى بلغوا سنّ الرُّشد ، وعدم أكلها ، فقال الله تعالى :

(وآتُوا اليتامى أموالَهم ولا تَتَبَدَّلوا الخبيثَ بالطَّيِّبِ ولا تأكلوا أموالَهُم إلى أموالكم إنَّهُ كانَ حُوباً كبيرًا) .

وكذلك أمر الله تعالى الأوصياء بألا يؤتوا السُّفهاء أموالهم ، بل يبقوها فى أيديهم وينفقوا منها عليهم ويعِدوهم بها متى استقاموا أو رشدوا .

وأمر الله تعالى باختبار الأيتام فى دينهم وعقلهم وحسن تصرُّفهم قبل البلوغ ، حتى إذا بلغوا ، وتحقَّق الأوصياء من رشدهم فعليهم دفع أموالهم إليهم . وأمر الله تعالى بعدم إسراف الأوصياء فى أكل أموالهم والمبادرة بانفاقها خشية أن يكبروا فيطالبوهم بها .

ومن كان غنيًّا فليستعفف من أكلها ، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف . وإذا دفع الأوصياء إليهم أموالهم فليُشْهِدوا عليهم وكفى بالله حسيبا . وليخش الأوصياء

خالقهم فى أمر اليتامى فليفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم بعد وفاتهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً بأن ينصحوا بعدم الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة .

قال تعالى (ولْيخْشَ الَّذينَ لو تركوا من خلْفِهم ذرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهم فلْيتَّقوا اللهَ ولْيقولوا قَوْلاً سديداً) .

فحثّ الله الأوصياء فى هذه الآية الكريمة على أنهم يخافون الله ويراقبونه فى أمر اليتامى الذين هم تحت رعايتهم كخوفهم على ذريتهم إذا ماتوا وتركوهم ضعافاً : أى أولاداً صغاراً ،خافوا عليهم من الضَّياع والإهانة . فليتَّقوا الله فى أمر اليتامى الضُّعفاء ، وليفعلوا بهم ما يحبُّون أن يفعل بأولادهم الضُّعفاء بعد وفاتهم ، ثم إنه تعالى نبَّه الأوصياء بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الملاطفة ، فقال تعالى : (وليقُولوا قَوْلاً سَديداً) أى صواباً .

والغرض أنهم لايؤذون اليتامى ، بل يخاطبونهم كما يخاطبون أولادهم بالقول الجميل وإنما نبَّه الله تعالى الأوصياء إلى حال أنفسهم وذريتهم لأنهم إذا تصوَّروها وعلموا أنهم لو ماتوا وتركوا أولاداً صغاراً يكونون عليهم فى اشتغال قلب وتغير حال . فاذا عرفوا تلك الحالة فى أنفسهم وفى أولادهم . نظروا إلى حفظ مال اليتيم بعين العناية ، وتوجَّهوا إليه بعين الشَّفقة .

وهذا خلاف الحاصل الآن ، فاننا نرى كثيراً من الأوصياء لايبالى بقوله تعالى ولا يعمل به . بل بالعكس يأكل أموال اليتامى جهاراً ليلاً ونهاراً وهو لايدرى ولا يعى قول الله تعالى (إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلْماً إنما يأكلونَ فى بُطونِهم ناراً وسيَصْلَوْن سعيراً) .

ثم إن الله تعالى أكَّد الوعيد والزَّجر فى أكل مال اليتامى ظلماً رحمةً منه تعالى بهم لأنهم لعجزهم وضعفهم صاروا مستحقِّين منه تعالى مزيد العناية والكرامة .

فقال تعالى (إنَّ الَّذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلْماً) أى على وجه الظُّلم من ولاة السوء وقضاته لاعلى وجه المعروف (إنما يأكلون فى بُطونهم) أى ملء بطونهم (ناراً) أى ما يجرّ إلى النار ويؤدّى إليها ، وكأنه نار فى الحقيقة ، فقد روى « أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنه وعينيه » فيعرف النَّاس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا فهل من يتعظ به ؟ .

٨ — اللقطات

لايحق للإنسان أن يأخذ شيئاً لايملكه بغير استحقاق . فاذا أصاب في طريقه مالاً أو متاعاً لايليق به أن يأخذه لنفسه ، بل يجب عليه أن يبحث عن صاحبه ويردّه إليه . أو يذهب به إلى مركز الحكومة فيسلّمها إيّاه ، وإلا كان هو واللص سواء .

ومن ألطف الحكايات التي يُضرب بها المثل في هذا النوع من المعاملة : أن رجلاً كان سائراً مع ابنه ، فوجد حقيبة مملوءة نقوداً . فقال الولد : يا لها من صدفة محمودة فقد أصبحنا أغنياء ، قال أبوه : لا يا بنيّ هذه الدراهم ليست لنا . وعلينا أن نبحث عن صاحبها ونردّها إليه فقد تكون كل ما يمتلك . قال : وإذا كان الذي أضاعها غنيًّا لايضرّه فقدها ؟ قال : قد يكون كما ذكرت ولكن ذلك أيضًا لايسوّغ لنا أخذها . بل يجب ردّها لصاحبها كيفما كانت حاله ؛ قال : وإذا كانت الحكومة فقدتها فلا بأس من أخذها لأن الحكومة غنيّة جدًّا حتى إنها لاتعبأ بهذه النقود . قال : إنّك لفي ضلال مبين يا بنيّ ، لأن أموال الحكومة في عهدة أشخاص معيّنين يُعطون حساباً عمّا يصل إلى أيديهم من النقود . فاذا أضاع أحدهم أقلّ مبلغ يقع في أكبر مسئوليّة . وبالاختصار لاحقّ لنا في امتلاك هذه الدراهم . بل نأخذها ونبقيها معنا وديعة حتى يُعلم لنا صاحبها ، وظلا سائرين والرجل يلتفت إلى كل جهة يطلب أن يجد صاحب هذه الدراهم وإذا برجل أقبل مطرقاً برأسه يبحث في طريقه وعلامات الجزع واليأس بادية على محيّاه حتى اقترب منهما وسألهما عن المفقود . فردّه الله إليه . فأخذته هزّة الطرب وصار تارةً يضحك ، وتارةً يبكي . وتلعثم لسانه عن الكلام ولم يجد واسطة يعبر بها عن شكره لهما إلا تقبيل أيديهما . لأن تلك النقود كانت ثمن كلّ ما ملكه في دنياه . باعه وعزم على الرحيل إلى بلاد أخرى . فالتفت الرجل إلى ولده وقال : يا بنيّ إن سروري بردّ هذا المال لصاحبه لأعظم منه لو أخذته . فاتبع مثالي واسمع مقالي . وكن أميناً . وعامل الآخرين كما تحبّ أن يعاملوك .

فليكن قول هذا الرجل وعمله قاعدةً لكل من يصيب لقطةً . ويجب على صاحب اللقطة أن يقوم بواجب الشكر لمن يردّ إليه ما فقد . وإذا كان من الفقراء فيجب أن يجازيه جزاء ماديًّا أيضاً ، وإلا فيكون ناكرًا للجميل وكافرًا بالإحسان .

وقال آخر : حكي أن تاجرا فقد كيساً فيه مائة دينار . فأرسل منادياً ينادي عليه

فى الأسواق ، وإذا برجل تقدّم إلى المنادى وقال : إننى وجدت كيساً فاذكر لى علامة الكيس الذى تنشده حتى إذا كان هو أعطيتك إيّاه ؛ قال : علامته كذا ، قال : هو بعينه فتعال معى إلى بيتى ، فذهبا ووصل الرجل ففتح صندوقاً وناول المنادى الكيس ؛ فتعجّب المنادى من أمانته مع أنه فقير وغير مهتمّ بالكيس وقال : تعال معى إلى صاحبه فأسعى لك فى جائزة جزيلة وأخذه وأخبر التاجر بما كان وقال : إنه يستحقّ مكافأة جزيلة ، وكان التاجر بخيلاً جدّا . فشقّ عليه وأراد أن يحتال فى التّخلّص منه ، فأخذ الكيس وعدّ دنانيره وادّعى أن الرجل أخذ منه جانباً ويكفيه أن يتركه له ، أخذ يشتمه أمام النّاس . فغضب الرجل وأسمعه كلاماً مرّا ، فساقه التاجر إلى الحاكم وأخبره بما جرى وطلب منه أن يحصل ما أخذه الرجل ، فاستنطق الحاكم الرجل فحدّثه بالقضيّة ، وكان الحاكم ذكيًّا فعلم أن صاحب الكيس كاد كيداً هرباً من بذل المكافأة ، فالتفت إليه وقال : أعلم أنك من كبار القوم ، ولا أشكّ فى صدق كلامك ، كما أننى أشكّ فى أمانة هذا الرجل المسكين ، ولذا أرى أن هذا ليس كيسك فأرجعه إلى الرجل ليحفظ عنده إلى أن يظهر صاحبه ، وأنت فتّش على كيسك عند غيره . فاضطرب التاجر وأطال المحاولة . فأمر الحاكم بضربه فضرب وأخذ الكيس منه عنوة وأعطاه إلى ذلك الرجل . وقال الحاكم له : خذه وتصرّف به حلالاً ، ودع هذا الخبيث يفتّش على كيسه الذى أعلم أنه هذا بعينه ، ولكن الطّمع أضاعه مرّة أخرى .

ولا يليق بأحد أن يدعى إذا رأى لقطة بأنها له ما لم تكن له . فذلك من أردأ أنواع الخيانة وأسوأ ضروب المعاملة . والدليل على ذلك ما جاء فى أقوال قديمة ووصايا مزمنة سطّر لها اليونان والرّومان أساطير كثيرة لترسيخها فى عقول أبنائهم .

٩ — الأمانات التى ينقلها شخص إلى آخر

إذا أُعطى شخص أمانة ليوصلها إلى آخر وجب على النّاقل أن يحافظ عليها ويجتهد فى إيصالها لصاحبها . وأن يحترس من الخيانة وإلا فيكون ردىء المعاملة . ولا حاجة لبيان ما ينجم عن الخيانة من الخسران والوقوع فى أشراك الهوان .

نحن نورد لك حكاية الآن . ففيها ما يكفى لردّ الخائن عن خيانته ، وهى :

كان أحد أرباب السّيادة فى بلاد الإنجلير مغرماً بالزراعة وتربية المواشى ، فرأى

بقرة عند أحد الفلاحين أعجبته ، فاشتراها وأوصاهم أن يرسلوها إلى بيته فى الغد ، وحدث أنه يكرّ فى ذلك الغد يتفقّد بعض المزروعات ، وإذا بولد يقود البقرة ولا يكاد يقوى على كبح جماحها ، فلما رآه الولد ظنّه من عامّة الناس ، فناداه ليأتى ويساعده فى إيصال البقرة ، وقال : إن أصحاب المنزل من كرام النّاس ، وأؤمل نوال أجر على ذلك ، فتعال وأعنى فأعطيك نصف ما أنال ، فضحك الدُّوق سرّا وأراد أن يمتحن أمانة الولد ، فأقبل وأخذ بمقود البقرة ، وأمر الولد أن يسوقها حتّى وصل إلى البيت . وحينئذ زاغ ودخل من باب آخر وناول أحد خدمه ديناراً وأمره أن يُعطيه للذى يأتى بالبقرة ، فتناول الخادم الأمانة وداخله روح الطّمع ، فقال فى نفسه : إن الولد فقير ويستعظم أقلّ شيء ، فأعطاه درهمًا ، فتناوله الولد شاكراً وخرج فرحاً وهو ينظر يمنة ويسرةً ليشاطر شريكه التُّحفة ، وإذا بالدوق مقبل ، فصاح الولد : لقد تكرّم علىَّ أصحاب المنزل بهذا الدرهم ، فهاك نصفه ، فتحيّر الدوق من ذلك وقال : لابل أنت نلت ديناراً ، قال : لاأدرى ماتقول ، بل أعلم أن هذا جزاء عظيم ، قال لا ، عد معى فأحصل لك على أكثر لأن أصحاب المنزل أصدقائى ، قال : إنّ ما نلته ليس بقليل فخذ نصفه وامض ، فأخذه الدوق من يده وأدخله البيت وقرع الجرس وجمع الخدم وقال للولد : أرنى الذى أعطاك الدرهم ، فشرع الولد يتوسّم وجوههم حتّى عرفه وقال هذا ، فمن يقدر أن يصف الخجل الذى نزل على ذلك الخائن الذى خرّ على ركبتيه وأراد أن يسترحم مولاه ويطلب الصّفح ؟ لكن الدوق لم يدع له فرصة للكلام ، بل أمره أن يعطى الدينار للولد وطرده قائلاً : إن خيانتك ضيّعت منك مركزك وصيتك . وسرّ جدا من أمانة الولد فوضعه فى المدارس على نفقته .

هذه حادثة من ألوف من الحوادث الدالة على وجوب الأمانة ، وتجنُّب الخيانة إذا لم يكن حبّاً فى الأمانة مجرّداً فطمعاً فى فوائدها ، وهرباً من ذلّ الخيانة وأضرارها .

القسم الثانى : المعاملة الأدبية

المعاملة الأدبيّة ، ونعنى بها المعاملة التى قاعدتها الالتزامات الأدبيّة مثل : الوفاء بالوعد ، والصدق فى القول ، وغير ذلك من الصفات الحميدة .

فاذا وعد الإنسان آخرَ حقّ عليه الوفاءُ بوعده عملا بقوله تعالى (وأوْفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسئولاً) وقوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدِكم وإيَّاىَ فارْهبونِ)

وقد جاء فى كتاب الله ووصايا الحكماء والأدباء أمثال مختلفة تحريضًا على الوفاء بالوعد مثل قولهم : وعد الحرّ دَيْن عليه ؛ وإن الوعد كورق الشجرة ، والوفاء كالثمرة ، وكن بطيء الوعد سريع الوفاء ؛ إن الوفاء بالوعد دَيْنٌ تُوجب عليك الشّهامة والمروءة أداءَه . ولهذا ينبغى أن يفكّر الإنسان قبل أن يَعد فاذا ما وعد تحتّم عليه أن يُنجز وعده مهما كانت الموانع والعقبات كما قال الشاعر :

إذا قلت فى شيء « نعم » فأتمّه ... فان « نعَم » دَيْنٌ على الحرّ واجب

وإلا فقل « لا » تسترِحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يقول النّاس إنك كاذب

إنك حين تعد شخصًا بأمر فقد بنى على موعدك مصالح كثيرة ، وإنّ فى خُلفك لوعده ونقضك لعهده نقضًا لهذه المصالح . وليس هذا من الدين ولا من المروءة .

إنك لتجد من نفسك امتعاضًا ، وفى صدرك ضيقاً ، حينما يَعِدُك عامل أو صانع أو تاجر أو غيرهم بعمل من الأعمال ثم هم لايوفون بوعدهم .

فاذا كان إنسان مسافرًا مثلاً وأرسل خبرًا لأهله وأصحابه بقدومه فى وقت معين وجب عليه الوفاء بالحضور فى الموعد المضروب ، لأن تأخيره يوجب لهم قلق البال وتبلبل الأفكار من جهته . وقد يُنتج لهم خسائر ماديّةً وأتعابا ، لأنهم غالباً يُعدّون لغائبهم إن كان قريبا أو صديقاً معَدات غيرَ اعتياديّة تكلّفهم تعباً ونفقةً ، وهم لايعتدّون بها إذا وفى بوعده ، ووافاهم فى الأجل المعيّن .

ولكن إذا أجّل حضوره وضرب لهم موعدًا آخر قد لايبذلون له ذلك الاهتمام بعدئذ عن طيب نفس . بل يكون تكلّفا مملاً ؛ ونزَل عليهم الضّيف ثقيلاً .

نعم . قد تحدث موانعُ تحول دون وفاء الوعد ، وقد يكون له عذر مقبول ، ولكن بعض الناس ينتحل أعذارًا قد تكون أقبح من الذنب وهؤلاء سيئو المعاملة .

وإذا ضرب أحد الإخوان لصاحبته موعدًا ومكاناً يلتقيان فيه ، وجب عليه أن يوافيه فى الزمان والمكان المعين . وليفكّر الذى يُقعِدُه الكسل عن الوفاء بالوعد فى التضجُّر والملال الذى يلاقيه صاحبه المنتظر فيجد دافعاً للقيام بوعده .

والمستدين الذى عليه مال لعميله إذا لم يدفعه فى الحال يضرب له أجلاً يدفع فيه ذلك المال . فإذا أخلف وعده بغير عذر شرعى ارتاب العميل فيه . وإذا تكرّر منه خُلف الوعد امتنع عن معاملته .

مثال فى الوفاء بالوعد :

ممن اشتهر بالوفاء بالوعد حتى ضرب به المثل « السموأل بن عادياء » . فمن وفائه أن امرأ القيس الكندى الشاعر المشهور أودع عنده ابنته ودرعه وسلاحه وعاهده ألا يعطيها سواه ، ثم جاء أعداء امرئ القيس وقبضوا على ابن السموأل خارج حصنه ، وطلبوا إلى أبيه أن يفتديه منهم بدرع امرئ القيس وسلاحه ، فأبى أن يخون الأمانة ويتصرف فيها بغير إذن من أهلها ، فأصروا على قتل ابنه إن لم يفعل ، فأصر على رأيه ، فقتلوا ابنه وهو ينظر إليه غير مكترث بذلك ، لأن شهامته ومروءته وذمته أبت عليه أن ينقض عهده ويخفر ذمته وقال : « ما كنت لأخفر ذمتى وأبطل وفائى » .

ومن قوله فى ذلك مفتخراً :

وفيت بأدرع الكندى إنى　　إذا ما القوم قد غدروا وفيت

ولذلك ضرب به المثل فى الوفاء . واستحق من الناس حسن الذكر وجميل الثناء .

مثال آخر من وفاء سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

حضر بين يدى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسير من الفرس يسمى الهرمزان ، وكان من كبرائهم ، وكان محكوماً عليه بالقتل ، فقال له : يا أمير المؤمنين أريد شربة ماء ، فلا تقتلنى وأنا عطشان ، فأمر سيدنا عمر بتركه حتى يشرب ، وأمر له بقدح من الماء ، فلما أخذه الرجل بيده قال له : يا أمير المؤمنين أنا آمن حتى أشرب هذا القدح ، فقال سيدنا عمر : نعم لك الأمان حتى تشرب ، فرمى الرجل القدح من يده وأراقه على الأرض ثم قال : الوفاء بالوعد يا أمير المؤمنين نور أبلج ، فقال سيدنا عمر : اتركوه الآن ولا تقتلوه ، فأسلم الرجل ، وكان سيدنا عمر يعمل برأيه ويشاوره بعد ذلك فى أمور عظيمة .

وهذا النوع من المعاملة يتبع التربية والتهذيب ، فاذا رأى الولد اباه وأمه ينجزان له ولغيره وعدهما ، ثم رأى ذلك فى معلم مدرسته ، ثم فى معاشرة إخوانه ينغرس فيه الميل لأن يكون حسن المعاملة ، يفى بالوعد ، ويصدق فى القول .

فيبغى على الأهل والمعلمين وكل من يتدخل فى شئون تربية النشء أن يكون مثالاً صالحاً يقتدى به فى الأقوال والأفعال .

الخاتمـــة

أختم هذه الكلمة فى حسن المعاملة على وجه العموم فأقول :

على العاقل أن يقضى هذه الحياة الدنيا القصيرة فى خيرٍ وصلاحٍ وأخلاقٍ كريمةٍ ومعاملةٍ للناس طيِّبةٍ حَسَنةٍ ، ليتمتَّع فى الدنيا بالراحة والنِّعمة ، ويفوز فى الآخرة بالثواب والرحمة ، وخيرٌ للإنسان أن يعيش مع النَّاس فى مودَّة ، ويعاملهم بالأخلاق الممدوحة والمعاملة الحسنة والأمانة والوفاء والاستقامة ، ويكون محبًّا لأهل بلاده وأبناء جنسه على العموم ، يسعى فى خيرهم ومنافعهم ، ولا يشوّش على نفسه فى هذه الدنيا بعداوة الناس ومباغضتهم ومحاسدتهم ، ليعيش بينهم مستريحاً خالى البال ، فيكرمونه ويودونه ويساعدونه فى حاجاته أيام حياته ، ويذكرونه بالخير بعد مماته .

أسأل الله ربّ العالمين أن يوفقنى وإيَّاكم إلى ما به تطيب ذكرانا وتحسُن سيرتنا .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيِّد المرسلين فى البدء والختام ، والسلام عليكم ورحمة الله .

المحاضرة التاسعة :

المـال

قال الله تعالى فى كتابه العزيز (المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا وَالباقِياتُ الصالِحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أمَلاً) .

بَيَّن الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فكل ما كان من زينة الدنيا ، فهو سريع الزّوال قريب الاضمحلال ، وما كان كذلك فلا يحسُن بالعاقل أن يفتخر به ، أو يفرح بسببه ، أو يقيم له فى نظره وزناً .

وقدّم المال على البنين ، لأنّ المال وجوده ضرورى لبقاء النّفس ، والبنين لبقاء الجنس ، وعمران الكون ؛ ولأن الحاجة إلى المال أشدُّ من الحاجة إلى البنين ، ولأن المال أقدم منهم فى الوجود ، ولأنه زينة بدونهم . فمن له بنون بلا مال ، فهو فى أضيق حال ، وأشدُّ نكال .

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أن الباقيات الصّالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ؛ ومعنى ذلك أن خيرات الدنيا زائلة منقرضة ، وخيرات الآخرة دائمة باقية ، والدائم الباقى خيرٌ من المُنقرض الزائل .

كل شىء مصيرُه للزّوالِ   غيرَ ربى وصالحِ الأعمالِ

ولأن خيرات الدنيا حقيرة دنيئة ، وخيرات الآخرة عالية رفيعة ؛ ولأن خيرات الدُّنيا مادّيّةٌ حِسِّيَّةٌ ، وخيرات الآخرة معنويّةٌ عقليّةٌ ؛ والعقلية أشرف من الحسية.

والمفسِّرون ذكروا فى الباقيات الصّالحات أقوالاً كثيرةً :

منها قولنا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . ولا حول ولا قوّة إلا باللهِ العلىِّ العظيم ، وقال صلى الله عليه وسلم « استكثروا من الباقيات الصّالحات ، قيل : وما هى يا رسول الله ؟ قال : التّكبير ، والتّهليل ، والتّسبيح . والتّحميد ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ؛ وهن يحططن الخطايا ، كما تحطُّ الشّجرة ورقَها . وهى من كنوز الجنّة » .

وبعضهم يقول : إن المقصود من الباقيات الصالحات هو جميع أعمال الحسنات . وجميع أنواع الخيرات .

والخلاصة أن كلّ عملٍ وقولٍ دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله ومحبّته وخدمته ، فهو في الباقيات الصالحات . وكلّ عملٍ وقولٍ دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق . فهو خارج عن ذلك .

أما قوله تعالى (خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أمَلاً) أى كل عملٍ أريد به وجه الله تعالى . فهو لاشكّ أن ما يتعلّق به من الثّواب . وما يتعلق به من الأمل يكون خيرًا وأفضل . لأن صاحبه يؤمل فى الدنيا ثواب الله . ونصيبه فى الآخرة .

المـال فى نظر خواص البشر

سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن المـال ؟ فقال : لاخير فيه . قيل : ولم يا نبيّ الله ؟ قال : لأنه يجمع من غير حلٍّ . قيل : فان جُمِـع من حلّ ؟ قال : لايؤدّى حقّه . قيل : فان أدّى حقّه ؟ قال : لايسلم صاحبه من الكبر والخيلاء . قيل : فان سلم ؟ قال : يشغله عن ذكر الله تعالى . قيل : فان لم يشغله ؟ قال : يُطيل عليه حسابه يوم القيامة .

فتأمّلوا رحمكم الله ما أجمل هذا الكلام النّفيس وما أبدعه . وكيف أن أمام صاحب المـال خمسَ عقبات هيهات أن يتجاوزها سالماً .

وقد سئل بعض الصالحين عن رجل يجمع المـال من حلال ، ويُنفقه فى حلال ؟ فقال : إذا نوقش الحساب هلك . ولم يذكر اللهُ المـالَ فى مقامٍ يشرّفه فيه أبدًا ، بل ذكره حيث يُستهان به فى نظر العاقل . قال تعالى :

(زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشّهواتِ منَ النِّساءِ والبنين والقناطيرِ المُقَنطرَة منَ الذّهبِ والفضّةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعمِ والحرْثِ . ذلكَ متاعُ الحياةِ الدُّنيا والله عنده حسْنُ المآب) .

فعدّه الله مع الشّهوات والملاذّ . وأضافه إلى الحياة الدّنيا . وهى لاشىء فى نظر العاقل وقال الله تعالى (إنّ الذينَ كفَرُوا لنْ تُغنىَ عنهْم أموالُهُم ولا أولادُهم منَ اللهِ سيئاً وأولئكَ هُمْ وَقودُ النَّارِ) أى أن المـال لايغنى عن المجرم شيئاً .

وقال تعالى فى موضع آخر (إنّ الذينَ كفَرُوا وماتوا وهُمْ كُفَّارٌ فلنْ

يُقبَلَ منْ أحدِهم مِلءُ الأرْضِ ذهباً ولوِ افْتدى بهِ) وهل بعد ملء الأرض ذهباً مال ؟ كلا . ومع ذلك فقد أخبر الله عنه أنه لايفدى الكافر من العذاب وما لايُفْدَى لا يُجْدِى نفعاً ألبتة .

ولما سأل بنو إسرائيل نبيهم من بعد موسى عليه السَّلام أن يجعل لهم ملكاً فقال : (إنَّ اللهَ قد بعثَ لكم طالوت ملكاً) وكان طالوت فقيراً . فاعترضوا عليه وقالوا : (أنى يكون له المُلك علينا ونحن أحقُّ بالمُلكِ منه ولم يُؤْتَ سَعَةً منَ المال ؟) فظنُّوا لقُصور مداركهم أن المال والغنى من أسباب التَّفضيل . فقال لهم نبيهم (إنَّ اللهَ اصطَفاهُ عليكم وزادَهُ بَسْطةً فى العلمِ والجِسْمِ . واللهُ يُؤْتِى مُلكَهُ منْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمْ) فأبان لهم فضله عليهم بالعلم والصِّحَّة والعقل . وأن ذلك كاف لأحقِّيته بالمُلك عليهم . وأما المال الذى يذكرونه فليس من الفضيلة فى شىء .

السعادة ليست فى الجشع والإيغال فى جمع الأموال

قدَّمنا لك فيما تقدَّم أن السَّعادة ليست فى الإيغال فى الأموال والملاذّ . وسقنا على ذلك حكاياتٍ شائقةً تتَّصل بالموضوع ، وها نحن أولاءِ مُتْبِعوها بأخرى فنقول :

من أبدع ما سمع فى حكايات الصالحين والزُّهَّاد أنه حصل غرق فى البَصرة فى حياة حسنُ البَصرى الزّاهد المشهور . فاشتغل النَّاس بنقل ما لهم وأمتعتهم ، وصاروا يستغيثون وأدركهم التَّعب . فخرج الحسن البصرى حاملاً عصاه وليس له شىء غيرها . فسبق القومَ إلى النَّجاة ووقف بعيداً وقال لهم : (يا أهل البَصرة لقد نجا المخفّون) يضرب لهم بذلك مثلاً بأن ذا الحمل الخفيف أقربُ النَّاس إلى النَّجاة .

وحكى عن سُقراط الحكيم . أن الملك قال له : ما أفقرك يا سُقراط ؟ فقال : لو عرفتَ راحة الفقر لشغلك التَّوجّع لنفسك عن التوجع لى .

وما ذاك إلا لما يجرُّه المال من الأجرام العديدة التى استراح منها الفقير . فالعاقل يحسبه الناس شقيًّا فيما يعده هو سعادة . والجاهل يرى نفسه سعيداً فيما يعده العقلاء شقاءً . والحقيقة أن السَّعادة ليست هى الغنى والثروة كما يتوهَّم البعض ، إنما هى الهناء فى المعيشة . وراحة البال . والتَّشرف والاستبداد فى المعاملة .

المحاضرة العاشرة :

البدع فى الموالد

الغرض من الاحتفال بالموالد : الذكرى الحسنة ، وتكريم الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين . وأوّل من أحدثها بالقاهرة الخلفاء الفاطميُّون فى القرن الرّابع ، فابتدعوا ستّة المولد النّبوى ، ومولد الإمام علىّ ، والسيدة فاطمة الزّهراء ، وسيدنا الحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين . وبقيت هذه الموالد إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ، ثم أُعيدت فى خلافة الحاكم بأمر الله فى سنة ٥٢٤ هجرية .

وأوّل من أحْدَثَ المولد الملك المُظَفَّر أبو سعيد فى القرن السابع بمدينة (إربل بالموصل) ، وقد استمرّ العمل بالموالد إلى يومنا هذا ، وتوسَّع النَّاس فيها ، وتبدّعوا بكلّ ما تهواه أنفسهم ، ويُزيِّن لهم الشَّيطان ؛ ولا نزاع فى أن الموالد من البدع ، وإنما النزاع فى حسنها وقبحها .

أما حسنها فينحصر فى قراءة القرآن الكريم ، وحديث الرسول عليه أفضل الصلاة وأتمّ التّسليم ، وإقامة الأذكار على الوجه الشّرعى اللائق ، وإطعام الطّعام للفقراء والمساكين ،وبذل الصّدقات لإدخال المَسرات على نُفوس أفراد الأمَّة بتلك الذكريات العظيمة .

وأما قُبحها فهو لما اشتملت عليه هذه الموالد من المفاسد المحرّمة والمكروهة شرعاً .

فمنها : إضاعة الأموال فى الزينات بكثرة الوقود فى المساجد والطُّرقات ، وإيقاد الشُّموع فى الأضرحة ، وكل ما يرجع إلى الإسراف والتَّبذير . وفى الحديث الشَّريف « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » على أنه لو صرفت هذه الأموال فى مشروع خيرى كبناء مسجد أو مستشفى أو ملجأ ، لكان خيرًا وأبقى لهم وللأمة الإسلاميَّة .

ومنها : انتهاك حرمة المساجد بتقذيرها بالأكل والشُّرب والمبيت فيها ، وكثرة اللغط ، ودخول الأطفال والرجال والبنات والنساء حفاة أو بالنعال ، فلا يكاد يتيسَّر لأحد إقامة الشّعائر الدّينيَّة فى مسجد يُعمل فيه مولد .

ومنها : خروج النساء متبرّجات سافرات ، واختلاطهنّ بالرجال إلى حدّ لايُؤمن معه الفتنة وعدم العفّة والصّيانة .

ومنها : استعمال الأغانى وآلات الطّرب فى إقامة الأذكار على الوجه المحرّم شرعاً بالإجماع .

ومنها : قراءة القرآن على غير الوجه المشروع الدالّ على عدم الاحترام لكتاب الله تعالى ، بل إهانته والاستخفاف به .

ومنها : شرب الدخان فى مجالس القرآن ، والتّشويش على القارئ والإعراض عن استماعه بالمحادثة والمطالعة .

ومنها : ما يُنفقه بعض الأغنياء فى سبيل المولد بإحياء بعض الليالى بأسمائهم حبّاً فى الظّهور ، وطلباً للشّهرة والسُّمعة ، وغير ذلك ، مما يُفسد أخلاق أبناء الأمّة ، ويبعث فى نُفوسهم الميل إلى الشّهوات وانتهاك المحرّمات .

فالواجب شرعاً على المسلمين عامّة ، وأولياء الأمور خاصّة ، أن يمنعوا النّاس عن تلك المفاسد والمخازى ، وأن يعملوا على إبطال تلك العادات فى الموالد ، وتهذيب تلك الاحتفالات لتكون مطابقة لأوامر الدين ، ليفوزوا برضاء ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

حول التبشير والمبشرين

داؤنا منّا . ودواؤنا فينا

بمناسبة الضّجّة الهائلة التى قامت بمصر بسبب حركات التبشير وجرائم المُبشّرين وما قامت به الأمّة من علمائها وأمرائها وعظمائها وجمعياتها ورجال صحافتها ، من بثّ الدّعوة ضدّها ، والحثّ على مقاومتها ، ومعالجتها بالطّرق المشروعة ، أرى من واجبى الدينى أن أذكر كلمة صغيرة فى أصل هذا الداء وبيان الدواء ، راجياً من الله نصر الدين ، وصلاح حال المسلمين ، آمين . فأقول ، وعلى الله القبول :

لكلّ داءٍ دواءٌ ، ولكلّ طريقٍ هـداية ٌ واستواءٌ . فمن عرف الدّاء وصل إلى الدواء ، وحصل بفضل الله على الشفاء . ومن ضلّ عن الطّريق تاه فى البيداء . ومن سلك سُبُل الهُدى بلغ غاية المُنى .

وأشدّ الأدواء استفحالاً . وأفظعها حالاً ومآلاً . داء انحلال القلوب . وارتكاب المعاصى والذنوب . وضعف العقيدة . وفقد الآراء السّديدة . وتفرّق الكلمة بين المسلمين . وهجر الآداب والدين . واتّباع خطوات الشّياطين . ومخالفة ربّ العالمين .

لقد دبّ فى هذه الأيام بعد صدمة التّبشير والمبشّرين فى فؤاد كلّ مسلم ، الشّعور بالحاجة إلى الاتحاد دبيب الصحّة فى الأجساد . وسلوك سبيل الرّشاد ؛ فجزى الله المبشّرين بما يستحقّون . لأنهم أيقظوا أبناء الأمّة من غفلتهم ، ونبهوهم إلى واجبهم . وأشعلوا فى نفوسهم نار الغَيرة على دينهم . وإن كانوا من قبلُ لمن الغافلين ، وجاءتهم موعظة من ربهم لعلّهم يتذكّرون .

نعم . سرى هذا الشّعور فى كل قلب . وعلم المسلمون بتفاقم الخطب . فقاموا للدفاع عن دينهم . والمحافظة على أولادهم من سريان عدوى هذا الداء فى نفوس الأبناء . ولكن اختلفت آراء الكتّاب . وكثرت النّداءات والاقتراحات . وتباينت أقوال الأطباء فى طريق العلاج . وتقويم الاعوجاج .

إلا أن الآراء على تشعبها . والأدوية على اختلافها لاتخرج عن بذل النصيحة والدعاية إلى إنشاء ملاجئ ومستشفيات . لإيواء الفقراء والأيتام . وعلاج المرضى منهم ، وانتشالهم من مخالب المبشّرين الضّالّين .

كلّ هذا حسنٌ مقبول . ولكنه علاج وقتىّ لايبلّغنا المأمول . فضلاً عمّا فيه من تشجيع للعاطلين إن لم يكن مقروناً بتعليم الدين . ولو أمعنوا النّظر وبحثوا عن حقيقة الداء . لعلموا أن الداء متأصّل فى الآباء . والدواءُ الوحيد فى إصلاح حالهم قبل الأبناء . لأنهم بسبب إهمالهم وتركهم أمرَ دينهم . كانوا أُسوَةً سيئةً لهم . فأضاعوا أولادهم وجرّوهم إلى هذا الفساد . ودعَوْهم إلى الإلحاد والارتداد . فوجدوا من عطف المبشّرين حناناً وإحساناً . والنّفس تميل دائماً إلى حبّ من أحسن إليها .

أحسن إلى النّاس تستعبد قلوبَهم ۝ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

فيا أيها الآباء عليكم :

أوّلا — بالتمسّك بأهداب الدّين . لتكونوا قدوةً حسنةً لأبنائكم . فيسلكون مسالككم . ويتّبعون سيرتكم . والولدُ كما قيل : سرُّ أبيه .

ثانياً — يجب قبل كل شىء تربية أولادكم تربية دينيّة صحيحة ، وتعويدهم من

صغرهم على الصلاة فى البيت أو المسجد . فينشأون نشأةً صالحةً . ويذوقون حلاوة الإسلام والإيمان . والولد ينشأ على ما كان عليه والده . كما قال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منّا على ما كان عوّده أبوه

ثالثاً — يجب على المدارس عموماً . والأوليّة والابتدائيّة خصوصاً جعل التّعليم الدينى إجبارياً . وإلزام الأولاد بالصلاة فى أوقاتها . بالمصلّى المعدّة لهم فى المدرسة . أُسْوَةً بالمدارس الأجنبيّة (عند دخول الطّلبة فى الصباح وقبل خروجهم فى المساء) .

رابعاً — يجب على رجال الدين . والجماعات الدينيّة . القيام بالدعوة إلى الدين ليس فى المساجد فقط . بل فى الملاجئ والمستشفيات والسّجون وغيرها .

خامساً — يجب توزيع المصاحف والكتب الدينيّة مجاناً على المسلمين . كما يفعل الأجانب من توزيع الإنجيل مجاناً . نشراً للدين . ولإيقاف النّاس على حقيقة توحيد ربّ العالمين . وتصديق النبيّ الأمين .

فبذلك ينغرس فى نفوس الأبناء من صغرهم حبّ الدين . ولا يؤثّر فيهم غَوايَة الشّياطين من أولئك المبشّرين مهما فعلوا وبذلوا من المال . وعلى الله إصلاح الحال . فى الحال والاستقبال .

انتصار الدين على المدنية

خُلِق الإنسان وخلق فى صدره مَلَكٌ وشيطان . بدليل قوله تعالى :

(ونفْسٍ وما سوّاها . فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها . قد أفلَح من زكّاها . وقد خابَ منْ دسّاها) .

أى أن الله تعالى خلق النّفوس وعدّلها وبين لها طريق الخير والشّرّ . فمن زكّى نفسه وطهّرها من الكُفر والمعاصى . وأصلحها بالصالحات من الأعمال . فقد أفلح . أما من حاد بها عن طريق الهُدى والصّواب . ومال بها إلى المعصية . وترك طاعة الله فقد فشل وخاب .

فاذا أراد الإنسان أن يأتى عملاً من السّيّئات رقص له شيطانه طرباً . وأخذ يزيّن له حبّ الشّهوات وما يجنيه منها من اللذات . ولكن لايلبث حتى ينذره ملكه بثبور والثّبور وعظائم الأمور . من عقاب شديد فى الآخرة . وذلّ وانحطاط فى الدنيا . فيقف حائراً بين شيطانه وملكه .

فاذا كانت له إرادة قويّة ، وهداية ربانيّة غرسها فيه مبادئ الدين الصحيح ، لبّى نداء الخير ، وصدّ شيطان الشرّ ؛ وأما إذا كان ضعيف الإيمان ، رقيق الدين ، فلا يقوى على معاندة صوت الغواية ، بل ينقاد لداعي الشهوات ، فيقوده صاغراً إلى حُفَر الرّذيلة وأوحال الضّلالة ، حيث تتمرّغ روحه فى الأدران ، فتفقد طهارتها ، ويحيط بها ظلام الموت الأدبى .

لهذا ، كان رجال الفضيلة والتّقوى ، هم أبطال الرجال كما قال الشّاعر :

ليس من يقطع طرقاً بطلا　　إنما من يتّق الله البطل

هم أبطال الرجال ، لأنهم أعتقوا أنفسهم من رقّ الشهوات ، وسَمَوْا بها فى عالم الأرواح ، فوضعوها فوق هامة المجد ، لا المال يستعبدهم لأنهم طرحوه تحت أقدامهم ، ولا الشهوات تغريهم وتغويهم ، لأنهم زهدوا الدنيا ومتاعها (وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرورِ) زهدوا الحياة الدنيا لا عن عجز التمتّع بها ، بل عن إباء وشمم ، وعزّة نفس ، ينظرون بعين الاحتقار والازدراء إلى عبيد المال ، أو بعبارة أخرى : إلى عُبّاد المال وأرقّاء الشهوات ، فيضحكون من ضلالتهم وضعف عزيمتهم .

ظنّ بعض النّاس أن الفضيلة من غرس المدنيّة الحديثة ، وأنّ سياجها القانون الأرضى ، وسورها الخوف من النّاس ، ولكن قد خاب ظنهم ، وضلّ سعيهم ، فان المدنيّة قد عجزت عن إدراك الفضيلة ، والقانون أشهر إفلاسه ، وطأطأ رأسه ، أمام الدين ، والقانون السماوى (قانون ربّ العالمين) .

ماذا تُفيد المدنيّة الحديثة المبنيّة على المنفعة الذّاتيّة ؟ إنها لم تنبت لنا سوى الربا والزنا والخمر والميسر ، ولم تثمر سوى الرذيلة المستترة ، لأن من يخشى الناس ويخاف القانون يحتال فيرتكب فى الخفاء المعاصى ، فيسرق ويزنى ، ويحتال فيرتشى وراء الستار . والنّاس يعلمون أنه مجرم مذنب دنس منحطّ ، ولكن مع الأسف يمجّدونه لماله ، أو لمركزه ، أو لجاهه .

وأما الذين امتزجت نفوسهم بحُبّ الدين الصحيح ، الدين الذى يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فقد عرفهم النّاس من ثمار أفعالهم وفضائلهم ، أولئك ليسوا وجهاء ولا أغنياء ، بل هم كالذهب الإبريز صيغوا من الفضائل ، شعارهم الحياء ، ودثارهم الوفاء ، وطريقهم الاستقامة ، ترافعوا عن الدنايا فى السرّ كما نبذوها

فى الجهر ، قيّدوا شياطينهم بقيود المبادئ الدينية الصحيحة ، وأطلقوا العنان لملائكتهم فحملوها إلى معانى الشّرف الأسمى ، ونالوا العزّ والرضوان من الملك الديّان .

ضعيفٌ ومسكينٌ هذا القانون ، ما صدّ ظالماً ، ولا كبح جماح طامع سالب ، بل قد تفنّن الماكرون فى استعماله ، فجعلوه آلة للتّنكيل بالبُسَطاء وساب أموالهم وهتك أعراضهم .

وأما الدين ، الصحيح ،فهو صخرة النّجاة التى يبنى عليها صرح الفضيلة ، فترتفع بأصحابها إلى أعلى الدرجات فى الحياة وبعد الممات .

هذه كلمة صغيرة ، بل حكمة أوجّهها إلى الآباء ؛ فاذا أردتم صيانة أولادكم وحفظهم من عدوى الرّذيلة ، فانصبوا حولهم سورًا منيعاً من المبادئ الدينيّة الصحيحة علّموهم لئلا يغترّوا إذا رأوا الأشرار الفُجّار يتقدّمون ويرتفعون فى بعض الأحيان ، فانهم سيسقطون ، وسيكون سقوطهم عظيماً ؛ كما قال الشاعر :

ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع

يسقطون فتسقط معهم أمتهم ، وتذهب كرامتهم ، وتضيع ثروتهم بسبب هجرهم الدين ، ومخالفة ربّ العالمين .

أما الأمّة التى تتشبّع قلوبُ رجالها بحبّ الفضيلة والتّقوى ، فبشّرها بالفوز المبين وارتقائها إلى أعلى علّيّين .

علموا أن الذنب متبوع بالعقاب ، وأن العقاب وإن تأخّر فهو واقع لامحالة . وأن عقاب الكبير كبير ، وأن الجزاء من المُنتقم الجبّار يقع على الكبار والصغار ، فإما إلى الجنّة ، وإما إلى النّار ، وأن الفقير الشّريف خير من الغنىّ الدنىء . وأن المعاصى مُسقطة لأصحابها وإن ارتكبت فى الخفاء ، وأنّ الفقير المستقيم يجب عليه أن ينظر إلى الغنىّ المُعْوَجّ المغموس فى أوحال الرّذيلة بعين الازدراء والاحتقار ، ويحمد الله على ما أنعم به عليه من نعمة الشّرف والفَخار .

علّموا أولادكم أن فى الدين الغنى والثروة ، وفى التّقوى السّعادة ، وفى الفضيلة الحياة ، وألا شرف بلا دين ، ولا استقامة بلا تقوى ، ولا اعتبار لأحد بلا فضيلة . قال تعالى (إنّ أكرَمكم عندَ اللهِ أتقاكم) .

إذا علّمتموهم هذه المبادئَ فقد أعددتموهم للفوز فى معترك الحياة ، والنّصر

فى المعركة الكبرى التى قامت بين الفضيلة والرذيلة . منذ خلق الله الإنسان ، ووهبه التمييز بين الخير والشر . وفضله على سائر الحيوان بفضيلة العقل واللسان .

إذا قمتم بهذا الواجب نحو أنفسكم ونحو أولادكم ونحو وطنكم ونحو الإنسانية ، فأبشروا بحسن الأجر والثواب . وطوبى لكم وحسن مآب . والسلام عليكم ورحمة الله .

الدعوة إلى الدين

الدين هو القانون السماوى الذى أنزله الله على رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام لهداية الخلق إلى الحق وإسعادهم فى الدنيا والآخرة . بانقيادهم لأحكامه ، وخضوعهم لأوامره . فلا تختلف بهم الآراء . ولا تلعب بأفكارهم الأهواء (ولو كانَ مِنْ عِندِ غيرِ اللهِ لوَجدوا فيهِ اختِلافاً كثيراً) .

الدين ما أنزل إلا لتهذيب النفوس . وكبح جماحها عن الشهوات . وصدها عن ارتكاب المنكرات . وهدايتها إلى الطريق القويم . والخلق الكريم .

الدين أحكم دستور لحفظ النظام العام من الفوضى والاضطراب . ليعيش الناس فى أمان وسلام . فلا صلاح لهم إلا به ، ولا سلامة لهم من المخاطر إلا به ؛ إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها . وأشار إلى حسن نتيجتها ؛ وما من رذيلة إلا حذر منها وبين سوء عاقبتها .

الدين أكبر زاجر للضمائر . وأعظم مصلح للسرائر . رقيب فى الخلوات ، ونصيح فى الملمات بما حواه من النصائح والإرشادات .

الدين أعظم قانون لصلاح الحياة الاجتماعية واستقامتها . وأنفع وسيلة لانتظامها وسلامتها . بما أرشد إليه من الأحكام العادلة . والأوامر الكاملة .

فكان حقاً على كل مسلم أن يكون به متمسكاً . وبقواعده عاملاً ، وعليه محافظاً ، وإليه داعياً . فوالله لاسعادة للأمة الإسلامية إلا بالدين . ولا دواء لها إلا بالدين ، ولا قوة ولا حياة إلا بالدين .

وقد جاء فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

لقد تركت فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتابَ اللهِ ، وسنةَ رسولهِ » .

ومن المحقّق أن كل قانون أو نظام . لايكون له رجال يحمونه . ويدافعون عنه . ويمنعون عبث العابثين به . فلا يلبث أن تتعطّل أحكامه . وتنطمس آثاره . وتتبدّد معالمه ، وتتوارى محاسنه . ويهونَ مكانه على النّفوس . فيقلّ أخذ النّاس به . ويشتدّ انصرافهم عنه مهما كان كافلاً لمصالحهم . محققاً لسعادتهم . لأن النّفوس البشريّة كما هو معلوم نزّاعة إلى الهوى . ميّالة إلى حبّ الدنيا الفانية .

لهذا كان من الضّروري جدّا النشاط فى الدعوة إلى الدين من جانب حضرات العلماء ، وأن يكون من وراء هذه الدعوة قوّة تؤيّدها وتشُدُّ أزرَها من جنب حضرات الحكّام والأمراء والأغنياء .

فقد جاء فى الحديث الشريف « إن اللهَ ليَزَعُ بالسُّلطانِ ما لايَزَعِ بالقرآن » .

فواجب أوّلاً : على حضرات العلماء أن يؤدّوا الأمانة التى وضعها الله فى عنقهم . وأن يُشَمِّروا عن ساعد الجِدّ لهداية الناس . وإرشادهم إلى سنن الدين . وأن يبيِّنوا للخَلْق ما أنزل الله فى كتابه المُبين من الآيات البيّنات والحِكم الباهرات .

وواجب ثانياً : على حضرات الحكام والأمراء والأغنياء أن يعضّدوا حضرات العلماء بمالهم وقوّتهم وجاههم . وأن ينصروا الدين (إن تنصُرُوا اللهَ ينصُرْكم ويثبّتْ أقدامكم) وأن يضربوا على أيدى العابثين بأحكام الله وسنّة رسوله .

فالجميع مسئولون عن ذلك بين يدى أحكم الحاكمين (يوم ينظرُ المرءُ ما قدّمت يداه . يومَ لاينفعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم) .

وياحبّذا لو فكّرت مشيخة الأزهر الشريف فى تعيين حضرات العلماء الذين تخرّجوا من مدّة ولا عمل لهم الآن . وهم كما بلغنى كثيرون . ووزّعتهم على جميع الجهات . خصوصاً فى البلاد التى يكون فيها معاهدُ للمبشّرين . وتكون مرتّباتهم من الأموال الجارى جمعها من الجماعات التى قامت للدفاع عن الدين . أو بتخصيص لذلك مبلغ من ميزانيّة وزارة الأوقاف من الأبواب المخصّصة للخير والإحسان .

وذلك لنشر الدعوة الدينيّة . ومحاربة تلك الحملة المدبّرة ضدّ الإسلام والمسلمين والعمل على إحباط مساعى المبشّرين .

وهذا فى اعتقادى وفى اعتقاد كل مسلم غيورٍ على دينه محبّ لوطنه خيرٌ من إنشاء ملاجئ ، لأننا لانريد إيجاد تكايا للفقراء والعجزة والعاطلين . ويكفى مشروع حكومتنا

السنيّة القائمة به الآن من عمل ملاجئ ؛ إنما نريد تعليماً دينياً يُصلح أخلاق أبناء الأمة الضالّين ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويردّ الملحدين والمرتدين إلى حظيرة الدين القويم . والله الهادى إلى سواء السّبيل .

أثر الدين فى النفوس

يعيش الإنسان تارةً فى عزّ وهناء ، وطوراً فى ذلّ وعناء ، ثم ينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، فيفنى ويفنى معه كل شىء يتعلّق به إلا الدين .

قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ يُنْتَفَع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له » وكل هذه من فضائل الدين .

وقال لبيد الشاعر المشهور :

ألا كلّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ وكلّ نعيمٍ لامحالة زائلُ

وقال آخر :

كلّ شىءٍ مصيرُه للزّوالِ غيرَ ربى وصالِحِ الأعمالِ

قد يُنكَب الإنسان فى ماله ، ويُفجَع فى عياله ، ويُرزأ فى عافيته وصحته ، فيفوته عقب ذلك صديقه ، ورفيقه ، وصاحبه ، وحبيبه ، وقريبه ، ونسيبه ، ولا يبقى له شريك فى السّرّاء والضّرّاء ، وصديق فى الغنى والفقر ، ورفيق فى السّرور والحزن ، سوى الدين .

ينتقل الإنسان من بلد إلى بلد ، ويستبدل أرضاً بأرض ، وأهلاً بأهل ، فلا يناله من أبيه وأمه وإخوته حين يفارقهم إلا دمعة وداع ترسلها العين ، أو كلمةٌ ينطق بها الفم . ولا يناله من صديقه إلا كلمة تشجيع ، أو نظرة توديع ، أو دعاء له بالسّلامة فى الرّحيل والإقامة . حتى إذا مضى شعَر من نفسه بذلك الرّفيق الذى يُذهب وحشته ، ويؤْنِس وحدته . ويبثّ فى نفسه الصبر والجلَد والتّسلية والاحتمال .

هذا الرّفيق الأعلى هو الله الذى شرع له الدين (وهوَ معكم أينما كُنتم) يمرض الإنسان فتتمشّى العلّة فى جسده . ويذهب الوَهَن فى عظمه ، وحوله من الأهل والرجال والمال . ما لايدفع عنه بعض ما به من الآلام والأسقام ، فلا يجد وسيلة إلى النّجاه من المرض . ولا سبيلاً لاستبقاء الحياة إلا الدعاء لله ، فيقول : يا ربّ أسألك الشّفاء . وأعوذ بك مما أجد من البلاء ، ويردّد فى نفسه قول الله تعالى حكاية عن

سيدنا إبراهيم الخليل : (الّذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يُطعمنى ويسقين ، وإذا مرضتُ فهو يشفين ، والذى يُميتنى ثم يُحيين ، والذى أطمع أن يغفرَ لى خطيئتى يومَ الدين) .

وإذا شعر بدنوّ أجله ، وفقد فى الحياة كلّ أمله كانت التّوبة إلى الله أول ما يلوك لسانه ، والاستغفار أول مايجرى فى صدره ، وكان خير زاد يدّخره للآخرة ، ويعتمد عليه فى حال انتقاله ، تلك العقيدة المُستكنّة فى فؤاده ، وهى عقيدة الدّين ، عقيدة الإيمان بالله ورسله وكتبه ، تلك العقيدة هى التى تهوّن عليه سكرات الموت ، وتذهب عنه الخوف والهلع من العقاب ، هى التى يسلو بها حُبّ الدنيا ، ويميل بها إلى حُبّ الدّار الآخرة ، ويقول فى نفسه : (مرحباً مرحباً بلقاء ربى) .

تلك العقيدة الدينيّة ، هى التى تنزل معه حفرته ، وتبقى معه فى وحدته وعزلته ، بعد أن يسكن القبر ويوسَّد الصخر .

فلو علم الإنسان ما وراء هذه الحياة الفانية من نعيم مقيم ، أو عذابٍ أليم ، ما اتخذ له طريقاً سوى الطريق المُستقيم ، طريق الذين أنعم الله عليهم غير الضّالين المُلحدين .

قال تعالى (فأمّا مَن طغَى ، وآثرَ الحياةَ الدُّنيا ، فانّ الجحيمَ هيَ المأوَى ، وأمّا من خافَ مقامَ ربّهِ ونَهى النّفسَ عنِ الهوَى ، فان الجنّةَ هيَ المأوَى) .

ولئن سألت صاحب الدّين عن دينه لأجابك : إن عزّته لدينه قبل عزّته لنفسه وحياته .

وإن عرضت عليه أن يترك دينه أم يقتل؟ لأجابك بلا تردّدٍ : القتلُ أحبُّ إلىّ من الكُفر .

ولئن سألته : هل يختار لابنه الكفر مع الحياة والنعيم فى الدنيا ، أم الموت مع الفقر والإسلام ؟ لقال : أختار له الموت عن الخروج من الإيمان والإسلام .

فترى صاحب الدين الحقيقى المتمسّك به يفرّط فى ماله وولده وعافيته ولذائذ دنياه ، وكلّ ما يكون أحبَّ إليه فى الحياة ، قبل أن يفرّط فى دينه الذى يدّخره لرضاء ربّه ، ويحتفظ به ليجد السّعادة التى لاتخطر على قلب بشر .

كذلك الأمّة التى تكون متمسّكة بدينها ، ترى أنه وسيلتها فى السّعادة . ولا ترى عليها حرجاً فى أن تلقّنه وتنشره فى النّاس وتدعوَ إليه بكلّ الوسائل المشروعة ، حتى تخالط بشاشته القلوب .

فهل لهؤلاء الملحدين الخارجين على الدين باسم المدنية ، أن يعتبروا ويتيقظوا ، ويعلموا أن خروج روحهم من أجسادهم خيرٌ لهم وأشرف من هذا الخروج الفاجر ، والكفر الظاهر .

وهل لهؤلاء المبشرين أن يخسئوا ويرجعوا عن دعوتهم الباطلة الكاذبة ، ويعلموا أنّ ما ينفقون فى سبيلها خسران ووبال عليهم ، وستعود عليهم بالحسرة والنّدامة كما وعدهم الله بذلك فى قوله (إنَّ الَّذينَ كفَرُوا يُنْفِقونَ أموالَهُم ليَصُدُّوا عنْ سَبِيلِ اللهِ فسينْفِقونها ثم تكونُ عليهِم حَسْرَةً ثم يُغْلَبونَ) .

وفى الختام أدعو الله أن يوفق المسلمين للتمسُّك بدينهم الحنيف . وأن ينصر هذا الدين . ويُحبط أعمال المبشرين إنه السَّميع المجيب .

لاسعادة إلا بالدين

قرأت كلمة عن بسمارك والدين فى تاريخ المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أذكر خلاصتها ، ففيها عبرة وعظة لأولى الألباب . ودليل على أنه لاسعادة للإنسان إلا بالدين . ولا سعادة للأوطان إلا بالإيمان . قال :

إننى لاأفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكنهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه . إذا لم يكن لهم إيمان جاء به وحى سماوى واعتقاد فى إله يحبّ الخير . وحاكمٌ ينتهى الفصل إليه فى الأعمال فى حياةٍ بعد هذه الحياة ؟ . (فى هذا دليل على أن الرجل يؤمن بالله واليوم الآخر) .

ثم قال : لو نقضت عقيدتى بدينى لم أخدم بعد ذلك سلطانى ساعةً من الزّمان ، وإذا لم أضع ثقتى فى الله لم أضعها فى سيّدٍ من أهل الأرض قاطبةً . لكن انظروا إلىّ تجدونى قد ملكتُ من موارد الرزق ما يكفينى . وارتقيت فى المناصب ما لامطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولِمَ أُجْهِدُ نفسى فى العمل ؟ ولِمَ أعرّضها إلى الهموم والآلام ؟ إنه لايبعثنى على شىء من هذا . إلا شعورى بأننى فى جميع ذلك أعمل عملى لوجه الله تعالى ، لو لم يكن بى إيمان بالعناية الإلهية التى قضت بأن يكون لهذه الأمّة الألمانيّة شأنٌ كبيرٌ وأثر فى الخير عظيم . لطرحت لساعتى ما أحمل من أثقال أعمال الحكومة ؛ ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف . لأن المرتّب والأتعاب لابهاء لها ولا عبرة بها فى نظرى . ولولا يقينى بحياة بعد الموت لما خدمت وطنى ، اسلبونى هذا

الإيمان تسلبونى محبّتى لوطنى . وهذا يؤيد القول المأثور : (حبُّ الوطن من الإيمان).

اعلموا أننى لو لم أكن مخلصًا لدينى لولّيت ظهرى جميع الحاشية . ولو وجدتم لى فى الغد خلَفاً يكون أخلص منى فى يقينه لتركت منصبى فى الحال . ما أعظم مسرّتى بهجر الوظائف لو تعلمون . إنى أحبُّ المعيشة فى القرى وبسائط الخليقة .

هذا كلام بسمارك السياسى الألمانى الداهية الشهير . وهو يدلُّنا على أن هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه وتمسُّكه بالدين . وأن الاعتقاد بالله وباليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى مراتب السِّيادة وأوج السَّعادة فى دولته وأمّته .

وحقاً إن من تمسَّك بالدين نال السَّعادة فى الدارين ، وفاز برضا ربّ العالمين .

وقد قال المرحوم الشيخ زكىّ الدين سند رئيس جمعيّة مكارم الأخلاق ومؤسّسها فى هذا المعنى :

لانلت مانلتُ من عزّ ومن كرم إن لم أوَفّ لشرع الله بالذمم

وإن أنا لم أكن بالدّين معتصماً فلا ترقّت إلى هام العلا هممى

نسأل الله أن يوفّقنا للتمسُّك بالدين . واتّباع سنّة سيد المرسلين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة الحادية عشرة :

كيف نربي أبناءنا

بمناسبة افتتاح المدارس ، قد رأيت أن أذكر كلمة فى كيفيّة تربية الأبناء ليكون فيها عبرةٌ وذكرى للآباء ، يكفى النّاقد البصير أن يُعير الوجود لفتة ليرى احتياج الإنسان إلى التربية ، فانما يولد صغيراً مجرّداً من كلّ مميزات الرّجال ؛ فكما أن البدن فى الابتداء لا يُخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنّشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النّفس تُخلق ساذَجة قابلة للكمال ، ولذا صار من الوجوب العينى العناية بتربية الأبناء وتهذيب أخلاقهم ، وتغذيتهم بالعلم ، وتدريبهم على عملٍ يقومون به فى حياتهم ، ويقوّمون به أوَد عيشهم ، ولكنه لايجب أن يوكل أمر تربية الأبناء إلى أنفسهم ، أو يُترك لاختيارهم ما يرَوْنه وسيلة لعيشهم ، فان ذلك يستدعى خبرةً وممارسةً لايستطيعون اكتسابها فى وجيز عمرهم ، إلا أن للتربية والتعليم أصولاً يجب معرفتها . ولا بيان لهذا الباب أجملُ فى الأعين وأقربُ للفهم مما جاء فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى رحمه الله أذكر ملخصه هنا :

إن الصبىّ أمانةٌ عند والديه ، وقلبه الطّاهر جوهرةٌ نفيسةٌ خاليةٌ عن كلّ نقشٍ وصورةٍ ، وهو قابلٌ لكلّ نقشٍ ، مائل إلى كل ما يوجه إليه ، فان عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ نشأ عليه ، وسعد حاله فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه ، وكل معلّم له ومؤدّب ؛ وإن عُوِّدَ الشّرَّ وأُهْمِلَ إهمالَ البهائم شَقِىَ وهَلَكَ ، وكان الوِزْر فى رقبة القيِّم عليه والمُتولى أمرَه . فالواجب إذن على الوالد صيانة ولده وتربيته التربية الحسنة ، بأن يؤدّبه ويهذّبه ويعلّمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السّوء ، ولا يعوّده التّنعّم ، ولا يُحبّب إليه الزينة وأسباب الرّفاهية ، فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر ؛ ويهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متديّنة ، تأكل الحلال ، لأن اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه . وإذا وقع عليه نشوء الصبىّ انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث . وينبغى للوالد دقّة ملاحظة نظافة ولده ، وألا يتركه مع خادم

يقتبس منه سيئ الخُلُق وفساد التربية ، ومتى رأى فيه مخايل التمييز أحسن مراقبته ، وأول ظهور ذلك مبادئ الحياء ، فانّ الولد إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، وهذه عطيّة الله تعالى إليه ، وبشارة تدلُّ على اعتدال الأخلاق ، وصفاء القلب ، وكمال العقل عند البلوغ ؛ ولكن الصبيّ المُستحى لاينبغى أن يُهمَل ، بل يُستَعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وأول ما يَغلِب على الصبيّ من الصّفات شَرَهُ الطّعام ، فينبغى أن يُعلّم آداب الأكل ، مثل ألا يأخذ الطّعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه (باسم الله) وأن يُقبّح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبّه له كلّ من يُكثِر الأكل بالبهائم ، وأن يُحبّب إليه القناعةُ فى الطّعام ، وألا يؤثِر طعاماً على آخرَ . ويجب أن يُحفَظَ الصبىّ عن الصّبيان الذين عُوِّدوا التّنعُّمَ والرّفاهية ولبس الثّياب الفاخرة ، وعن مخالفة كل ما يرغّبه فيها ، فانّ الصبىّ متى أُهمِل فى ابتداء نشوه يخرجُ فى الغالب ردىء الأخلاق كذّاباً حسوداً سرّاقاً نمّاماً لحوحاً ، ذا فضول وضحك . ويُحفظُ من جميع ذلك بحُسن التأديب ، وذلك بتعويده من الصغر على ترك الكِبْر والإعجاب ومحبّة النّفس ، وتكليفه باستعمال الرفق واللين والتلطُّف مع الغير ، وكذا يلزم أن يثبّت فى عقل الصبىّ العقائدُ الدينيّة التى تأمُر بالمعروف ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتبيّنُ له مزايا الفضيلة ليُحبها ، ويتمسّكَ بها ؛ ويقبّحَ عنده الرّذيلة ليفرّ منها ، ويبعد عنها . هذا ، ومتى ظهر من الصبىّ خُلُقٌ جميلٌ ، وفعلٌ محمودٌ ، فينبغى أن يُكرَمَ عليه ، ويُجازى بما يفرح به ، ويُمدَح بين النّاس ، فان خالف ذلك فى بعض الأحوال مرّة واحدة يتغافَل عنه ، ولا يُهتَك ستره ، ولا يكاشفه الأمر لاسيما إذا ستره الصبىّ من نفسه ، واجتهد فى إخفائه ؛ فان أظهر ذلك عليه ربما يفيد جسارةً حتى لايبالى بالمكاشفة ، فان عاد يُعاقبُ سرّاً ، ويعظّم الأمر له ؛ ولا يكثر عليه العتاب فى كل حين ، فيهون عليه سماع الملامة ، وارتكاب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه ؛ وليكن الأب حافظاً هيئة الكلام مع ولده ، فلا يشتمه لئلا يعوّده عليها . ولا يوبخه إلا أحياناً ؛ والأمّ تخوّفه بالأب ، وتزجره عن فعل القبائح . وينبغى أن يُمنع عن كل ما يفعله فى خفية ، فانه لايخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح . ويعوّد فى بحر النهار المشى والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل ، ولتقوى عضلاته . وينبغى أن يُمنع عن أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه وأدواته ،

بل يعوّد التّواضع والإكرام لكل من عاشروه . والتّلطّف فى الكلام معهم ؛ ويجب أن يُمنعَ عن أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حَسَناً بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لافى الأخذ . وأن الأخذ دناءةٌ وخسّةٌ .

وبالجملة يقبّح إلى الصّبيان حبّ الذهب والفضة . ويُحذّرون منهما أكثر مما يحذّر من الحيّة والعقرب . فان آفة حبّ الذهب والفضة والطمع فيهما ، أضرّ من آفة السّموم على الصبيان . بل على الكبار أيضا ، ويجب أن يُعوّد الأمانة والصدق . ويُحرّم عليه الكذب . ويُمنع من الحلف رأساً ، صدقاً كان أم كذباً ، ويُعلّم آداب المحادثة فيُمنع من لغو الكلام وفُحشه ، وينبغى أن يتحمّل عقاب معلّمه لأنه أولى النّاس بمحبة نفعه .

وينبغى أن يؤذن للصبىّ باللّعب لعباً جميلاً بعد انتهاء الشّغل ليستريح من عناء الدّرس بحيث لايتعب فيه . لأن منع الصبىّ عن اللّعب وإرهاقه فى التعلم دائماً كالشحّ عليه بالدراهم ، ويُميت قلبه . ويُبطلُ ذكاءَه . ويُنغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً .

ومتى بلغ الصبىّ سنّ التمييز لايُسامحُ فى ترك أمور الدين ، وتعلّم آدابه وفضائله ، فان من لايتمسّك بدينه ولا يحرص عليه لايُرْجى منه خير .

فاذا يفع نَشءُ الصبىّ كذلك . وقارب سنّ البلوغ . أمكنه أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية ، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله والعمل . وأن الدين وخدمة الوطن ونفع النّاس أمور واجبة ليستمرّ عليها فى أدوار حياته . وهى الكفيلة له بالنّجاح والسّعادة فى الدنيا والآخرة .

هذه هى الآداب الصحيحة . والدروس الأساسية للتربية الحقيقية التى يجب تلقينها للصبىّ فانها الوسيلة المثلى فى جعله إنساناً كاملاً . وبغيرها يتعذّر تهذيبه ، وتكون كلّ التّعاليم التى تأتى إليه خيالية لاتؤثّر على وجدانه بشىء ما .

ولما كانت التربية لاتصلح إلا إذا كان القائم بها مرشداً كان أو مربياً ، متخلّقاً بالأخلاق الحسنة . والطّبائع المألوفة التى يُراد بها تعويد الصبيان عليها ، حتى يكونوا خير قدوةٍ لهم فى قولهم وعملهم ، وجب على القائمين بتربية الأبناء حسن الاعتناء بتأديبهم . والحرص على تعويدهم على الكمالات النفسانية ، وعدم مسامحة أنفسهم ، ومغالطة ضمائرهم بإهمال أمرهم . فانما هم المسئولون عن هذه النّفوس الصّغيرة أبناء

العصر ، ورجال المُستقبل ، حقَّق الله فيهم الأمل . وهدانا جميعاً إلى نشر الفضيلة وصالح العمل .

كيف نربي بناتنا

إن تربية البنت مما يُساعد على زيادة تحسين حالها ، وحال بيتها . وتوسيع نطاق معارفها فيما يتعلَّق بواجباتها المنزليَّة حتى تصير كمعلِّمة لأولادها وخدمها من غير إخراجها عن وظيفتها حيث إنها ستصير أما ، والأم هى الحجر الأساسى للأسرة . كما قال المرحوم حافظ إبراهيم :

الأمّ مدرسة إذا أعــددتها أعددتَ شعباً طيِّب الأعراق

الأمّ أســتاذ الأساتذة الأُلى شغلت مآثرهم مدى الآفاق

أنا لاأقول دعوا النِّساء سوافرًا بين الرجال يَجُلْن فى الأسواق

فى دورهنّ شئونهنّ كثيرةٌ كشئون ربّ السَّيف والمزراق

ولم يمنع الدين الإسلامى مطلقاً من تعليمهنّ لقوله صلى الله عليه وسلم « طلبُ العلمِ فريضَةٌ على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ » .

فالتعليم الذى لابأس فى تعليمه للبنات : هو القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الكريم وقواعد الدين وآدابه لتعرف البنت ما يجب عليها . وما يجب لها من الحقوق والواجبات كما قال حافظ رحمه الله :

ربُّوا البنات على الفضيلة إنها فى الموقفين لهنّ خــير وثاق

وعليكمو أن تســتبين بناتُكمْ نور الهُــدى وعلى الحياء الباقى

وكذا تعليمهنّ مبادئ الحساب والهندسة والجغرافية . خصوصًا جغرافية مصر وبلاد العرب . ومختصر تاريخ الإسلام . ولا سيا تاريخ النِّساء المُسلمات الشّهيرات . ليكون فى ذكرهنّ أكبر عظة لهنّ . وأحسنُ قدوةٍ لهنّ . وتاريخ بلادهنّ . فانّ هذا مما يزيدهنّ أدباً وعقلاً ومعرفةً . تجعلهنّ صالحاتٍ لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيَعْظُمْن فى قلوبهم . ويعظُم مقامهنّ لديهم .

ويجب أن تكون البنت عالمة بخدمة المنزل . وتدبير شئونه . فيلزم أن تتعلَّم فنّ تدبير المنزل ، ومبادئ القوانين الصحيَّة ، والإسعافات المرَضيَّة . وما يلزم من الخياطة والتَّطريز والطَّبخ الخ : أى كل ما يحتاجه المنزل .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم (لأمّ سلمة) «إذا أدّت المرأة فريضة ربها ، وأطاعت بعلها ، وحركت المِغزل كانت كأنها تُسبّح الله ، وما دام المغزل فى يدها كانت كأنها تُصلى جماعةً ، وإذا طبخت القدر لأجل أطفالها تساقطت ذُنوبها » .

هذا ما يمكن تعليمه لبناتنا ، وأظنّ فيه الكفاية لحسن تربيتهن ، وفيه الكفاية لجعلها أمًّا صالحة مهذّبة مربيّة .

أما التّوسُّع فى المعلومات ، فهذا لايفيدها شيئاً ، وخروج بها عن وظيفتها . وسبق أن تكلّمنا عن وظيفة المرأة فلا داعى لتكراره ، وقد ظهر للأمة فساد تربية البنات من التّطرُّف فى تعليمهن .

فلو أخذنا بنتاً وعلّمناها القراءة والكتابة ، وحفظت يسيراً من القرآن الكريم والعقائد والآداب الدينيّة والعبادات ، وطرفاً من قانون الصّحّة والتاريخ الإسلامى وتاريخ مصر ، وكيفية تدبير البيت ، وتربية الأولاد ، والأشغال اليدويّة ، ثُمّ تصرُّفاتها فى بيتها كان منزلها هو المدرسة الثانوية لهذا التّعليم الابتدائى تُجرى فيه تطبيقَ ما تعلّمته ، لأن وظيفتها تقتضى جميع هذه المعلومات كما لاينكره أحد ، وبذلك لاتنسى ما تعلّمته ولا تتغير أخلاقها .

وما الفائدة من تعليمها علوماً عالية ما دامت لاحاجة لها بها فى منزلها . فاذا ربّينا البنت على هذه المبادئ ، وحلّيناها بالكمالات ومكارم الأخلاق ، ومنعناها من الخروج الفاحش ، والابتذال فى الطّرقات ، وقوّينا فيها فضيلة الحياء والعفّة ، أمكنها أن تنفع نفسها وأهلها ووطنها ، وقامت بوظيفتها التى خُلقت من أجلها (وهى الأمومة) أحسن قيام .

والله الموفّق لما فيه صلاحهنّ .

المحاضرة الثانية عشرة :

الواجب

الواجب كلمة صغيرة تنطوى تحتها معان كبيرة . وفضائلُ كثيرة .

الواجب : ما لزم القيام به ، وتحتّم أداؤه على كل فرد من أفراد المجتمع الإنسانى وبعبارة أخرى ، هو الحقّ الذى على كلّ إنسان أن يقوم به لغيره ولنفسه ولوطنه . وإن شئت فقل : الواجب دَيْنٌ على كل شخص أن يقوم بسداده لإخوانه وأمّته . وذلك بالسّعى فى معترك الحياة بما ينفعه وينفع النّاس ، ولا يضرّ غيره .

الواجب ملازم للإنسان فى جميع أدوار حياته ، فتبتدئ واجبات الإنسان فى يوم ولادته . وتنتهى بموته . لأنه مخلوقٌ له حقوقٌ وعليه واجبات ، خُلق لقضائها والحصول عليها .

فى المنزل : واجب الآباء للأبناء ، وواجب الأبناء للآباء ، وواجب الزوج لزوجته . وواجب الزوجة لزوجها . وواجب الخادم لسيده ، وواجب السيد لخادمه . وواجب الأخ نحو إخوته ، وواجبهم نحو أقاربهم وجيرانهم .

وفى خارج البيت : واجبات الأصحاب والإخوان والأصدقاء . وواجب الرئيس نحو المرءوس ، وواجب المرءوس نحو رئيسه . وواجب الحاكم والمحكوم ، وغيرهم فى رجال السُّلطة والإدارة .

الواجب ملازم لنا من يوم دخولنا هذا العالم إلى يوم خروجنا منه : فواجب علينا لخالقنا ، وواجب علينا لأنفسنا . وواجب علينا لغيرنا . وواجب علينا لأمثالنا . وواجب علينا لمن فوقنا . وواجب علينا لمن دوننا ، بل ولأعدائنا . وواجب علينا نحو الوطن ، ونحو الحيوان الأعجم .

وأينما وجد العمل وجد معه الواجب ، وما نحن فى هذه الحياة الدنيا إلا خدمٌ نعمل لمصلحتنا ومصلحة النّاس ، كما قال الشّاعر :

النّاسُ للنّاسِ من بدوٍ ومن حضرٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدَمُ

والواجب كما عرّفه بعض علماء الأخلاق : هو العمل الأخلاقى الذى يبعث على الإتيان به الوجدان .

والواجب دعامة الأخلاق الفاضلة ، وهو الذى يشُدُّ عضُد الإنسان فى أكبر مواقفه . فان جهل المرءُ واجبه ، وعجز عن القيام به ، اضطربت حياته ، وساءت معيشته مهما كان قويًّا .

أما إذا عرف المرء واجبه وقام بأدائه انقلب ضعفه قوّة ، وجبنه شجاعةً ، مهما كان ضعيفاً جباناً .

الواجب هو الذى يحفظ النِّظام العامّ ويجعله قويًّا متيناً ، فاذا لم يقُم كل إنسان بواجبه اختلّ النِّظام ، وساء الحال . أما إذا قام كل امرئٍ بواجبه ، ساد النظام ، وعمّ الأمن والسَّلام .

فلو عرف المسلم الواجب ما زنى ، فكان مُتجاوزًا حدًّا من حدود الله ، هاتكاً عِرض ابنة أخيه فى الحياة ، فاتحاً لها باب الانقياد لسواه . لو عرف المسلم الواجب ما شرب خمرًا تشرّب عقله ، وتقبح فعله وتأكل ماله . لو عرف المسلم الواجب ما تناول عرض أخيه بلسانه ، ولما سعى بالغيبة والنميمة ضدّه . لو عرف المسلم الواجب ما كان هو والأمّة إلا روحاً واحدةً فى أجسامٍ متعدّدة .

وإليك أضرب مثلاً لذلك :

قد أصاب النّاسَ قحطٌ فى خلافة الصديق رضى الله عنه ، فلما اشتدّ الأمر قالوا : يا خليفة رسول الله ، إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقّع النّاس الهلاك ؛ قال : اصبروا فانى أرجو الله ألا تُمسوا حتى يُفرج الله عنكم هذا الكرب العظيم .

فلما كان آخر النهار جاء الخبر بأن عيراً (لعثمان بن عفان) جاءت من الشام وتُصبح فى المدينة . فلما جاءت خرج النّاس يتلقّونها ، فاذا هى ألف بعيرٍ حاملةً بُرًّا وزيتاً وزبيباً . فأناخت بباب عثمان ، فجاء التجّار ، فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : إنك لتعلم ما نريد . قال : كم تربحوننى ؟ قالوا : الدرهم بدرهمين ؛ قال : أُعطيت زيادة على هذا ، قالوا : أربعة . قال : أُعطيت زيادة ، قالوا : خمسة ، قال : أُعطيت أكثر . قالوا : يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجّار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن الذى أعطاك ؟ فقال : إن الله أعطانى بكل حسنة عشرًا ، فأنا أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على الفقراء والمساكين فى عامّة المُسلمين .

ذلك هو الواجب الذى قام به (ذو النورين عثمانُ بنُ عفانَ رضى الله عنه) .

وقد أشار إليه علم الهدى ،ومهبط الوحى،سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله « المؤمنون كرجل واحد . إن اشتكى عضو اشتكى كله . وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله » . وفى قوله « المؤمنُ مرآة المؤمنِ . والمؤمنُ أخو المؤمن . يكفّ عن ضيعته ، ويحوطه من ورائه » .

ذلك هو الواجب الذى لأجله يتألم المصرى لمجاعة العربى . ولأجله يحزن الهندى لمعاكسة الصينى والتركى . لأجله يحمى المسلم الصادق وهو فى الشرق أخاه من العدوّ المنافق. وهو فى الغاب . لأجله أتقن الصانع صناعته ، وأحسن الزارع زراعته . وأثمر التاجر تجارته . ودبّر الأمير إمارته . لأجله على الجملة جاءت الشّريعة الإسلاميّة الغرّاء بهذا القانون الدستورى بأن كل إنسان راع . وكل راعٍ مسئول عن رعيّته .

أداء الواجب

على كل إنسان أن يؤدّى واجبه . لأن الإنسان فى هذه الحياة لايعيش لنفسه فقط . بل يعيش لنفسه وللناس . وإن الإنسان الذى لاينظر إلا لنفسه . ولا يعمل إلا لخيره . ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة فيقال عنه : رجلٌ (أنانى) محبّ لنفسه . والأنانية هى أحطّ درجات الإنسانية . والمتّصف بها يكون محتقرًا مرذولاً . أما المرء الذى ينظر إلى من يُحيط به من قرابته وعشيرته . ويعمل الخير لهم . يكون إنساناً كاملاً محبوباً من الجميع . والإنسانية لاترتقى إلا إذا كان المرء فيها ناظرًا إلى عمل الخير لأمته وبلاده . ثم ترتقى إلى درجة الكمال . وهى درجة العاملين لخير الإنسانيّة كلها فى جميع الأجناس والشّعوب والأديان .

فالفرد الواحد مرتبط بالجماعة المنضّمة التى يعيش فيها بروابط تبذل المنافع المادية والمعنوية . والتمتّع بالحريّة والمساواة . وتوفّر أسباب الأمن والطّمأنينة على النّفس والعرض والمال .

فهنالك تضامن بين أفراد الجماعة . فمتى كان الفرد متمتّعاً بحقوقه . فرضت عليه واجبات يؤديها إزاء تمتّعه بهذه الحقوق . إذ كما يستفيد الإنسان يجب أن يفيد .

إن الأفراد فى الجماعات أشبه شيءٍ بأعضاء الشّركة . لايملك العضو حقوقاً فقط . بل هو ملزم إزاء هذه الحقوق بواجبات تفرضها عليه ضرورة التّعاون والتآزر .

فلا سبيل لأن ينال الفرد أو الأفراد حقوقهم ما لم يقوموا بواجباتهم . ولا يستطيع الفرد أن يستقلّ بحقوقه ، بل هو ملزم أن يُضحّى شيئاً من تلك الحقوق بقيامه بالواجبات المفروضة عليه نظير الفوائد الجمّة التى يجنيها من الحياة الاجتماعيّة .

فحياة الأفراد الاجتماعيّة تبقى وتدوم بأن يتبادلوا فيما بينهم الحقوق والواجبات .

فاذن الواجب دليل الحياة وقوامها وعمادها . فمن لايقوم بواجبه فلا حياة له ولا قيمة له فى الوجود .

والدليل على ذلك أن من نظر إلى أعضائه ووظائفها ، رأى أن الراحة كلّ الراحة فى إتمام واجباتها بغاية الدقّة . وعلمَ أن المرضَ والآفاتِ والأوجاعَ إنما هى دليل على تقصير تلك الأعضاء عن القيام بوظائفها ، وأدرك أن القيام بالواجب من مقتضيات الطّبيعة . وأن راحة الإنسان متوقّفة على قيامه بأداء الواجب .

وإذا رجع الإنسان إلى نفسه . وبحث مليّاً فى الأسباب التى دعت إلى تأخيره ، وكدّرت عليه صفاء عيشه . ودرس أسبابها ودقّق فيها ، وجد أنها ناجمة من تقصيره فى أداء الواجب .

فالأغنياء الذين يؤدّون ما عليهم من التبرعات للجمعيات الخيرية وبناء المستشفيات وغيرها من المنافع العمومية . يزيدون فى راحة النّاس وسعادتهم ، ويكتسبون الفضل الجليل . والذكر الجميل .

والعمّال الذين يعملون لخير البلاد ولأنفسهم يَسعدون ويُسعدون أمتهم .

وبالعكس . العمّال الذين يُهملون فى أداء الواجب عليهم ، وعدم إطاعتهم لقوانين البلاد يزيدون فى شقاء العالم وتعاسته .

ولا يبقى العالم ولا يرقى إلا بأداء الواجب . فلو أن مجتمعاً قصّر فى أداء كل واجباته أياماً لفنى وتلاشى .

والتلميذ الذى يؤدى واجبه لمدرسته وأسرته يُسعد والديه ويَسرّهما (والسّعيد من سعدت به الناس) . ولو رفض طلبة المدارس أن يتعلّموا وأضربوا عن الدرس مثلاً . ولم يودّ أفراد الأسرة واجبهم . ورفض كل ذى عمل أن يؤدىَ عمله ، لحاق بالمجتمع الإنسانى الفناء العاجل . والخراب الشامل .

ولو أهملت الأمّة القيام بالواجب . لأصبحت حركة نموّها سكوناً ، ثم أضحت بقيّة حياتها وعزّها ذِلّة وهواناً . ثم باتت وهى طعمة لكلّ مستعمرٍ جبارٍ عنيدٍ .

(إنَّ فى ذلكَ لذِكرَى لمنْ كانَ لهُ قلبٌ أو ألْقَى السَّمعَ وهُوَ شَهيدٌ) .

والخلاصة : أنه لو عرف كل إنسان الواجب عليه لأتقن الصانع صناعته ، وأحسن الزارع زراعته ، وأثمر التاجر تجارته ، ودبَّر الأمير إمارته ؛ ولأجل هذا جاءت الشَّريعة بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « كلُّكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رَعيَّته . والرّجلُ راعٍ فى أهلهِ ومسئولٌ عن رعيَّته ، والمرأة راعيةٌ فى بيتِ زوجها ومسئولةٌ عن رعيَّتها ، والخادمُ راعٍ فى مالِ سيِّدهِ ومسئولٌ عن رعيَّتهِ ، والرّجلُ راعٍ فى مالِ أبيه ، وهو مسئولٌ عن رعيَّتهِ ، ألا كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتهِ » .

فهذا الحديث الشَّريف دِعامةٌ كبيرةٌ فى القيام بالواجبات والحقوق ، والإحسان فى الأعمال ، والرعاية لما تحت اليد ، وإنه ليقرّر مسئوليَّة كلّ فردٍ فيما وُكِلَ إليه من نفوسٍ وأموالٍ ومصالحَ وأعمال .

وفَّقنا الله جميعاً لمعرفة الواجب ، وأداء الواجب ، لنعيش عيشةً راضيةً ، ونُفارق هذه الحياة الفانية ، ونحن على أسعد حال ، وخير مآل .

المحاضرة الثالثة عشرة :

العفاف وأقسامه

العفاف :

العفّة أو العفاف أو النزاهة لغةً : الكفّ والامتناع عما لايحلّ ولا يجمل . والمتصف بها من الرجال يسمّى عفيفاً ونزيهاً ، ومن النّساء عفيفةً ونزيهةً .

وفى العرف : العفّة : ضبط النّفس عن الملاذّ الحيوانيّة ، وقمع الأهواءَ المختلّة التى تُثير الشّهوات البدنية . وقصر النّفس على الاكتفاء بما يُقيم أود الجسم ويحفظ صحّته . واجتناب الإسراف والتّقتير ، ومراعاة الاعتدال فى جميع الأحوال ، فهى وسط بين الإفراط (وهو الشّره) ، والتّفريط وهو (جمود الشّهوة) .

وهى أسمى الفضائل وأشرف صفة للإنسان ، إذ بها يمنع نفسه عن ارتكاب الأمور الخسيسة والأحوال الدنيئة ، التى تنقُصُ قدره . وتحطّ من شرفه . وتجعله عند النّاس محتقرًا ذليلاً مُهاناً .

رأس العفّة يتعلّق بضبط القلب من الشّهوات البدنيّة المُتعلّقة بالبطن والفرج ، ومن اعتقاد ما يكون سبباً جالباً للبغى والعُدوان ، وتمامها يتعلّق بحفظ الجوارح .

فمَن حُرِمَ عفّةَ القلب والعقل يكن منه التمنى وسوء الظنّ اللذان هما أسُّ كلّ رذيلة ، لأن من تمنى ما فى يد غيره حسده . فاذا حسده عاداه ، وإذا عاداه نازعه ، وإذا نازعه فربما قتله .

ومن أساء الظّنّ عادى وبغى وتعدّى . ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما فقال (ولا تتَمَنَّوْا ما فَضّل اللهُ به ِ بعضَكم على بعض ٍ) « سورة النساء » .

وقال تعالى (يا أيها الّذينَ آمنُوا اجْتَنِبوا كثيرًا منَ الظّنّ إنّ بعضَ الظّنّ إثمٌ) « سورة الحجرات » .

فأمر فيهما بقلع إحدى شجرتين يتفرّع منهما معظم الرّذائل .

أقسام العفة

ولا يكون الإنسان تامّ العفّة حتى يكون عفيف اليد . واللسان . والسّمع . والبصر ، والفرج .

١ — فعفّة اليد تكون بالامتناع عن أخذ أموال النّاس بالباطل وسلبهم حقوقهم . وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله (ولا تأكلُوا أموالَكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكّام لتأكلُوا فريقاً من أموالِ النّاس بالإثم وأنتمْ تعلَمونَ) سورة البقرة .

وتكون أيضا بالامتناع عن أخذ أموال اليتامى وأكلها ظلماً وعدواناً لقوله تعالى : (وآتُوا اليَتامى أموالهُم ولا تَتَبدّلوا الخبيثَ بالطّيِّب . ولا تأكلُوا أموالَهُمْ إلى أموالِكم إنهُ كانَ حُوباً « ظلماً » كبيرًا) «سورة النساء» .

٢ — وعفّة اللسان تكون بترك الكذب والغيبة والنميمة وفُحش القول والسُّخرية والازدراء والهمز واللمز والتّنابُز بالألقاب .

٣ — وعفّة السّمع تكون بعدم الإصغاء لسماع القبائح والأقوال المُزرية . والمحافظة على الأسرار وكتمانها لقوله تعالى (وإذا سمِعوا اللّغْوَ أعرَضُوا عنهْ وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم) سورة القصص .

وقال تعالى (قد أفلحَ المُؤمِنونَ . الّذينَ همْ في صَلاتِهم خاشِعونَ . والّذينَ هُم عن اللّغْوِ مُعْرِضونَ . والّذينَ هُم للزّكاةِ فاعلُونَ . والّذينَ هُم لِفرُوجِهم حافِظون) « سورة المؤمنون » .

٤ — وعفّة البصر تكون بغضّ النّظر عن المحارم . وزينة الحياة الدنيا المولِّدة للشّهوات الرّديئة . قال تعالى (ولا تَمُدّنّ عينيْكَ إلى ما متّعْنا بهِ أزواجاً منهمْ زهرةَ الحياةِ الدُّنيا) « سورة طه » .

٥ — وعفّة اللّمس تكون بحفظ الفرج وصيانة العرض لقوله تعالى (قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارِهم ويَحفَظوا فرُوجَهم ذلكَ أزكى لهُم إنّ اللهَ خبيرٌ بما يَصْنَعونَ . وقُلْ للمؤمِناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهنّ ويَحفَظْنَ فُرُوجَهنّ) « سورة النور » .

وهذه العفّة هى أهمّ الأنواع الخمسة ، وهى المقصودة بالذات من موضوعنا هذا .
وعماد عفّة الجوارح ، ألا يكلّفها صاحبها شيئاً مما يخُصّ كل واحدٍ منها إلا فيما يسوّغه العقل والشّرع دون الشّهوة والهَوَى ، لقوله تعالى (وأما من خافَ مقامَ ربّهِ ونَهى النّفسَ عن الهَوَى فانّ الجنّةَ هىَ المأوَى) « سورة النازعات » .
فمن أراد أن يكون عفيف النّفس نزيهاً فلا يطلبْ من أحد شيئاً ، ولا يأخذْه منه بغير إرادته ، أو بدون وجه حقّ ؛ وإذا رأى عند أحد شيئاً أعجبه فلا يُحدّق النّظر فيه حسداً . ولا يُظهر رغبته فى الحصول عليه طمعاً ؛ وإذا وجد شخصاً يأكل شيئاً يشتهيه فلا يقعدْ بجانبه ليدعُوَه للأكل معه ، ولا يلتفتْ إليه ؛ وإذا وجد فى طريقه شيئاً (لقطةً) فلا يأخذْه ، وإذ أاخذه فليردّه لصاحبه ،إن كان له به معرفة ، أو يذهب لإيداعه فى دار الحاكم للبحث عن صاحبه وتسليمه إليه .
وإذا سار فى طريق فليغُضّ بصره عن النظر إلى ما حرّم الله ، لأنه تعالى يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفى الصّدور . وقيل : من غَضّ طَرْفُه تَمّ ظَرْفُه ، كما قال الشّاعر فى هذا المعنى :

ليس الظّريف بكاملٍ فى ظرفه   حتّى يكون عن الحرام عفيفاً
فاذا تعفّف عن محارم ربّه   فهناك يُدعَى فى الأنام ظريفاً
إخوانَنا صونوا الحياة بعفّةٍ   ليس الفتى بسوى العفاف شريفاً

وإذا اجتمع بفتاة أو امرأة فلا يخنها فى شرفها وعرضها ، وليستعفف كما أمره الله تعالى بقوله (وليستَعففِ الّذينَ لا يَجِدون نِكاحاً حتى يُغنِيَهم اللهُ منْ فَضْلهِ) « سورة النور » .
أى ليجتهدْ ويسعَ فى طلب العفّة وكسر الشّهوة ، الذين لايجدون ما يتزوّجون به من المال حتّى يرزقهم الله من فضله بالشىء الذى يقدرون به على الزواج .
وهذا وعدٌ من الله تعالى للعاجزين عن الزواج بالتّفضّل عليهم بالغِنى تقويةً لقلوبهم . وتسليةً لخاطرهم فى الصّبر على العفّة .
ولذا حرّم الله الزّنا . وقال فى تحريمه (ولا تَقرَبوا الزّنا إنّهُ كانَ فاحِشةً وساءَ سبيلاً) « سورة الإسراء » .

ذكر ما قيل فى العفة

أقوال الأدباء والأطبّاء :

العفّة والطهارة والنّظافة بمعنى واحد . ومن العفّة اشتُقّت لفظة عفيف : أى طاهر ونقىّ ونظيف ، وهى تُستعمل فى جملة مواضعَ ، فيقال : الماء الطّاهر : أى النّظيف ، الخالى من الأقذار . والحبُّ الطّاهر : أى الشّريف الخالى من الشهوات والميول الفاسدة ؛ وهلمّ جرّا .

أما الرجل العفيف أو المرأة العفيفة : فهو الشّخص البعيد عن الأفكار السّاقطة والميول الخبيثة الخسيسة ، المائل بطبيعته للعفّة والصّلاح .

ويُراد بالعفّة كبح جماح الشهوات ، وإخلاء الفكر والأخلاق والتّصوّرات فى شوائب الخسّة والدّناءة ، وهو العلاج الأدبى الوحيد الذى يمكننا أن نقاوم به ميولنا الخسيسة ، وشهواتنا البهيميّة الدّنيئة .

(النهضة النسائية — السنة الثالثة) .

العفاف تاج مجد الإنسانية المتألّق شرفاً وفخاراً ، وروح الكمال الذى تفضّل به الإله الكريم على الإنسان خاصّة ، فرفع به شأنه وقدره فوق رءوس الخلائق جميعاً .

العفاف : هو قوام الفضيلة ، وعماد الإباء والشّمم ، ودعامة الهداية والإرشاد ، وأسوة طيّبة للأبناء والأحفاد ، وشهادة حقّ على نقاء القلب وطهارة النّفس ، وقداسة الرّوح (علية الشرقاوى بمجلة النهضة) .

وقال سولون : العفّة زينة نفوسنا ، وزخرف أبداننا ، ورائد ميولنا .

وقال لونجس : العفّة كنز الطّاهرين ، وهى توجد إما فى العزوبة التامّة ، أو فى الزّواج الصّحيح .

وقال إديلبوس : يجب احترام المرأة العفيفة ، واحتقار المرأة العاهرة .

وقال خبكس : العفة زينة النّفس ، وزخرف الحياة التى تحتقر الشهوات ، وهى لاتوجد إلا عند من يحفظون أجسامهم داخل سياج العفّة والطّهارة .

وقال هلورك : لايجعل الرجل مُحترماً فى نظر المرأة غيرُ رصانته . وعفةِ نفسه ، وشجاعته . وقوّة روحه .

وقال جوبير : عفّة النّفس تجعل للإنسان سلطاناً على حواسّه .

وقال جون ملتون : السّماء تُحبُّ الأطهار ، فعليك يا أخى بالعفّة .

وقال أيضا : المرأة العفيفة متدرّعةٌ بدرع من حديد .

هذه هى بعض آراء الاجتماعيين فى العفّة . ومنها يُستدلُّ على أنه يجب على الإنسان أن يعيش عفيفاً ليكون سعيداً هنىء البال ، بعيداً عن القيل والقال ، وعن كلّ ما يشوّش الفكر . ويؤلم الجسم . ويُتعب الضمير .

أما الدّعارة . فهى عكس العفّة على خطٍّ مستقيم ، وهى سبب انحطاط الجسم البشرى وعدم ارتقائه .

(عن مجلة النهضة النسائية السنة الثالثة) .

قال أحد الأطباء : إن العفّة صيانة دينية وعقليّة ، يجب أن نسعى فى حفظها للشباب . وإنها لاتضرّ الجسم ولا النفس ، وإنّ وازعها أقوى ، وحكمها أنفذ ، ويستطيع أىّ رجل أن يصبر عليها إذا أراد احترام نفسه ؛ وكثيراً ما استشارنى من أصيبوا بالمرض العصبى والسّوداء بإتيان الفاحشة ، ظانّين أنها دواؤهم ، ولكن لم يُسمعنى أحدٌ أن حالته تحسّنت أو صحّته اعتدلت بعد هذا الفعل الرّدىء ولم أوافقه على رأيه .

وقال آخر : يجب على الشابّ أن يصون عفافه قبل الزواج وبعده أيضاً ، حفظاً لصحّته وشرفه .

وقال آخر : من الحتم على الفتى والفتاة أن يحتفظا بعفّتهما حتى الزواج . وقد يسهل ذلك أو يصعب لإدراكهما هذه الحقيقة وهى : أنّ الراحة والسّعادة فى الزواج متوقّفتان على تلك المدّة المحفوفة بالمخاطر ، وهى زمن الصّبا ، ويجب أن يعلما أنهما سيُجزيان عن عفّتهما بصحّة وافرة . وقوّة كبيرة . وأن العفّة والطّهارة مطابقتان للقوانين الصحيّة والأدبية .

أقوال الشّعراء :

قال شاعر عربى لأولاده يمُنُّ عليهم بحُسْن اختياره زوجته ، ويمتدح عفّتها :

فأوّل إحسانى إليكم تخـيُّرى   لماجدة الأعراق بادٍ عفافها

وقال النّهادى على لسان فتاة تفخر بعفافها :

بروحىَ فى الدنيا أصونُ عفافى   فما كنزه للقاطنـين بخاف

إذا أظلمت مصر نثرت بأنفها   نُجوم الحجا أو باسمين عفاف

علَوْتُ الثريَّا فهى دونىَ رتبةً   وأسكنت حبَّ الفُضليات شغاف

وقالت ليلى الأخيليَّة ـ وهو أفضل ما قيل فى العفَّة :

وذو حاجة قلنا له لاتَبُحْ بها   فليس إليها ما حييتَ سـبيل

لنا صاحبٌ لاينبغى أن نخونه   وأنتَ لأُخرَى صاحبٌ وخليل

وقالت السيدة عائشة التَّيموريَّة رحمها الله تعالى :

بيد العَفاف أصون عزّ حجابى   وبعفَّتى أسمو على أترابى

وقال أحد الشُّعراء المتقدّمين :

أُحبُّ الذى ينفى الفواحشَ سمْعَهُ   كأنَّ به عن كلّ فاحشةٍ وقرًا

سليم دواعى الصّدر لاباسطاً يدى   ولا مانعاً خيرًا ولا قائلاً هُجْرًا

وقال آخر :

أصون عرضى بمالى لا أدنّسه   لابارك الله بعد العرض فى المال

عفاف الرجل

والعفاف من أمهات الفضائل الّتى حثّ عليها الشّرع الشّريف ، سواء فى الرجال أو النساء .

أما عفاف الرجل ، فيكون بصيانة النّفس من ارتكاب الفواحش والآثام . والسّعى إلى الزواج .

فاذا ترك الرجال القوّامون على النّساء هـذه الفضيلة ، واتّبعوا شهوات النّفس الخبيثة ، وعدمَ صيانتها ، وارتكبوا ما حرّم الله ، واستحكم هذا الداء فى المجتمع الإنسانى جرّ ذلك ولا ريبَ إلى فساد النّساء ، وسلوكهنّ هـذا المسلكَ المُزرىَ القبيحَ ، طارحات العفافَ ظِهريا ، وبرقعَ الحياء جانباً .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، عفّوا تعفَّ نساؤكم .

وقال الشاعر العربى فى هذا المعنى :

عفّوا تعفّ نساؤكم فى المحرم ... وتجنّبوا ما لايليق بمسلم
يا هاتكاً حُرَم الرّجال وقاطعاً ... سُبُل المودّة عشتَ غيرمكرّم
لو كنت حرّا من سلالة ماجدٍ ... ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلم

وقال آخر :

ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصى يجتنبْك عقابها

وقال محمود الورّاق :

رأيتُ صلاحَ المرء يُصلح أهله ... ويلحقُهم داءُ الفساد إذا فسد
ويشرُف فى الدّنيا بفضل صلاحه ... ويُحفظُ بعد الموتِ فى الأهل والولد

وقد حثّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الزواج حفظاً للدين والصّحّة فقال :

« من تزوّج فقد حفظ نصف دينه ، فليتّق الله فى النصف الآخر »

وقال أيضاً « يا معشَر الشّباب ، من استطاعَ منكمُ الباءةَ فليتزوّج فإنّهُ أغَضُّ للبصرِ وأحصَنُ للِفرْجِ ، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم ، فانه له وِجاءٌ » . أى من وجد مايقدر به على تحصيل المستَمتع فليتزوّج ، فانه أحصن لدينه ، ومن عجز عن وجدانه ووسائله ، فليقطع عنه شواغل الشهوة التى لايثيرُها إلا كثرة الغذاء والامتلاء ، وهذا تأييدٌ لقوله تعالى (ولْيستعْفف الذينَ لايجدونَ نِكاحاً حتى يُغنيَهم اللهُ منْ فضْلهِ).

والإنسان لايكون عفيفاً إلا بشرائطَ ، وهى :

أن يكون تعففه من الشيء انتظارًا لأكثر منه ، أو لأنه لايوافقه ، أو لجمود شهوته ، أو للإشعار بالخوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوعٌ من تناوُله ، أو لأنه غير عارفٍ لقصوره.

فان ذلك كلّه لايُعَدُّ عفّةً ، بل هو اصطبار أو تطبيب ، أو مرض ، أو عجز ، أو جهل .

وترك ضبط النّفس عن الشّهوة أذمُّ من تركها عند الغضب ؛ ولذا قيل « عبدُ الشّهوة أذلُّ من عبد الرّقّ » .

والعفّة لاتكون مقصورةً على الأغنياء فحسب ، بل تكون فى الفقراء أيضا ، لأن الغِنى غنى النّفس لاغنى المال .

وقد مدح الله الفقراء الذين يتعفّفون عن السؤال ، ويترفّعون عنه ، حتى إن الجاهل يحسبهم أغنياء ، ووصفهم بقوله سبحانه : (يحسَبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف تعرفهم بسيماهُم لايَسألونَ النّاسَ إلحافاً) « سورة البقرة » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ليسَ المِسكينُ الّذى تردُّه التمرة والتمرتان ، ولا اللُّقمةُ ولا اللُّقمتان ، إنما المسكينُ الذى يتعفّفُ ، واقرءوا إن شئتم - يعنى قوله (لايسألونَ النّاس إلحافاً) » .

عفاف المرأة

عفاف المرأة تاجها .

هذه الفقرة سيأتى ذكرها فى المحاضرات الخاصة بالإناث .

أمثلة من عفاف الرجل

١ — تعفُّف الحسن بن علىّ :

خرج مُعاوية حاجًّا ، فمرّ بالمدينة ، ففرّق على أهلها أموالاً جزيلة ، ولم يحضُر الحسن بن على ؛ فلما حضر قال له معاوية : مرحباً برجلٍ تركَنا حتى نفِد ما عندنا . وتعرّض لنا ليُبخلنا .

فقال الحسن : كيف يَنْفَدُ ما عندك وخَراج الدُّنيا يجىء إليك ؟ .

فقال معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند .

فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة الزّهراء .

٢ — تعفُّف عمر بن عبد العزيز :

ا — مثالٌ أوّل :

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز أعفّ وأعدلَ بنى مروانَ وهو ابنُ مروانَ بن الحكم . وُلِد سنة ٦٠ ستين من الهجرة ، حين كان أبوه والياً على مصر . وكان له بجدّه الفاروق أسوةٌ حسنة . ما أخذ لنفسه ولا لأولاده من بيت المال شيئاً .

ومما يُؤثر عنه أنه استفتح ولايته ببيع ما كان يملكه سليمان من ملابسَ وغيرها حتى اجتمع لديه من ذلك مبلغٌ عظيمٌ وضعه فى بيت المال . كما أنه باع ثوب قرينته بنت عبدالملك ووضعه فى بيت المال ، علماً منه أن ما أُنفق عليه هو من بيت مال المسلمين .

وكان إذا قدم عليه وفود الشُّعراء لم يأذن لهم . وكان يتلو لآيته : (قل إنى أخاف ان عصيْتُ ربى عذابَ يومٍ عظيمٍ) .

ومات عن اثنى عشر غلاما لم يترك لهم شيئاً لعفّته وأمانته .

ولما حضرته الوفاة . جمعهم وجعل يصوّب نظره إليهم ويصعّده حتى اغرورقت عيناه بالدّموع . ثم قال :

« بنفسى فتيةٌ تركتهم ولا مال لهم . يا بَنِيّ إنى خَيَّرت نفسى بين أن تفتقروا إلى آخر الأبد . وبين أن يدخُل أبوكم النّار ، فاخترت الأول . يا بَنِيّ : عصمكم الله ورزقكم . وقد وكلت أمركم إلى الله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وهو يتولى الصّالحين » .

وكان عنده وقتئذ مسلمة بن عبد الملك ، فوهبه أربعين ألفاً ليفرّقها على أولاده وقال له : عن طيب نفسٍ فعلتُ . فقال رضى الله عنه : أوصيك أن تفرّقها على من أخذتَ منهم ظُلماً .

ثم توفى رحمه الله سنة ١٠١ هجرية ، ومكث فى الخلافة سنتين وخمسة أشهر كان فيها متحرّياً سيرة الخلفاء الراشدين .

ب — مثالٌ ثانٍ من عفة عمر بن عبد العزيز :

من شدّة عفّته يقال إنه كان ينظر ليلاً فى قصص الرّعيّة فى ضوء السّراج ، فجاء غلام فحدّثه فى أمر يتعلّق ببيته . فقال له عمر : أطفئ السّراج ثم حدّثنى ، لأن هذا الدّهن من بيت مال المسلمين . ولا يجوز استعماله إلا فى اشتغال المسلمين .

ج — مثالٌ ثالث :

أهدى رجلٌ إلى عمر بن عبد العزيز تفاحاً لبنانيًّا كان قد اشتهاه ، فردّه لصاحبه ، فقيل له : قد بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهديّة ، فقال إن الهديّة كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هديّةً حلالاً . ولنا رشوة أكلُها حرامٌ فى حرامٍ .

وكان من دعائه : اللّهمّ أعطنى من الدنيا مايكفينى عن شهواتها ، ويعصمنى من فتنتها . وتغنينى به عن جميع أهلها .

كما كان يقول لأحد الصالحين : اللهمّ اكفنى شرّ هذه الدنيا وشرّ بلائها ، ولا تجعلها أكبر همٍّ لنا .

د — مثالٌ رابع :

قال جرير بن حزم عن رجل عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : اشتهى عمر بن

عبد العزيز يوماً عسلاً ، فلم يكن عندنا . فوجّهنا رجلاً على دابّة من البريد إلى (بعلبك) فأتى بعسلٍ ، فقلنا يوماً : إنك ذكرت عسلاً وعندنا عسلٌ فهل لك فيه ؟ قال نعم ؛ فأتينا به ، فقرب إليه ثم قال : من أين لكم هذا العسل ؟ قال : قالت : وجّهنا رجلاً على دابّة من دوابّ البريد بدينارين إلى بعلبك فاشترى لنا بهما عسلاً . قال : فأرسل إلى الرجل ، فجاءه فقال : انطلق بهذا العسل إلى السّوق فبعه ، فاردد إلينا رأس مالنا . وانظر إلى الفضل واجعله فى بيت مال المسلمين علف دوابّ البريد .

٣ — مثال العفّة والنزاهة :

أُصيب شخصٌ بمرضٍ شديدٍ ، فأشار عليه الأطبّاء بالتّوجّه إلى إحدى مدن الوجه القبلى لتغيير الهواء وطلباً للصحّة ، فقصد أحد أصدقائه الأطبّاء الأمناء ونزل عنده ضيفاً فأكرم مثواه وقام له بواجب الصداقة ، ولكن مع الأسف أدركته الوفاة وهو فى داره . وكان معه خرج به بعض ملابسه الضّرورية ، وكيس نقود يحتوى على أربعة آلاف جنيه ذهباً مجموع ثروته التى جمعها فى حياته ، فأبت نفس هذا الصديق العفيف أن يأخذ شيئا من ماله . بل أخذ الخرج وما فيه من الأمتعة والنقود وذهب به إلى المديريّة التّابعة لها المدينة . وقدّمها إليها وأثبتها فى دائرتها حتى يحضر ورثته لاستلامها ، ثم عاد إلى صاحبه فشيّع جنازته . ودفنه بمقبرته . وأخطر أسرته . وبذلك قام بواجب العفّة والوفاء . واستحقّ من النّاس الثّناء ، وجميل الذكر المستطاب ومن الله جزيل الأجر والثّواب .

لا تأكلوا أموال الناس بالباطل

يُحكى أن إبراهيم بن أدهم مرّ يوماً ببساتين (بُخارَى) فنزل فى بعض أنهارها . وإذا بتفّاحة يحملها الماء . فقال : هذه لاقيمة لها فآكلها . ثم وقع له فى خاطره من ذلك وسواس . فعزم أن يستحلّ صاحب البستان . فلمّا قرع بابه خرجت إليه جارية فقال : ادعى لى صاحب البستان . فقالت : إنها امرأة . فقال : استأذنى لى عليها ؛ فجاءت فأخبرها بخبر التّفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسّلطان . وقد نزلت عن حقّى ، وكان السّلطان يومئذ (ببلخ) فذهب إليه واعترضه فى موكبه

وأخبره الخبر واستحلّه ، فانذهل السُّلطان من أمره وتعجّب من رقّة ضميره وأمانته ووصله بصلة .

العفاف قرين العدل والانصاف

حُكيَ أن رجلاً اشترى داراً من رجل آخر ، فوجد المشترى فيه كنزاً ، فأبت نفسه العفيفة أن يأخذه ، ومضى إلى البائع وأخبره به ، فقال له البائع : إنما بعتُك داراً لاأعرف فيها كنزاً فهو لك ؛ فقال المُشترى : لابدّ أن تأخذه فانه ليس داخلاً فيما اشتريتُ ، فطال الجدل بينهما فتحاكما إلى الملك كِسرى ؛ فلما وقفا بين يديه ، وذكرا له أمر الكنز أطرق الملك ملياً . ثم قال لهما : هل معكما أولاد ؟ فقال البائع : إن لى ولداً بالغاً ؛ وقال المشترى : إن لى بنتاً بالغة ؛ فقال كسرى لهما : أمرتكما أن تزوّجا الولد بالبنت ليكون بينهما صلةٌ وقرابةٌ ، وأنفقا ذلك الكنز فى مصالحهما ، ففعلا ذلك امتثالاً لأمر الملك العادل . وكان هذا العفاف منهما موجباً للعدل والإنصاف .

الرجل النزيه والغلام الصادق

رُوِيَ أن تاجراً أرسل ولده لأحد عمّاله ومعه صرّةٌ من النُّقود ، فسقطت منه أثناء سيره ، فصار الولد يبحث عنها وهو يبكى ، فمرّ به رجل كان قد وجد الصُّرّة بطريق الصُّدفة ، فسأله عن سبب بكائه ، فقصّ عليه الغُلام أمره ، فأخرج الرّجل له صرّةً كبيرةً كانت معه ، وقال له : أهذه صرّتك ؟ فقال الولد : لا ، ثم أخرج له أُخرى أصغر من الأولى ، وهى الصرّة التى وجدها فى طريقه ، وقال له : أهذه صرّة نقودك ؟ قال : نعم ، فقدّمها إليه وقال له : اذهب فهى حلالٌ لك ، وأثنى على صدقه كما أن الغلام أثنى على الرجل لنزاهته وعفّة نفسه .

نزاهة فوسيون

هذا القائد الطّائر الصيت فى أثينا كان دائماً من دُعاة السِّلم مع (مقدونيا) فأرسل إليه الإسكندر ملك مقدونيا برهاناً عن امتنانه هديةً ثمينةً ، فسأل فوسيون الذين حملوها إليه عن غاية الإسكندر من تقديم هذه الهديّة السنيّة إليه ؟ فأجابوه : لأنك أشرف رجلٍ عرفه الإسكندر فى أثينا للآن ، فقال : إن كان الإسكندر يعتبرنى بهذه الصفة ، فليأذن لى

أن أبقى ثابتاً عليها ؛ وأبى قبول الهديّة . وحينما فعل ذلك الفعل الشّريف ، كان هو بنفسه يستقى الماء من بئر ، وامرأته تخبز الخبز .

وعزم فيما بعد على رفض هدايا الإسكندر والملوك خلفائه تعفّفا منه .

ولما قيل له : إذا كنت لاتقبل المال لنفسك ، فعليك أن تقبله لأولادك ، أجاب : إن كان أولادى عقلاء فيكتفون بما يكفينى ، ويعيشون شرفاء . وإلا فكثير عليهم ما عندى .

نزاهة هنرى دى مسم

لما عرض هنرى الثانى ملك فرنسا منصب المدّعى العمومى على رجل الفضل (هنرى دى مسم) أحد مشاهير المتشرّعين فى عصره ، نبهه هذا الرجل إلى أنّ هذا المنصب لم يكن خالياً بل يشغله رجل غيره ؛ فأجاب الملك : إن المحلّ خالٍ لأنى قصدت أن أخلع عنه من يشغله ، فقال هذا المشرّع : عفوًا يا مولاى . أحبٌّ إلىّ أن أحفر الأرض بأظافرى من أن أدخل إلى هذا المنصب بمثل هذا السبيل . قال ذلك (هنرى دى مسم) بعد أن امتدح بلُطف العامل الشّاغل لهذا المحلّ الواقع تحت خطر العزل والانفصال . فاعتبر الملك بهذه الملاحظة ، واستبقى المدّعى العمومى فى منصبه .

فهذا العامل بادر إلى (هنرى دى مسم) يقدّم له تشكّراته . ولكن هذا الرجل النزيه الكريم أجابه : كيف أُشكَر على عملٍ أعُدُّ القيامَ به فرضًا واجباً . والإخلال به عارًا فاضحاً .

فانظر إلى عفّة نفس هذا الرّجل وكرم أخلاقه .

عزة النفس أو الكرامة

عزّة النّفس : هى إكرام المرء نفسَه واحترامُها ووضعُها فى المقام اللائق بها ، وهى من أهمّ الفروض التى يجب عليه أداؤها ، لأنه كما يُحبّ المرءُ نفسه ويحافظ عليها ويتّقى الحرّ والبرد لأجلها ويسعى ويجدّ ليضمن رفاهيتها ونعيمها ، ويخرج إلى المتنزّهات والخلوات لرياضتها ونزهتها ، ويذهب إلى محالّ الأنس والطّرب لسرورها واستراحتها، فانه يجب عليه أن يعزّها ويكرمها ويحترمها ويعطيها حقّها من الإكرام والاعتبار .

على أنها قوّة كسائر القُوَى . تُساعد المرءَ على نيل أمانيه ، والتّصرّف فى أموره ، وأن لها فعلاً بالألباب ، وسلطاناً على النّفوس لاتضاهيها فيها قوّة أُخرى .

ومن الخطأ أن يحسب المرء العامل فى أقدار النّاس أنما هى الأموال التى جمعوها ، أو العلوم التى حصلوها ، أو المناصب التى نالوها . وإن كانت هذه الأمور من وسائل الاحترام فى الجملة .

وليس الغرض من عزّة النّفس وإكرامها الترفّعَ عن النّاس والتّعاظُم عليهم أو الغطرسة وشموخ الأنف . بل الابتعاد عن كل ما يَشينها مع إعطائها قسطَها من الاحترام والإكرام .

وكما أن الإنسان يُسَرّ خاطرُه ، وينشرح فؤاده ، عند ما يرى النّاس يحترمونه ويُجلّونه . ويعتبر هذا من الواجبات المفروضة عليهم ، فإنه خليق به وأحرى أن يكون فى مقدّمة الذين يحترمونه ويجلّونه فيحترم هو أيضًا نفسه .

والمقصود من احترام النّفس أن الإنسان لايتذلّل ولا يجبن ، ولا يحطّ بقدر نفسه ، ولا يزرى بشرفه ومقامه . وكل رجلٍ لايشعر بكرامة نفسه ، ولا يذود عنها خليقٌ بالاحتقار والازدراء .

وغنى النّفس أو شرفُ النّفس صفة كمال ، بها تتفاوت أقدار الرجال . بها تترفّع النّفس عن مداناة الدنايا . بها تستطيب دون الذلّ كئوس المنايا ، بها أبانت الشّريعة الغرّاء فضل الأحرار على الأرقّاء . بها جُعلت الرجال قوّامين على النساء ، بها حظرت على الشّريفات الاقتران بغير الأكْفاء .

ولا يكون شرف النّفس بلبس رداء الكبرياء . ولا بجرّ أقدام الخُيَلاء . ولا برفع الأنف فى السماء ؛ بل يكون بنفسٍ مكتوبٍ عن يمينها : عشْ عزيزًا أو مت كريماً ؛ وعن يسارها : إن لم تكن غيورًا فكن فى التراب مقبورًا .

ليست عزّة النّفس بسوء الأدب مع الرئيس . ولا بمدّ الرجل بين يدى الجليس . ولا بإطلاق لسان الوقاحة والبذاءة . ولا بغطرسة أهل الجراءة ؛ بل تكون فى نفسك عاليَ الهمَّة ، كالنَّجم ارتقاء ، وفى استقامتك طاهرَ العِرض كالماء نقاء .

فلا تسلك أيها العاقل سبيل التملُّق والنِّفاق والخضوع الزائد مذلاً نفسك . زاعماً أن هذا هو التَّواضع والرقَّة ، ولا ترتكب خطة الخيلاء والكبرياء والمباهاة قائلا : إن هذا هو الاحترام والرفعة بل اتَّبع خطَّة الاعتدال .

فلا تتملّق تملُّق الثّعالب فيحقّرك النّاس ويزلقوك بأبصارهم . ولا تتكبر تكبر السِّباع فلا يحتفاوا بك . بل يضربوا عنك صفحاً .

وانظر فى جميع أقوالك وأحوالك . ولا تأت أمرًا خارجاً عن حدّ الأدب والاعتدال . فان النَّاس يعدّونه عليك ويؤاخذونك به . فان لم تكن فيك نفسٌ ترفعك عن الأمور الحقيرة . وتدفع بك إلى طلب منزلتك التى لك . فلست على شىء من عزّة النَّفس ولا تجد إذن من يكرمك . بل تكون أهون عليهم منك على نفسك كما قال الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقَّها هواناً بها كانت على النَّاس أهون

واعلم أن عزّة النَّفس هى أن تنشأ عافّاً عن هذه الأوصاف الذميمة . وتصون ماء وجهك ، وتعصم نفسك وعرضك ودينك . فتعيش مكرّماً معظّماً أهلاً لأن يكرموك ويحتفاوا بك . فان من أعزّ نفسه أعزّته النّاس . ومن أهانها كانت على النّاس أهون .

من يَهُن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

وإن معيشةً تصحب بالمذلَّة والهوان فهى الحياة الخبيثة . وإن معيشةً تقترن بالعزّة والكرامة لهى الحياة الطيبة السَّعيدة .

من المذلّة أن تجيب كل من دعاك . وتدعوَ من لا يجيبك . تتواضع لمن ينكر عليك ، وتتعرّف بمن يتنكَّر لك .

أتبيع ماء محيّاك بماء حياتك . وتستبدل بالعزّ والكرامة المذلّة والهوان ، وترضى من رزقك بالمنّة والامتنان . وأنت تعلم قوله تعالى (إنّ اللهَ هوَ الرزّاق ذو القُوّة المتين) وأن لافاعل ولا مؤثّر فى الحقيقة إلا الله تعالى ، وأنّ المخلوقات ليست إلا مظاهر لقدرته وإرادته .

ذكر ما قيل فى عزة النفس

١ — قال الله تعالى (من كانَ يُريدُ العزّةَ فللهِ العزّةُ جميعاً) « سورة فاطر » .

٢ — وقال الله تعالى (ولله العزّةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ولكنّ المُنافقينَ لايعلمونَ) « سورة المنافقون » .

٣ — قال صلى الله عليه وسلم « ليسَ الغِنى عنْ كثرةِ العرَضِ ، ولكنّ الغِنى غِنى النّفس » عن أبى هريرة .

٤ — وقال الإمام علىّ فى نصيحة لابنه الحسن : يا بُنَىّ أكرم نفسك عن كلّ دنيئة وإن ساقتك إلى الرّغائب ، فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضًا ، ولا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حرًّا .

٥ — وقال عمرو بن العاص : المرء حيث يجعل نفسه ، إن رفعها ارتفعت ، وإن وضعها اتّضعت . فكما أن وضع المرء لنفسه دون رتبتها حطّةٌ من قدره ، كذلك وضعه لها فوق رتبتها يثير عليه أحقادًا تغلى فى الصُّدور غَلْىَ الماء فى المراجل . ويجلب له المقت ويجعله عرضةً للّوم والنّقد .

٦ — وقال الإمام الغزالى : ثمانية تجلب الذلّ لأصحابها :

١ — جلوس المرء على مائدة لم يُدْعَ إليها .

٢ — التأمر على صاحب البيت .

٣ — الطّمع فى الإحسان من الأعداء .

٤ — مضىّ المرء إلى حديث اثنين لم يُدخلاه بينهما .

٥ — احتقار السُّلطان .

٦ — جلوس المرء فوق مرتبته .

٧ — التكلُّمُ عند من لايستمع الكلام .

٨ — مصادقة من ليس بأهل .

وقال المرحوم الأستاذ عبد الرحمن زغلول فى كتابه « الأخلاق » :

من أسباب عزّة النّفس شعور الإنسان فى نفسه بالفضيلة وإقدامه ، فانه كلّما شعر الشّخص فى نفسه بالفضائل ، ولم يجد له إقداماً ، عزّت عليه نفسه . وأقام لها شعائر الاحترام، وإن النّفوس البشريّة لتهون على ناقصى الإقدام والذين يطوّحون فى النقائص . تهون على المرء نفسه متى استولى عليه الشّعور بالنّقيصة . حتى إنه ليَحسب راحته فى الهرب منها .

ألم تر كيف ينتحر بعض النّاس إثر اقتراف النّقيصة ؟

فلا شىء أذهبُ براحة النّفس وأحطُّ لها وأعملُ فى صَغارها من النقائص .

أُفٍّ من النقائص ، ما أشقى الأحرار بها ! والجواد قد يكبو ، وما أقدرها على التّطويح بهم فى نارٍ حامية .

إن بعض النّاس لسقوطهم فى النّقيصة تغيرت عوائدُهم وآدابهم وأخلاقهم حتى صاروا خلقاً جديداً .

اعوجّ طريقهم وقد كان من قبل سويّاً ، وسفلت أخلاقهم وقد كانت عالية ، وانحطّت آدابهم وقد كانت راقية . ورضوا بأن يُساموا الخَسف من جميع النّاس بعد أن كانوا من أُباة الضيم . وبدا للنّاظرين إليهم خلطهم فى كل شىء بعد أن كانوا متّسمِين بالكياسة وأصالة الرأى .

ذلك لأنهم سقطوا فى النّقيصة على مشهدٍ من النّاس . فهانت عليهم أنفسهم ونابهم انكسارٌ أضعفَ إقدامهم الذى كان يأخذ بأيديهم ويتقدّم بهم حيث مستقرّ النّفوس العزيزة .

فلنحذر النّقيصة والرذائل لأنها تذهب بعزّة أنفسنا ، وتُبيد سعادتنا . وتنحرف بنا عن الطريق السّوىّ ، طريق الدين والحكمة وعزّة النفس . لنحرص على الأخلاق الفاضلة ، فانها الأساس المتين لسعادتنا وعزّة أنفسنا .

وقال بعضهم : احتمال الفقر أحسن من احتمال الذّلّ .

وقال أحد الأدباء : أبىُّ النّفس يشترى بالمعروف عِرضه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له فأنفقها صيانة لنفسه لاستقلّها .

وقال حاتم :

ونفسك أكرمها فانك إن تَهُن ... عليك فلن تلقى لها الدّهرَ مُكرِما

وقال آخر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها — هواناً بها كانت على النّاس أهونا
فنفسَكَ أكرمها وإن ضاق مسكنٌ — عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا
وإيّاك والسُّكنى بمنزل ذلّةٍ — يُعَدُّ مُسيئاً فيه من كان مُحْسنا

وقال القاضي أبو الحسن الجرجاني :

وقالوا توصّل بالخضوع إلى الغِنى — وما علموا أنّ الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شيئان حرّما — عليَّ الغنى : نفسي الأبيّةُ ، والدهر
إذا قيل هذا اليُسر أبصرتُ دونه — مواقفَ خيرٌ من وقوف بها العُسرُ

وقال عنترة العبسيّ :

لاتسقِني ماء الحياة بذِلّةٍ — بل فاسقني في العزّ كأس الحنظل
ماء الحياة بذِلّةٍ كجهنّم — وجهنّمٌ بالعزّ أطيب منزل

وقال بعض الشُّعراء المتقدمين :

تكلفني إذلال نفسي لعزّها — وهان عليها أن أُهانَ لتُكرَما
تقول سلِ المعروف يحيى بنَ أكثم — فقلت سليه ربَّ يحيى بن أكثما

« ليس الغِنى عن كثْرة العرَض ، ولكن الغِنى غِنى النّفس » حديث شريف .

العرَض : ما يُنتفع به من متاع الدنيا . ومعنى الحديث : ليس حقيقةُ الغنى كثْرة المال . لأن كثيراً ممن وسّع الله عليهم في الثروة ، مجرّدون من القناعة النّفسيّة شراهةً وحرصاً . فمن كانت هذه صفته من الأغنياء فهو فقير لشدّة حرصه وعظم شراهته وطمعه .

أما الغِنى الحقيقيّ فهو غنى النّفس ، وإن أحرزت اليدان الأموال .

وقال القرطبي كما نقله المقريزى : معنى الحديث : أن الغِنى النّافع ، أو العظيم ، أو الممدوح هو غنى النّفس .

وبيانه : أنه إذا استغنتْ نفسك كفّت عن المطامع ، فعزّت وعظُمت ، وحصل لها من الحظوة والنّزاهة والتّشرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله من يكون فقير النفس لحرصه ، فانه يورّطه في رذائل الأمور ، فيكثر من يذمّه من النّاس ويصغر قدره عندهم ، فيكون أصغر من كل صغير ، وأذلّ من كلّ ذليل حقير .

١ — كريم النَّفس خيرٌ من كريم المال

سُئِل حاتم الطَّائى عن أىّ إنسان أعظم منه كرماً . وأفضل نفساً . وأحسن شيماً .
فقال : ذبحت يوماً أربعين حِلابة للأَضياف ، ثم سرت فى البيداء أُريد أمرًا . فبلغت أجمةً فيها رجلٌ يحتطب ، فقلت له : أما سمعت بكرم حاتم طيئ وسماحته ؟ قال : بلى ، قلت : هلا استضافك ؟ قال : ثكلتنى أمى لو أنه استضافنى وقبلت ضيافته . ودعانى فأجبت دعوته ، فاننى مادمت أستطيع الكسب بعَرَق جبينى وتعب يمينى . فمن العار أن يكون لكريمٍ يدٌ أُغْضِي لها حين يَغضب .

ولا خير فى مالٍ عليــه أَلِيَّةٌ   ولا فى يمينٍ عوقدت بالمآثم

فقلت للمحتطب : أنا حاتم طيئ . وأنت وربّ الكعبة أعلى منى كعباً فى الكرم . وأقرب إلى المروءة . وأسبق إلى محاسن الشيم .

٢ — كريم النَّفس يصونها عن ذلّ السُّؤال

كان أحد الكنَّاسين . وهو يكنس فى الأسواق يَنشد هذا البيت :

وأُكرِم نفسى إننى إن أهنتها   وحقِّكَ لم تُكرم على أحدٍ بعدى

فسمعه رجلٌ وفهم معناه وقال له : وعن أىّ شيءٍ أكرمتَ نفسكَ وهذه المِكنسة بيدك ؟ فأجابه فى الحال : إننى أكرمتها عن ذلّ السُّؤال . وعن الوقوف على باب بخيلٍ مثلك بحمل هذه المكنسة .

٣ — عزيز النَّفس لايطيق الهوان

كان سليمان بن وانوس رجلاً جليلاً أديباً . وكان وزيرًا عند الأمير عبدالله صاحب الأندلس من بنى أميَّة . فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللِّحية . فلما رآه الأمير مقبلاً جعل يهجوه بأبياتٍ تدلّ على الاحتقار والازدراء . فقال له سليمان وقد غضب : أيها الأمير . إن النَّاس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم . وأما إذا صارت حالته للذلّ ، فلنا دُورٌ تسعنُا وتُغنينا عنكم . فان حالت بيننا وبينها فلنا قبورٌ تسعنا ولا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها . ثم خرج من غير أن يسلِّم ونهض . فغضب الأمير وأمر بعزله عن الوزارة ورفع دسته (مجلسه) الذى كان يجلس عليه وبقى كذلك مدة .
ثم إن الأمير حزن على فقده لعفافه وأمانته ونصحه وفضل رأيه . فقال للوزراء :

لقد حزنت لفقد سليمان ، وإن أردت استرجاعه وتبرأ منَّا كان ذلك غضاضةً علينا ، فوددت أن يبدأنا بالرغبة ؛ فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد : إن أذنت لى بالمَسير إليه أستنهضه إلى هذا ، فأذن له ؛ فنهض إلى دار سليمان واستأذن عليه ، وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أيام بنى أميَّة ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله ، فانه كان يتلقَّاه وينزل معه على مرتبته ولا يحجبه لحظته .

فأبطأ فى الإذن على أبى محمد حيناً ثم أذن له ، فدخل عليه فوجده قاعدا ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه ؛ فقال له أبو محمد : ما هذا الكبر ؟ عهدى بك وأنت وزير السُّلطان وفى أبهة رضاه تتلقَّانى على قدمٍ ، وتتزحزح لى عن صدر مجلسك ، وأنت الآن فى موجِدته (غضبه) بضدّ ذلك ؛ فقال له : نعم لأننى كنت حينئذٍ عبداً ذليلاً مثلك ، أما الآن فأنا حرّ عزيز النَّفس .

فيئس أبو محمدٍ منه ، وخرج ولم يكلِّمه . ورجع إلى الأمير فأخبره ، فابتدأ الأميرُ بالإرسال إليه ، وردّه إلى أفضل مما كان عليه لشرفه وعزّة نفسه .

٤ — كيف تُذَلُّ النُّفوس الأبيَّة

لما بلغ (قورس) ملك الفرس أن أهل (ليدية) خرجوا عن طاعته استشاط غيظاً وقال لقارون : إنى لأجعلهم عبيداً أرقَّاءَ كلَّهم ، فاستعطفه قارون وسأله الصَّفح عنهم ، ثم قال : مُرهم بأن يعتزلوا السِّلاح ، ويتباهَوْا بالملابس الفاخرة والحلىّ الباهرة ، ويلهوا بسماع آلات الطَّرب ، ويتمتَّعوا بأكل اللُّحوم وشُرب الخمور ، فتذلّ نفوسهم الأبيَّة ، وتموتَ شهامتهم ، ويميلوا إلى الراحة والخمول ، والتَّخلُّق بأخلاق ربَّات الخدور ، فلا يخرجوا عن طاعتك .

ففعل (قورس) حسب رأى قارون ، وكان كما قال وتمّ له ما أراد ، وفى هذا دليل على أن الملاهى وحبّ الشهوات تُذلّ النُّفوس وتحطُّ الرءوس .

المحاضرة الخامسة عشرة :

السعادة ووسائلها فى نظر علماء الأخلاق

السّعادة ضالّة كل إنسانٍ ، والحياة بدونها كالعدم ، بل الموت أفضل منها . وللناس فى طرق التماسها مذاهب شتى ، لو أردنا استقصاءها لضاق بنا المقام ، وما وصلنا إلى غاية المرام ، فلنذكر أهمّ هذه الطرق .

١ — فمن النّاس من يخالُها تقوم بالمأكل والمشرب والملبس وغير ذلك من الملذّات الجسمانيّة ، فيصرف همّه فى تحصيلها ، والانهماك فيها ، وهو إنما يعيش ليأكل ويشرب ويلبس ويتمتّع ؛ وإذا استرسل مع أهوائه قلّ حياؤه ، وكثر استهتاره ، وألِف أصحابَ اللّهو والفُجور ، وسُرّ بمعاشرة الجُهلاء والسُّفهاء ، وربما دعته نفسه ومحبّة ذاته إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وحملته على التهوّر وارتكاب المحرّمات والمحظورات كما قال الشاعر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم يَنْهَهَا تاقت إلى كلّ باطلِ
وساقت إليه الإثم والعار بالّذى دعته إليه من حلاوة عاجلِ

ويكون بذلك طبعه أقرب إلى البهيميّة منه إلى الإنسانيّة ، بل تكون البهائم أسعدَ منه حالاً .

٢ — ومنهم من يرى أن السّعادة فى جمع المال ، فيسعى وراءه سعى المجدّ ، ويحمل نفسه على الكسب والادّخار ، ويحرص على الدرهم والدينار ، وربما حمله حرصه على ترك التّداوى ولا ينفق منه فى ضروريات نفسه وعياله ، فيعيشون عيشة الفقراء وأهل الخصاصة ، بثياب رثّةٍ وبطونٍ خاويةٍ ، وأنفُس خسيسةٍ ، لايتذوّقون من طعم الغِبطة شيئاً .

ومثل هذا يجد سعادته فى جمع المال ليقال عنه بعد موته : إنه من أصحاب الأموال مع أنه يعيش معذّب القلب سيئ الحال كما قال الشاعر :

النّار آخر دينارٍ نطقت به والهمّ آخر هـذا الدّرهم الجارى
والمرء بينهما إن لم يكن وَرِعاً معذّبُ القلب بين الماء والنّار

٣ — ومنهم من يعدّ السّعادة فى رخاء العيش ، والتوسُّع فى النّفقة وأبهة المنظر ،

يسكن القصور الشَّاهقة المزيَّنة بأنفس الأثاث ، ويلبس الثِّياب الفاخرة ، ويركب المركبات المزخرفة ، والخيل المسوّمة ، ويكثر من الخدم والحشم والأصحاب والخلان ومعاشرة الأخدان .

وهذا الصنف من النَّاس ، المنغمس فى الترف والملاهى ، لم يعرف من أطوار الحياة إلا اللَّذّة الجسمانيَّة ، ولم يذق شيئا من لذّات الحياة المعنوية الرّوحانية .

ومن كانت حقيقةُ السَّعادة عنده الترفَ ماتت فيه الأخلاق الفاضلة ، وفارقته الهمم العالية .

٤ — ومنهم من يرى أن السَّعادة إنما هى السُّلطة ، فيطلبها بكل ما أُوتيه من قوة وسلطان .

ومثل هذا مَثَلُ البلطجى الذى يُكرِه النَّاس على دفع الإتاوة (الضريبة) ، ويأكل أموال النَّاس بالباطل ، ويأخذها ظلماً وعدواناً بحجَّة الدفاع عنهم ، مع أن ضرره أكثر من نفعه .

٥ — ومنهم من يجد السَّعادة فى الصِّيت الحسن ، والذكر الطيِّب ، وهؤلاء لايرون لوجه الحياة جمالاً إلا إتيان ما يُمدح ، واجتناب ما يقدح ، فيبذلون الأموال ويكابدون الأهوال فى خدمة النَّاس ، والسَّعى فى مصالحهم ليكتسبوا مدحهم والثَّناء عليهم ، والمقصود من هذه السَّعادة مقبولٌ وممدوحٌ ، وأصحابه أحسن الخلق ذكراً ، وأرفعهم فى قلوب الناس مكانةً ، وأطيبهم أُحدوثةً ، وهم الذين قال فيهم أمير الشعراء المرحوم شوقى بك :

دقَّاتُ قلب المرء قائلةٌ له إنّ الحياة دقائقٌ وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذّكرُ للإنسان عمرٌ ثانى

٦ — ومنهم من يرى أن السعادة كلّ السعادة فى تقوى الله ، واتِّباع أوامره ، وسنَّة رسوله ، واجتناب المُنكرات كبيرها وصغيرها ، ويأمرون أنفسهم والنَّاس بالمعروف ، وينتهون وينهون عن المُنكر ، ولا يبغون من وراء ذلك إلا إرضاء خالقهم ، وإرضاء ضمائرهم ، وإرضاء إخوانهم .

وهؤلاء هم أهل الخير ، الظَّافرون حقًّا بالسعادة الحقيقية ، هم الأتقياء الكرماء السعداء الذين قال الله عنهم (إنّ أكرَمكم عندَ اللهِ أتقاكم) ولم يقل أقواكم ولا أغناكم ، والذين قال فيهم الشاعر العربى المشهور :

ولست أرى السّعادةَ جمع مالٍ ولكنّ التّقيَّ هو السّعيد
وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخراً وعنـد الله للأتقى مزيد
وما لا بدّ أن يأتي قريبٌ ولكنّ الذى يمضى بعيـد

الخلاصــة

إن السّعادة ليست فى المآكل والمشارب . ولا فى جمع الأموال والمكاسب . ولا فى رخاء العيش والتّوسُّع فى النّفقة . ولا فى المناظر والمظاهر . ولا فى الغنى نفسه . ولا فى السُّلطة نفسها . ولا فى استكمال معدّات السُّرور والطَّرب . بل بإدراك الأمانى ؛ وما المال والسُّلطة والجاه والرّفعة وغيرها إلا وسائل لإدراك تلك الأمانى .

ألا ترى أن كثيراً من الملوك والأغنياء ينتحرون لتفاقم الخطوب عليهم . أو بعبارةٍ أخرى لعجز سلطتهم وأموالهم عن ردّ النّوازل عنهم أو تحصيل رغباتهم .

ولو كانت السُّلطة والأموال سبباً من أسباب السّعادة . لما فضّلوا الموت عن الحياة عند وقوع الخطوب والملمّات . فاذن تتوقف السعادة على رضا النّفس . فكلّما طمعت النفس برغائبَ عزيزةِ المنالِ قلّت سعادتها . وكلما قنعت بمايسهل نيله وفرت سعادتها .

وعليه تكون السعادة هى القناعة . وكبح النّفس عما توسوس به لها . والترفّع عن الدّنايا والخطايا ؛ وأسعد النّاس أقنعهم نفساً . وأهدؤهم بالاً . وأشرفهم خصالاً . وأحسنهم مآلاً .

وقال أرسطو (الصحّة أساس السعادة) كما قال بعضهم : (الصحّة تاجٌ على رءوس الأصحّاء لايراه إلا المرضى) فكل عليلٍ تأصّلت علّته هو أشقى الناس ولو كان أغناهم مالاً وأعظمهم سلطاناً .

قيل : إن عبد الملك بن مروان كان ينادى من وراء حجرته وهو فى مرضه : يا أهل النّعم لاتستقلّوا شيئاً من النّعم مع الصحّة والعافية . وحقّاً إن السعدة فى الصحة والعافية .

وختاماً نسأل الله العفو والعافية . والستر فى الدنيا والآخرة .

المحاضرة السادسة عشرة :

التذكير بمولد البشير النذير

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهِرَه على الدّينِ كلِّه ولو كرِهَ المُشركونَ . والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذى بعثه الله رحمةً للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فلمناسبة الاحتفال بمولد النبىّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم ، رأيت أن أكتب كلمة فى القصد من الاحتفال بمولد النبىّ الأمىّ الأمين ، وخلاصة سيرته وشمائله . ليتذكّر المؤمنون نعمة الله عليهم ببعثه ، وتتغذّى أرواحهم بزيادة الإيمان به . وليحرصوا على إقامة دينه وشريعته وإحياء سنّته .

القصد من الاحتفال بمولد النبى

صلى الله عليه وسلم

لم يكن فى سنّة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلادٍ لأحدٍ منهم ولم تجر بذلك سنّة المسلمين فيما سلف . والثّابت من كتب التاريخ وغيرها أن عادة الاحتفال بمولد النبىّ عليه الصلاة والسلام من العادات المحدثة ، ويقال : إن هذه العادة أحدثها المظفّر أبو سعيد صاحب (أربل) من البلاد التّابعة لولاية (الموصل) وذلك فى القرن السابع من الهجرة . ثم انتشرت هذه العادة فى الأقطار ، وقد فاقت مصرُنا فيها جميع الأمصار .

وفى الزمن الغابر كان أهل مكة فيما رواه بعض المؤرّخين يتبركون بزيارة الموضع الذى وُلد فيه النبىّ عليه الصلاة والسلام فى يوم ميلاده .

هذا . وإن الاحتفال بمولد النبىّ صلى الله عليه وسلم ليس بالبدعة كما يدّعى بعضهم بل هو عادة حسنة جرى عليها الخلف سنّةً عن السّلف الصالح .

والقصد من هذا الاحتفال هو أن يجعل الناس يوماً من أيام العام خالصاً لتذكار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر أبناء بنى آدم بركةً على الإنسانيّة ، وأبقاهم وأنفعهم فى صحائف التّاريخ أثراً . بتلاوة آى الذكر الحكيم . وقصّة سيد المرسلين ، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين .

ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا إلى الصحراء بين الرمال والأحجار ، فيستعيدوا هنالك ذكرى النبيّ الأميّ الأمين الذى أنشأ من قبائل العرب البدويّة ، خيرَ أمّة أُخرجت للنّاس ، ورفع راية القرآن المنصورة مما بين (زمزمَ والحطيم) .

أما العادة المُتّبعة فى الاحتفال بمولد النبيّ الشّريف من إقامة الزينات والسّرادقات وتسيير المواكب ودقّ الطّبول والمزمار ، والإشارات وسماع الأغانى والأناشيد ، والرقص فى حلقات الذكر ، وإطلاق الصواريخ والألعاب النّاريّة فى الهواء ، وخروج النساء المتبرّجات لرؤية الاحتفال والموكب ، واختلاط الرجال والشّبّان بالنساء والفتيات كل ذلك مخالفٌ لآداب الشّريعة السّمحة ، ومما يغضب رسول الله .

كما أنه يجب أن تكون القصة التى تُتلى فى المولد النّبوىّ الشّريف مأخوذةً من الأحاديث الشّريفة المقبولة . أما ما اعتاد النّاس سماعه من أهل التّلحين والترنم من الأقوال الخرافيّة ، والأوصاف التى لاتقرّها الشّريعة الإسلامية فى الذات المحمديّة فمنكرٌ يجب الإقلاع عنه .

ولنبدأ بذكر مولده الشّريف ، ثم ذكر خلاصة السيرة النّبوية وبعض الشمائل المحمدية فنقول ، وبالله التّوفيق :

ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم من أبوين شريفين (بمكة المكرّمة) وهما : عبدُ الله ابنُ عبدِ المطلب بنِ هاشمٍ ، وآمنةُ بنت وهْب ، وذلك فى ثانى عشر ربيع الأول من عام الفيل سنة ٥٧١ من مولد المسيح عليه السلام .

وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم فى دار أبى طالب . وكانت قابلته أمّ عبدالرحمن بن عوف . ولما ولد صلى الله عليه وسلم أرسلت أمّه (السيدة آمنة بنت وهْب) بجدّه تبشّره ، فأقبل فرحاً مسروراً ، وسماه (محمداً) ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب من قبل ؛ ولكن أراد الله أن يحقّق ما قدّره وذكره فى الكتب السماوية التى جاء بها الأنبياء ، وهى : التّوراة والإنجيل ، إذ قال تعالى (وإذْ قالَ عيسَى بنُ مريمَ يا بنى إسرائيلَ إنى رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بينَ يدَىّ منَ التّوراةِ ومُبشّراً برَسولٍ يأتى منْ بعدى اسمُهُ أحمدُ) .

وألهم الله تعالى جدّه عبدَ المطلب أن يسمّيَه بهذا الاسم إنفاذاً لأمر ربه .

وكانت حاضنته (أمّ أيمن بركة الحبشية) أمَةَ أبيه عبدِ الله . وكان أبوه (عبدُ الله)

قد مات وهو فى بطن أمّه ولم يترك له مالاً ، فولد صلى الله عليه وسلم يتيماً فقيراً كما قال الله تعالى (ألمْ يجدكَ يتيماً فآوَى) « سورة الضحى » .

وقد دلّت الروايات الصحيحة على اتّصافه صلى الله عليه وسلم حين الولادة بصفات تليق بمقامه السّامى . إذ وُلد صلى الله عليه وسلم نظيفاً مختوناً مكحولاً ، يعلوه النّور والبهاء ، رامقاً بطرْفه إلى السماء .

وفى ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم شاهد كثيرون ما يدلّ على شرفه وعظيم قدره من الآيات البيّنات ، والمعجزات الباهرات ، مثل تنكيس الأصنام ، وارتجاج إيوان كسرى (أى اهتزاز القصر العظيم الذى كان لكسرى مَلكِ الفرس) حتى انشقّ سقفه وسقط من زينته أجزاء ، وخمود نار فارس (أى انطفاء النّار التى كانت دولة الفرس تعبدها ، وكان لها ألف عام لم تخمد) إلى غير ذلك من العجائب والآثار .

وقال فى حمله وولادته حسان بن ثابت الشاعر العربى العظيم :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرّسول نبىّ الأمّة الهادى

وقال أيضا فى وصفه :

وأحسن منك لم تر قطّ عينى وأجمل منك لم تلد النّساءُ
خُلقتَ مبرأً من كلّ عيبٍ كأنك قد خُلقتَ كما تشاءُ

وقال أمير الشعراء شوقى بك رحمه الله قصيدة طويلة فى ذكرى مولده ، نقتطف منها الأبيات الآتية :

وُلد الهُدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسّمٌ وثناء
الرّوح والملأ الملائك حوله للدّين والدّنيا به بُشَراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى والمُنتهى والسّدرة العصماء
وحديقة الفرقان ضاحكة الرُّبى بالترجمان شذيةٌ غنّاء
والوحى يقطر سلسلاً فى سلسلٍ واللّوْحُ والقلَمُ البديع رداءُ
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة فى اللوح واسم محمدٍ طغراء
اسم الجلالة فى بديع حروفه ألف هنالك واسم « طه» الباء

هذا هو ميلاده صلى الله عليه وسلم . أما سيرته النّبويّة فهى طويلةٌ جداً ، ولا يتّسع المقام لذكرها هنا . وسنقتصر على ذكر خلاصتها بعد ذلك .

المحاضرة السابعة عشرة :

خلاصة سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

نبي الاسلام فى أدوار حياته

النبيّ العربيّ ، الهاشميّ القرشيّ . أكرم العرب نسباً . وأشرفهم حسباً . هو محمد ابن عبدِ الله بنِ عبدِ المطلب بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ ، وينتهى نسبه إلى عدنانَ . ويتّصل عدنان هذا بسيدنا إسماعيل ابنِ سيدنا إبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام .

ويرجّحون أنه وُلد بالشّعب بمكة المكرّمة فى ثانى عشر ربيع الأول من عام الفيل سنة ٥٧١ ميلاديّة : أى العام الذى حبس الله الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد (أبرهةُ) قائد جيش النّجاشى ملك الحبشة ، فدمّرهم الله أشنع تدمير . وجعل كيدهم فى تضليل . إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام كما جاء فى سورة الفيل .

وقد وضعته والدته السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف مقطوعَ السُّرّة . مختوناً نظيفاً . مدهوناً مكحولاً . يعلوه النُّور والبهاء . رافعاً رأسه إلى السماء .

وفى يوم ولادته شاهد الكثيرون مايدلّ على شرفه وعِظَم قدره من الآيات الباهرات مثل تنكيس الأصنام (انقلابها على وجهها) وانشقاق إيوان كسرى ، وخمود نار فارس التى كانوا يعبدونها (وكانت لم تخمد ألف عام) وجفاف بحيرة ساوة . وغير ذلك من العجائب .

مات والده بعد شهرين من حمله فى المدينة عند أخواله بنى النّجار وعمره ١٨ سنة . ولم يترك غير خمسة من الإبل وجارية .

ولما ولد صلى الله عليه وسلم أرضعته أمّه ثلاثة أيّام . وبعدها أرضعته (ثويبة) مولاة عمّه أبى لهبٍ أيّاما . وبعدها حليمة السّعديّة بنت أبى ذؤيب المشهورة فى العرب فأخذته ورجعت به إلى قبيلتها (هوازن) وبقى عندها إلى الفطام ، وبعده بسنتين أيضاً .

وكم شاهدت فى تلك المدة من الخيرات التى فاضت عليها وعلى قومها ببركته . ثم عادت إلى مكة وأسلمته إلى أمّه آمنةَ . فقامت بحضانته ومعها أمّ أيمنَ . وقام جدّه عبد المطلب بكفالته خير قيام . فكان يحنو عليه أكثر من أولاده . لما رأى عليه من علامات النجابة والمجد .

ولما بلغ ستّ سنين . ذهبت به أمه وأمّ أيمن إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه ، فمكثت عندهم شهرًا . وبينما هي عائدة إذ توفيت (بالأبواء) « قرية بين مكة والمدينة » فأوصلته أمّ أيمن إلى جدّه بمكة ، وتولّت وحدها حضانته ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول لها « أنت أمي بعد أمي » .

ثم لمّا بلغ ثمانيَ سنواتٍ توفي جدّه عبد المطلب ، فقام عمه أبو طالب بكفالته ، واعتنى به اعتناء كبيرًا حتى قدّمه على أولاده في كل شيء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له ، ولأنه رآه بعيدًا عن كل شائبة لهوٍ ونقصٍ مما يميل إليه الأطفال عادةً ، وببركته أصبح عمه في سعةٍ من العيش بعد أن كان في ضيق .

ولما بلغ اثنتي عشَرة سنةً ، خرج عليه الصلاة والسلام مع عمّه في تجارةٍ له إلى الشّام . فعرفه هناك الراهب (بَحيرا) بعلامات النّبوّة المذكورة في كتبهم المقدّسة ، فقال : سيكون لهذا الغلام شأنٌ عظيمٌ ، وسيبعثه الله رحمةً للعالمين .

ولما بلغ نحو عشرين سنة : حضر مع قريشٍ الحربَ المُسمّاة بحربِ الفِجَار ، وكان يجمع السهام لأعمامه فيها ويرمي معهم ، فكلّل الله عملهم بالنّصر على أعدائهم الذين انتهكوا إذ ذاك حُرُماتِ البيت المعظّم عند جميع العرب .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشّام في تجارة لخديجة بنت خويلد ومعه ميسرةُ غلامها . فعرفه الراهب (نسطورا) وقال : هذا آخر النّبيّين ، ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج . ثم حضروا سوق بصرى (بلدٌ على الحدود بين الشام والعرب) وباعوا واشتروا فربحوا ضعف ما كانوا يربحون .

فلما عادوا ورأت السيدة خديجة ربحها العظيم . وعرفت أمانته وصدقه ، وشاهدت بعض علامات النّبوّة . وأخبرها غلامها بكلام الراهب ، وبما رآه بنفسه ، بعثها ذلك على الرغبة في التزوّج به . وهي من أعاظم قريشٍ نسباً وحسباً ، وأكثرهم مالاً وثروةً - وكم من عظيمٍ خطبها ، وبذل لها الأموال الطّائلة فأبت ، ولكن لما خطبها أبو طالب لمحمد عليه الصلاة والسلام أجابت بالقبول لما توسّمته فيه من الخير والبركة ، فتزوّجها وهي بنت أربعين سنة بعد (أبي هالة) المتوفى عنها وعن ولدها (هند) هو ربيب المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولم يتزوج غيرها حتى توفّيت . وكان عمره وقتئذٍ خمساً وعشرين سنةً . ورزق منها بجميع أولاده السّتة (وَلَدَيْن وأربع إناث) وهم :

سيدنا عبد الله ، وسيدنا القاسم ، والسيدة فاطمة ، والسيدة زينب ، والسيدة رقيّة ، والسيدة أم كُلثوم .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنةً شرعت قريشٌ فى بناء الكعبة . فكان ينقل الحجارة من الجبل مع أشراف مكة . وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً شديداً كاد أن تكون عاقبته الحرب . لولا أن أبا أميّة المخزومىّ الذى كان أكبرهم سنّا قال : لاتختلفوا وحكّموا بينكم من ترضَوْنه . واتفقوا على أول داخلٍ من باب بنى شيبة ، فاذا الداخل محمد . فاطمأنّ الجميع له وقالوا : هذا الأمين ، وكلّنا نرضى بقضائه (لأنه من حداثة سنّه كان مشهوراً بينهم بالأفعال الصالحة والأعمال السّديدة : من الحلم ، والصبر . والزُّهد . والحياء . والصدق . والعفاف . والأمانة . حتى إنهم لقّبوه بالصادق الأمين فى صغره) .

فلما أخبره الخبر . بسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال : (لتأخذ كل قبيلة من طرَفه) ففعلوا واحتملوه حتى إذا انتهوْا إلى موضعه أخذه عليه الصلاة والسلام ووضعه بيده الشّريفة .

وقد نشأ عليه الصلاة والسلام فى حالة صغره يتيماً فقيراً . فكفله جده عبد المطلب ثم عمُّه أبو طالب . ولما قوى على العمل اشتغل بحرفة الأنبياء . وهى : رعاية الغنم لأهل مكة على بعضٍ منها . ثم اشتغل بالتجارة مع عمّه . ولما تزوّج خديجة عمل فى مالها ، فكانت معيشته كلُّها من كسب يده .

فمما تقدم جميعه يُعلَم كيف كان تواضعه صلى الله عليه وسلم مع علوّ قدره العظيم . وكيف كان احترامه بين قومه وشهرتُه من صغره بالصدق والأمانة . ومهارته وسداد رأيه . وحُسن سياسته . وقوّة عقله وفكره وأعضائه . وأخْذه فى أسباب المعيشة . واعتمادُه على نفسه مدة حياته . حتى لايكون عالةً على الغير .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام أربعين سنة . بعثه الله رسولاً إلى الخلق أجمعين . ليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور . وذلك أنه كان يتعبَّد فى غار حراء (جبلٌ قريبٌ من مكة) على دين إبراهيم عليه السلام . وبينما هو معتكفٌ فيه فى يوم الاثنين ١٧ رمضان ، إذ ظهر له الملَك وقال : يامحمدُ أبشر . أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : اقرأ ، فقال محمد : ما أنا بقارئ (لأنه لم يتعلَّم القراءة) فضمه ثم قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ . فضمه ثم قال له : (اقرأ باسم ربِّكَ الَّذى

خلَقَ . خلَقَ الإنسانَ منْ علَقٍ . اقرأ وربُّكَ الأكرَمُ ، الّذى علّمَ بالقلمِ ، علّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ) فقرأها . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم على هذا النبيّ العظيم .

ثم رجع إلى خديجة يرجف فؤاده من الخوف وقال : زمّلونى زمّلونى (أى لفّونى فى ثوب) فزمّلوه حتى ذهب عنه الخوف . ثم أخبر خديجة بما جرى ، وقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت : كلا ، والله لايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ . وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف . وتُعين على نوائب الحقّ .

ثم انطلقت به إلى (ورقةَ بن نوفل) لأنه كان أعلم العرب بما فى الكتب العبرانية ، فقال ورقة : هذا الناموس (الوحى : أى جبريل) الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك . فقال صلى الله عليه وسلم « أوَ مُخرجىّ هم ؟ » قال : نعم . لم يأت أحدٌ قط بمثل ماجئت به إلا عُودى . وإن يُدركْنى يومك أنصرْك نصراً مؤزراً (شديداً) .

ثم احتبس عنه الوحى مدة . ثم نزل بقوله تعالى : (يا أيها المُدّثّر . قُم فأنذر ، وربّكَ فكبر . وثيابك فطهّر . والرُّجز فاهجُر ، ولا تَمْنُنْ تستكثر ، ولربّكَ فاصبر) ومعناه : يا أيها المتلفّف بالثّوب ، قم خوّف النّاس من عبادة غير الله ، وعظّمه . ونظّف ثيابك . واترك الفاحش من القول . ولا تُعط شيئاً وتستكثره ، واصبر على الأذى .

فقام عليه الصلاة والسلام يدعو قريشاً إلى عبادة ربّه ، ويُرشدهم إلى النّور الذى جاء به . فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة ، وبادروا بتصديقه . فأول من آمن به من الرجال أبو بكر الصديق . ومن النّساء خديجة . ومن الصبيان علىّ بن أبى طالب ، ومن الموالى زيد بن حارثة . أو بلال .

ثم أخذ أبو بكر الصديق يدعو أصحابه للإسلام ومن يثق به من قريش . فأسلم عثمان ابن عفّان والزبير بن العوّام وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أشراف مكة .

ثم مكث الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس سرّا حتى نزل قوله تعالى : (فاصْدَعْ بما تؤْمَر وأعْرِض عنِ المشركينَ) وقوله : (وأنذرْ عَشيرَتك الأقربين) فجهر بالدّعوة . وأخذ أمره يظهر رويداً . فاستاء لذلك أهل مكة ، ورأوْا فى دعوته عيباً فى دينهم . فعزموا على الإيقاع به وبأصحابه .

ولما رأى منهم ذلك . هجر مكة هو وبعض أصحابه إلى المدينة . وذلك سنة ٦٢٢ م

وهى السنة التى يبدأ منها تاريخ الإسلام الهجرى ، فلاقاه أهل المدينة بالإكرام ، ونصروه فسمُّوا « الأنصار » ، كما سمّى من هاجر معه « المهاجرين » .

مكث الرسول ثلاث عشرة سنة بمكة من مبعثه إلى هجرته يدعو النَّاس إلى الإسلام بالعرف واللِّين . مبشِّرًا ونذيرًا ، وصابرًا على الأذى . كما قال تعالى (يا أيها النبىُّ إنَّا أرْسلناكَ شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرًا . وبشِّرِ المؤمنينَ بأنَّ لهم منَ اللهِ فضلاً كبيراً . ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ودَعْ أذاهُم وتوكَّلْ على اللهِ وكَفَى باللهِ وكيلاً) .

ولما اشتدّ طغيان أهل مكة . وتآمروا على قتله . وأخرجوه من داره . وبدءوا بالعداء والغدر وأصرُّوا على العناد . أمره الله بالقتال . فقام يغزو ويجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الدين . وهداية النَّاس إلى الطَّريق القويم . لاطمعاً فى مُلْك ولا رياسة ولا مال ولا عرَضٍ من أعراض الدنيا . ولذا قال عليه الصلاة والسلام « أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا لاإله إلا الله . فاذا قالوها عصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله » .

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً . أولها غزوة بدرٍ التى انتصر فيها المسلمون على أهل مكة انتصارًا باهرًا . ومع أن المسلمين خذلوا بعد ذلك فى معركة أُحُد . فان النَّصر كان حليفهم فى الوقائع الأُخرى . فعظمت هيبتهم واشتدت شوكتهم .

ثم غزا الرسول عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عنوةً . وحوّل الكعبة من بيت أصنامٍ إلى مسجد يَحجُّ إليه المسلمون من أقطار المعمورة فى كلّ عام .

وبفتح مكة تمَّت الغلبة على العرب . فجاءوا إليه من كلّ الجهات . ودخلوا فى طاعته ؛ ولما دخل مكة كان يقرأ سورة النصر : (إذا جاءَ نصْرُ اللهِ والفتْحُ . ورأيتَ النَّاسَ يدخلونَ فى دينِ اللهِ أفْوَاجاً . فسبِّح بحمدِ ربِّكَ واسْتغفرْهُ إنَّهُ كانَ توَّاباً) .

ثم أمر بإخراج الأصنام من الكعبة . فأخرجت . وكانت ٣٦٠ صنما . وجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : (جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ . إن الباطلَ كانَ زَهوقاً) .

بعد هذا الفتح المُبين . ودخول الناس فى دين الله أفواجاً . بلغه عليه الصلاة والسلام أن بعض القبائل المجاورة لمكة تحالفت على مُقاتلته . فخرج بجيشه وحمل على الكفَّار وهزمهم شرّ هزيمة . وتفرّقوا فى كل جهة . فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون

حتى أسروا منهم خاتما كثيرًا . وغنموا ما لا يحصى من الإبل والغنم والدراهم ، وفى هذه الغزوة المعروفة بغزوة حنين . أسلم خلق كثيرون من المشركين ، لما رأوا من انتصار المسلمين وعناية الله بهم .

وفى السنة العاشرة من الهجرة . حيث انتشر الإسلام ، واتّسعت دائرته ، وعلت حكمته . وأمنت الجهات . خرج الرسول عليه الصلاة والسلام فى جموع كبيرة لأداء فريضة الحجّ . فدخل الكعبة وأدّى نسكه ، ثم خطب يوم النّحر (بمِنى) خطبته التى بين فيها الدين . وأوضح معالمه . وأكثر فيها من قوله : « ألا هل بلّغتُ ، اللّهمّ فاشهد، فليبلّغِ الشّاهدُ منكم الغائبَ » ثم ودّع فيها النّاس . فسميت تلك الحَجَّةُ حجّةَ الوداع .

وفى السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبىّ صلى الله عليه وسلم غزو الروم ، فجهّز جيشاً كبيرًا . وأمّر عليه « أُسامةَ بن زيد » وفى أثناء الاستعداد طرأ المرض الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم تتمّ تلك الغزوة فى حياته ، وأتمّها بعد وفاته أبو بكر الصديق خليفته . فانه عليه الصلاة والسلام بقى مريضاً حتى فارق الدنيا . وذلك فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأوّل من تلك السنة المتممّة له ثلاثاً وستين سنة . فدفن حيث قُبِض فى حُجرة عائشة بالمدينة المنوّرة ، ومدفنه هناك يسمّى بالحرم المدنى . فصلاة الله وسلامه عليه يوم ولد . ويوم مات ، ويوم يُبعث حيًّا .

هذه خلاصة وجيزة لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وسنذكر إن شاء الله بعض شمائله وصفاته . ليعرف المسلمون عظيم قدر نبيهم . وأنه أرسل حقًّا رحمةً للعالمين . وأنه بعث لإتمام مكارم الأخلاق . وأنه سيد المرسلين على الإطلاق .

جعلنا الله من أتباعه . ووفّقنا للعمل بسنّته وشريعته .

المحاضرة الثامنة عشرة :

شمائله وصفاته عليه الصلاة والسلام

١ – كما وصفه المرحوم (الشيخ زكيّ الدين سند) :

نبيّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

لو سأل سائل عن (محمد صلى الله عليه وسلم) نبيّ الإسلام والمسلمين ؟ لأجيب : بأنه البحر الزّاخر ، والبدر المنير ، والسراج الوهّاج . والروح الذى تجلّى عليه الوحى . فجلى من أسرار المُلك والملكوت شيئاً غريباً . والحقّ الذى سدّده الحقّ ففتح فى الفضل والفضيلة والدين والدنيا فتحاً قريباً .

لازمته الرعاية قبل النّبوّة . فكان أميناً فى الأرض . أميناً فى السماء .

لاحظته العناية فى البعثة . فكان مؤيّد الحجة فى المحجة البيضاء . سرى إليه المدد الأعلى ، فكان فى جميع الأقوال والأفعال نبيّ الرحمة . وبحر الحكمة . وإمام الهدى . وعين الكمال .

فُطِم عن ثدى السيدة حليمة . لكن الأخلاق الكريمة . والأذواق السّليمة . والأعراق القويمة لم يزل منها يرضع ، وفيها يرتع . وعليها يترعرع . حتى نشأ والعناية له خادمة ، حتى طلع والهداية له ملازمة ، حتى سما وأشخص الكمال فيه قائمة . حتى نما وآيات الحقّ عليه حاكمة ، حتى أشرقت شمس النّبوّة الكاملة . وتدفّقت ينابيع الحكمة الفاضلة .

فكان قبل النّبوّة وافر الأدب : زاهر الحسب . باهر الجلال . وكان بعدها نبيّ الرحمة ، وبحر الحكمة . وإمام الهدى ، وعين الكمال .

إذا كانت مبانى الأهرام دليلاً على قوّة الأقدمين . فبانى الإسلام دليلٌ على حكمة ربّ العالمين . ومعالى نبى الإسلام آية القادر العالى والفضل المبين .

دعا محمد صلى الله عليه وسلم دعوة الدليل الصادق إلى خير السُّبل . وصبر على الإيذاء صبر أولى العزم من الرسل .

برز وحيداً فريداً بين أجلاف جفاة غلاظ شداد عتاة . لاناصر له إلا أن يضع سيف الحقّ فى رقاب الأباطيل . لامستمدّ له إلا أنه يترجم عن لسان الوحى الجليل .

لقي أشدّ ما يلقاه حقٌ من باطل ، وعالم من جاهل . تدفّقت ينابيع حكمته ، وبهرت الأبصارَ شمسُ رسالته . وتغلغلت فى القلوب آيات شريعته ، فأصبح الأعرابى الجلف حكيماً . والعربى الغضوب حليماً . والقاسى الغليظ رحيماً ، والبخيل الحريص كريماً . والمفتون بالدنيا زاهداً . والمُشرك بالله عابداً ، والكسلان نشيطاً قوياً ، والخامل نبيها ذكيًّا . والجاهل عالما ، والمفرط حازماً . والجبناء شُجعاناً . والأعداء إخواناً .

جاء (محمد صلى الله عليه وسلم) وأوروبا لم تبصر نور المدنيَّة إلا فى سمّ الخياط ، والشّرق متقاوب الكيان يُمسى فى افتتان ، ويُصبح فى اختباط . والعرب نار الحميَّة من بين أيديهم تتوقّد . والعالَم كلّه بصنوف الكوارث مهدّد ، والأخلاق على أقصى أنواع الوحشية . وإرادة الرعاة قد سَلَبت مختارات الرعيَّة .

جاء (محمد صلى الله عليه وسلم) فلم يكن ملكَ حشْدٍ وحشْرٍ ، ونهيٍ وأمرٍ ، بل نبيًّا حشد إلى الهدى عبيد الأضاليل ، وإلى التّوحيد عُبّاد التماثيل . وإلى الحقّ أبناء الأباطيل .

حشر فى القلوب القاسية رأفةً ورحمةً . وفى الأخلاق الغليظة رقّةً وحكمةً ، وفى الأرواح الخبيثة طهارةً وذمّةً . وفى الأشباح الفاترة نشاطاً وهمّة .

نهى عن إفشاء الأسرار . ومصاحبة الأشرار . والنّظر إلى بيت الجار .

نهى عن أكل الأمانات . وسبّ الأموات . وقذف المحصَنات .

نهى عن التّنفير والتعسير . والتّغرير والتّحقير ، والتّبذير والتّقتير .

نهى عن الفُحش والفحشاء . والكذب والافتراء . والجدل والمراء . والسُّمعة والرِّياء .

نهى عن التّباغض والتّنازع . والتّحاسد والتّقاطع ، والتّجالد والتّصارع .

نهى عن البذاءة والسبّ . والمثلة والضرب . والازدراء والعبّ .

نهى عن التّشبّه بالأعاجم . والقسوة على البهائم ، والفرار من الملاحم .

نهى عن الغيبة والاستماع . والنميمة والنزاع ، والمكر والخداع . وكل ردىء من العادات والطِّباع .

أمر ببرّ الوالدين . والعمل للدّارين . وحفظ اللسان والعين .

أمر بصلة الأرحام . وإلانة الكلام ، وإطعام الطّعام . وإفشاء السّلام . والصلاة بالليل والناس نيام .

أمر بحفظ العهود ، ومراقبة الربّ المعبود . وملاحظة الوجود .

أمر بالمساواة والعدل ، والتآخي والبذل . والرفق والمهل .

أمر بالصبر عند الصدمة . والشكر على النّعمة . والجدّ فى الخدمة .

أمر بما فيه سعادة العالمين . وحدود الرعايا والسلاطين .

أمر على الجملة بما فيه صلاح الدنيا والدين .

فهل بعد هذا يقال : إنّه رجلٌ ساحرٌ محتال . أو هو ملكٌ عاقلٌ كما قال من قال : هو ولا جدال نبيّ الرحمة . وبحر الحكمة . وإمام الهدى . وعين الكمال .

أخلاقه : بشاشةٌ فى لين . إخلاصٌ فى يقين ، عزيمةٌ فى دين . ذكرٌ فى استغفار . دعاءٌ فى أذكار . سكينةٌ فى وقار . تعليمٌ فى تهذيب . تشريعٌ فى تأديب . تدبيرٌ فى ترتيب . إحسانٌ فى معاملة . لطفٌ فى مجاملة .

ابتسام فى مقابلة ، سدادٌ فى آراء . صدق فى وفاء . عفافٌ فى حياء .

صبرٌ فى حلم ، حكمةٌ فى علم . حزمٌ فى عزم . فهمٌ فى جزم .

عفوٌ فى إحسان ، قوّةٌ فى برهان . زُهدٌ فى تُكلان .

خشوع فى صلاة . خنوعٌ فى مُناجاة . قنوعٌ فى حياة .

معروفٌ فى برٍّ . حفظٌ فى سرٍّ . تؤدةٌ فى كلام . صيامٌ فى قيامٍ . عدلٌ فى أحكام .

بذلٌ فى سماحة . عقلٌ فى رجاحة . قولٌ فى فصاحة .

خطارةٌ فى شأن . تواضعٌ فى سلطان . توفيق فى مداراة . صمت فى أناة .

إيفاءٌ بالعهد . وفاء بالوعد . صدقٌ فى القصد . رأفةٌ بالمؤمنين . رحمةٌ بالمساكين .

عزّةٌ لاأخذ بالصلف . علوٌ لافخر بالشّرف . سيادة لاعن مال . فوزٌ لاباحتيال . أبهةٌ فى جمال ، هيبةٌ فى جلال .

هو بالإجمال كما شهد الحقّ . ودلّ الصدق . ونطق الحال : نبيّ الرحمة . وبحر الحكمة ، وإمام الهدى . وعين الكمال .

حالته المعاشية

عاش محمد صلى الله عليه وسلم لم يلبس حريرًا ولا ذهباً . ولم يأخذ إلى الأبهة أهبة ً ولا سبباً .

لم يقل : أين سطوة الملوك وعزّة السلاطين ، بل قال : اللّهم ّ أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشُرني في زُمرة المساكين .

لم يوح إليه أن اجمع المال وكن من التاجرين المشترين . بل أوحى إليه أن « سبّح بحمد ربّك وكن من السّاجدين . واعبد ربّك حتّى يأتيَك َ اليقين » .

ما جمع بين إدامين في طعام . بل أثنى على الملح والزيت والخلّ وقال : نعم َ الإدام .

لم تمس يده امرأة ً أجنبية ً قط . ترفّعاً عن مواطن الرّيبة وتشريعاً لأمّته .

لم يغتسل عرياناً قط . حياء ً من الله وملاحظة ً لعظمته .

كان لايحقر مسكيناً لحاجته وفقره . ولا يهاب ملكاً لرفعة في قدره .

كان يستحى من الله إذا أراد دخول بيت الخلاء . حتّى كان يتقنّع بردائه من شدّة الحياء .

كان يلبس ماوجد : فمرّة ً جبة َ صوف ، ومرّة ً بُردة َ حبرة ، ومرّة ً ثوب َ قطن ، ومرّة ً شملة .

كان يركب ما وجد : فمرّة ً فرساً . ومرّة ً بعيرًا . ومرّة ً حمارًا ، ومرّة ً بغلة .

كان يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم . ويبتش ّ في وجوههم ويفرح .

كان لايجزى بالسيّئة السيّئة . بل يعفو ويصفح . ويقابل السيّئة بالإحسان .

كان يساعد أهل بيته في خدمه . وكان يحتطب . ثم يحمل الحطب وهو سيد الأمّة .

كان يجلس حيث انتهى به المجلس . حتّى إنه لم يكن يُعرف من بين أصحابه .

كان الأعرابيّ إذا جاء يسأل عن دينه لايعرفه . فيسأل عنه حتّى يهتدى إلى جنابه .

كان على رغم أنف كل معاند قوّال : نبيّ الرحمة وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

أما شريعته (عليه الصلاة والسلام) فحدّث عنها ولا حرج ، فانه لم يَشن مقام الإلهية باتحاد أو حلول أو صلب ، ولا مقام الأنبياء بزنا أو سكر أو سبّ ، ولم يضيّق على النفوس بزوجة واحدة ، أو منع طلاق ، ولم يرض بفضيحة الاعتراف بالذنوب على الإطلاق .

شريعته (على عينك يا تاجر) والسّعيد مؤمن ، والشّقىّ كافر .

نعم الحقّ ماعليه من غبار ، والصّبح لايضرّه الإنكار ، والنّاس على هدى أو ضلال مبين (وما على الرسول إلا البلاغُ المُبينُ) .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه سيرته وشريعته ، غربلوها وانخلوها لم تجدوا فيها غير الاعتدال والكمال ، وتعترفون بكل طاعة وامتثال أنه (محمد صلى الله عليه وسلم) نبىّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

٢ ـ كما وصفه المرحوم الشيخ زكىّ الدين سند :

نبىّ الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

وقد مدحه أحد الشّعراء الأفاضل فى قصيدة له فقال :

نبىٌّ قد رأى مولاه جهرًا ... وحُسن سناه يُزرى بالهلال
وتمّم للمكارم فهو حقًّا ... كمال فى كمال فى كمال
أتى والجاهليّة فى شقاء ... وجلُّ القوم يرتع فى ضلال
فبدّد شملهم وحظى بنصرٍ ... وأظهر للملا خير الفعال
وأعطاه المُهيمن ما تمنّى ... وأيّده بأبطال الرّجال
فأضحت ملّة الإسلام تعلو ... بتعضيد الصحابة خير آل
فكونوا مثلهم ياقوم تحظوا ... وتكتسبوا غدًا شرف المعالى
وتكرار الصلاة على التّهامى ... كذا صحبٍ ذوى همم عوالى
ووفّقنا لما يُرضيك ربى ... وكمّل فى الختام نجاح حالى

وهو بشهادة أحد المسيحيّين : أعظم رجل ظهر فى العالم .

حيث اقترحت جريدة الوطن البيروتيّة (وصاحبها مسيحى) على قرائها : بأن يكتبوا إليها آراءهم فى أعظم رجل ظهر فى العالم ، ولماذا ؟ فأجابها كاتب من أحرار الطّائفة المسيحيّة قائلاً :

أعظم رجال العالم على الإطلاق. رجل وضع في عشر سنين: ديناً، وفلسفةً، وشريعةً اجتماعيةً، وقوانين مدنيةً، وغيّر شريعة الحروب، وأنشأ أمّةً ودولة طاولت الدّهر. وكان أميًّا. ذلك هو (محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبد المطلب القُرَشيُّ العربيُّ نبيُّ المسلمين).

وقد تدارك النبيّ لمشروعه العظيم كل حاجاته. فوفّر لأمته ولتابعيه، وللمُلك الذى أنشأه أسباب الانتشار والخلود. بحيث إذ انقطع المسلم إلى القرآن والحديث وجد فيهما ما يهمّه من أمور دينه ودنياه.

ومن تنبّه إلى فرض الحجّ على من يملك الراحلة والنّفقة. وإسقاطه عمن لايملكهما أدرك أن الغاية من الحجّ اجتماع الموسرين والوجوه من الأمّة، للبحث فى شئون جامعتهم. وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها.

وتدارك أمر الفقير بالزكاة التى فرضها على كل مسلم بحيث إذا أدّاها المسلمون على حقّها لم يبق فى الأمّة فقير.

وجعل نواةً أبديّةً للإسلام بكون القرآن كتاباً عربيًّا يتحتّم على كل مسلمٍ أن يفهمه بلغة العرب. وإذا لم يكن فى هذا عيرُ أن فهمَ العربيّةِ حتمٌ على كل عالمٍ وإمامٍ لكفى به جامعةً لسان المسلمين.

ومهّد طريق الشيوع لأفراد الأمّة بكون المسلم لايفضل المسلمَ إلا بالتّقوى. فكان الإسلام جمهوريّةً حقيقيّة.

وسهّل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله «لافضلَ لعربىّ على عجمىّ، ولا لعجمىّ على عربىّ إلا بالتقوى».

ويسّر لغير المسلمين العيش برخاء فى بلاد الإسلام بقوله «الخلقُ كلّهم عيالُ الله. فأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله».

ونظر فى أمور العائلة. فرتّب أمور الزواج. والتّناسل، والتّوارث، ورفع من شأن المرأة.

وعدّل الأمور المدنيّة. فوضع قوانين وقضاة. للنّظر فى شئون الأفراد.

ولم يهمل ماليّة الدولة. بل وضع لها سُنداً لبيت المال.

وكان للعلم فى شريعته نصيبٌ وافر الأمل. فجعل الحكمة ضالّة المؤمن، وأوصاهم بطلب العلم ولو بالصين.

وكان لهذه الرجعة شيءٌ عظيمٌ في اقتباس المسلمين العلمَ من كلِّ أبوابه وازدهاره في أيَّامهم .

أفلا يكون الذى فعل كل هذا أعظمَ رجل ظهر فى العالم ؟ .

اللَّهمَّ إنَّا نسألك أن توفِّق جميع المسلمين إلى الاعتصام بهدى هذا النبيِّ الأمين ، وأن تُصلح لهم أمور الدنيا والدين . إنك على كلِّ شيءٍ قديرٍ . وبالإجابة جدير .

ملحوظة :

هناك محاضرات أخرى فى الزنا . والربا ، والخمر ، والميسر . واليانصيب . والمضاربة فى البورصة . والمخدرات . وجميعها مذكورة فى كتاب « الأمراض الاجتماعيَّة »

ثانيا

المحاضرات الخاصة بالاناث

المحاضرة الأولى :

تربية البنات

لمَّا كنت تربية البنات من أعظم المهمَّات ، وعليها تقوم سعادة الأسر ، بل سعادة الأمَّة ، رأيت أن أذكر هنا نُبذةً صغيرةً فى تربية البنات من عهد قدماء المصريِّين إلى عهد الإسلام . نقلاً عن كتاب تاريخ التربية لحضرة الأستاذ الفاضل مصطفى أمين المفتِّش بوزارة المعارف ليعرف كلّ إنسانٍ الفرق بين تربية البنات فى العهد القديم والعهد الحديث . وليأخذ بالصالح منهما فى تربية بناته . والله الموفِّق لما فيه صلاح البنات والأمَّهات .

١ — تربية البنات عند قدماء المصريين وحظ النساء منها

البنات عند قدماء المصريِّين كنّ يتعلَّمن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، ولكنهنّ لايتعدين فى ذلك حدود التَّعليم الأوّلى .

وعلى الرغم من ذلك كان هذا التعليم الأولى خير معوانٍ لهنّ على تربية أولادهنّ فى المنازل فى الأدوار الأولى من أدوار الحياة .

وكان للمرأة منزلةٌ رفيعةٌ ومكانةٌ عاليةٌ ، وكان لها من الإجلال والاحترام أكبر حظّ وأوفر نصيب . فقد كانت سيدةً فى بيتها ، عزيزةً فى قومها ، مهيبةً بين الخدم والحشم . نافذة الكلمة بين جميع أفراد الأسرة ؛ وقد كان زوجها يُجلُّها ويمنحها من أنواع العطف والحنان ما لم تتمتَّع به نساء الشَّرق فى ذلك الحين ؛ وكان الرجل لايتزوّج فى الغالب أكثر من واحدةٍ . على الرغم من أن التَّشريعة المصريَّة القديمة كانت تُبيح تعدُّد الزوجات . وكان الملوك والأغنياء الذين لايقنعون بواحدة يتَّخذون من يشاءون من الجوارى .

وكان النّساء يتمتّعن بحريتهن كاملةً ، فيخرجن إلى الأسواق بغير نقاب ، ويحضرن الاحتفالات ، ويحادثن الرجال ، ويشتركن معهم فى شئون الحياة ، ويماثلنهم فى الحقوق المدنيّة .

٢ — تربية البنات عند اليونان « فى إسبرطه »

كانت تربية البنات فى (إسبرطه) تشبه تربية الغلمان شبهاً كثيراً حتى فى خشونتها ، وألعابها الرياضيّة ، وتمريناتها العسكرية الأوليّة . فكُنّ يتعلمن الجرى، والوثب، والقفز، ورمى الحلقات، ورشق الرماح، والمزاريق، والمصارعة، والملاكمة كما يتعلّمها الغلمان .

وكنّ يتعلّمن الرقص والغناء والإنشاد والضّرب بالنّاى وعلى العيدان .

وكان من نُظُم التربية فى (إسبرطه) أن تربى البنات منعزلات عن الذكور، وأن يرخّص لهنّ فى الإقامة فى منازلهن ، وأن تتولى النّساء هذه التربية . بينما كانت تربية الغلمان ترمى إلى إعداد جنود قادرين على الجلاد والكفاح واحتمال المشاقّ .

كانت تربية البنات ترمى إلى إعداد أمّهات يلدن الجنود الأقوياء ، ويقدرن على غرس الروح الدينية والعواطف الوطنيّة فى أولادهن .

وكانت المرأة (الإسبرطيّة) موضعاً لإجلال زوجها ، واحترام أولادها ، معروفةً بالطُّهر والعفاف ، مشهورةً بالأخلاق الفاضلة ، والسّجايا النبيلة ، وكانت سليمة البدن قويّة العضلات ، مشغوفةً بحبّ الوطن ، تهب له أرواح أولادها ، وتحبّب إليهم الموت فى سبيل إعزازه ونُصرته .

يدلك على مبلغ وطنيّتها الصادقة ، الممزوجة بنُكران الذات، مايُروى من أن إحدى الأمّهات الإسبرطيات قامت تودّع ولدها الذاهب إلى الحرب : فكانت كلمتها له : (عُد بترسك أو محمولاً عليه) .

وما قيل من أن امرأةً سمعت بفرار ولدها من وجوه الأعداء ، فأسرعت لقائه وقتلته وقالت « إن نهر افروتاس لايشرب منه الجبناء » .

ومن ذلك أيضاً ما يُحكى عن امرأة أُخرى خرجت لاستقبال البريد : واستماع أخبار الحروب ، فأخبرها القادمون بموت أولادها الخمسة فى ساحة القتال . فأجابت وهى هادئةٌ ثابتة الجأش « ما لهذا أتيت ، هل النّصر لنا ؟ ، فأجيبت نعم . فقالت : « هلمّوا نُقيم الصلاة شكراً للآلهة » .

٣ – تربية البنات فى أثينا

كان الأثينيّون يُغْفِلون تربية البنات قصداً إذ كانوا يرون أن الغرض من التربية إنما هو إعداد النشء للحياة العمليّة ، والقيام بواجب الوطن ، وأنّ الرجال وحدهم هم الجديرون بهذه الحياة وهذه الواجبات دون النّساء . ولذلك وجب تعليم البنين وإهمال البنات .

وكانوا يذهبون إلى أن المرأة التى ينحصر واجبها فى أن تكون زوجةً ، وأمًّا لاتحتاج إلى معارفَ فوق ما يُساعدها على تدبير منزلها . وكل امرأة تمتاز بشىء من العلوم والمعارف ، وتظهر عليها مسحةٌ من الذكاء والقدرة العقليّة تُعدّ فى نظرهم ناقصة الأخلاق .

تظلّ الفتاة الأثينيّة من مبدأ ولادتها فى جوار أمّها لاتتعلّم شيئاً سوى الخضوع والطّاعة ، وغزل الصوف ، وحياكته . فاذا بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، زوّجها أهلها من غير أن تكون لها حريّة فى اختيار زوجها ، وحينئذ تلزم بيتها لاتخرج منه إلا فى الاعياد والمواسم الدينيّة .

والذات كان الرجل يتزوّجها لتلد له أولاداً ، ولتقوم له بحراسة المنزل وتدبير شئونه . ولأن الدين فوق ذلك يقضى على المرء بأن تكون له حليلة .

وكان (أفلاطون) يرى أن تكون تربية البنات مماثلة لتربية البنين ، بحيث لاتختلف عنها فى شىء ما . فيشتركن فى جميع أنواع التعلم ، ويدخلن معهم ميدان المصارعة ، ويتمرنّ [illegible] الأعمال البدنيّة العنيفة ، حاسرات عاريات كالرجال ، وذلك لأن واجب المرأة [illegible] على رأيه لا يخالف واجب الرجل . فليس للرجال واجب ، وللنساء آخر .

قال [illegible] كتابه [illegible] ([illegible]) : ليس للرجال فى إدارة أعمال الحكومة واجبات [illegible] [illegible] . وإنما واجبات الرجال هى واجبات النساء . [illegible] [illegible] الواجب . وما المرأة فى الحقيقة إلا رجلٌ ضعيف .

وقال فى موضع آخر : [illegible] بين إناث الكلاب وذكورها ، فنخرج الذكور [illegible] [illegible] . وندع الإناث بحجّة أن الحمل والإرضاع [illegible] [illegible] فى الصيد والحراسة . حقًّا إنّا لانفعل ذلك .

[illegible] الحال مع الرجال . فيكنّ

فيلسوفات يشتركن فى أعمال الحكومة ، ويَسُسْن أمورها ، ويتولين قيادة الأعمال ويكن جنديات يركبن الخيل ، ويلبسن لباس الحرب ، ويذُدن عن الأوطان .

ويكن صانعات وتاجرات يكتسبن المال ويُساعدن به الحكومة كلما دعت الحال .

ولما كانت أعمال المنازل والعناية بالأطفال قد تعوقهن عن مُشاركة الرجال فى الأعمال والواجبات ، رأى أفلاطون أن يُعفَيْنَ من ذلك ، فاقترح أن تكون معيشة النّاس جميعاً مشتركة . بحيث يأكلن على الموائد العامّة ، وأن تتولى الحكومة تربية من يولد من الأطفال الأقوياء . أما المولود الضعيف الذى لاترى الحكومة خيراً فى حياته فيُقتل ويحرَم الحياة .

٤ — تربية البنات فى عصر الدولة الرومية

بعـد انقضاء العصر الأوّل من عصور الدولة الرومية تمتّع النّساء بقسطٍ كبير من الحريّة ، ونصيب عظيم من التّثقيف والتّهذيب ؛ فقد كان الروم يُساوون بين المرء وزوجه ، ويدعون الزوجة أمّ الأسرة ، كما كانوا يدعون الرجل أبا الأسرة .

وكانت المرأة عندهم سيدة دارها ، تُسيطر على الإماء ، وتوزّع بينهن الأعمال المنزليّة الشّاقّة من طحن وعجن وخبز . وتشتغل بالغزل والحياكة وتدبير شئون البيت .

ولم تكن المرأة اليونانية تعيش فى معزلٍ عن الرجال ، وإنما كانت تختلط بهم ، وتعدو إلى أسواق المدينة ، وتغشى المسارح والمحافل ودور القضاء .

كذلك كانت تربية المرأة فى (رومة) أرقى وأتمّ منها فى (أثينا) فهناك من الدلائل ما لايدع مجالاً للشكّ فى أن البنات كنّ يذهبن إلى المدارس الابتدائيّة التى يذهب إليها الصبيان ، ولكن النّساء لم يكن لهن أن يختلطن بالرجال فى دور العلم ومعاهد التّعليم . ومن أرادت منهن أن تستكمل معارفها بعد الانتهاء من المدارس الابتدائية ، ابتعت ذلك عند معلّمين خاصين يعلّمونها فى المنزل ، أو انتظرت إلى ما بعد الزواج فأخذت عن بعلها ما تبتغيه من علمٍ وأدب .

ومن أكبر الدعاه إلى تهذيب المرأه الروميّة (موسونيوس) الفيلسوف الذائع الصيت فقد كتب جملة رسائل فى التربية دعا فيها إلى العنايه بتثقيف المرأة . وأوجب مساواتها بالرجل فى التربية والتّعليم . مستنداً فى ذلك إلى أن الفضائل التى يجب أن يتحلّى بها الرجل هى بعينها التى يجب أن تتحلّى بها المرأه .

ولما كانت الوسيلة الفذّة فى اكتساب هذه الفضائل هى التربية لم يكن هناك بدّ من أن تكون هذه التربية متّحدة فى الرجال والنّساء .

ولقد كان (موسوتيوس) حريصاً على أخذ النساء بالفلسفة . ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله : إذا سألنى سائل : أىُّ العلوم له أسمى المنازل فى تربية المرأة وتهذيبها ؟ قلت له فى الجواب : إذا كان الرجل لاتكمل تربيته بغير دراسة الفلسفة فكذلك المرأة .

٥ — تربية البنات فى العصر الجاهلى

كان للمرأة العربية فى الجاهلية من علوّ المنزلة وسموّ المكانة ، وجميل الأخلاق ، ، ونبيل الصفات ما للرجل . وكان لها وفرة عقل . وحصافة رأى ، وصفاء ذهن ، وطيب أخلاق وآداب .

وكذلك كانت موضع الكرامة والإجلال . يأتمر الرجل بأمرها ، وينزل فى الحادثات على حكمها .

وكانت تُستشار فى أمر زواجها ، وتُترك لها الحريّة فى اختيار بعلها ، وقلّ أن غُلبت امرأةٌ من نساء العرب على أمرها فى شأن تزويجها ، ولهم فى ذلك أقوال مأثورة ، وأحاديث مشهورة . يرجع إليها فى كتب الآداب والأخبار .

أما التربية ، فكان حظُّ المرأة منها وافرًا ، فكانت تتعلّم الشّعر والخطابة وبعض الأعمال والفنون التى يجيدها الرجال ، وكانت فوق ذلك تتعلّم تدبير المنازل ، وإعداد المطاعم ورعى الماشية . وهنء الإبل . وغزل الصوف ، والضرب على الدُّفّ والطبل؛ وكانت تتعلّم أسو الجروح فى أوقات الحروب على نحو ما يفعل نساء الفرنجة الآن .

وكانت الأمّ العربيّة تعدّ بنتها لتكون زوجةً صالحةً تحفظ حقوق زوجها ، وتكون فى المستقبل أمًّا تحسن تربية الأطفال وتهذيبهم . فكثيرًا ما كانت الأم تختلى ببنتها ليلة زفافها فتبصّرها بحقوق الزوج . وتؤدى إليها من النّصائح ما يُساعدها على أن تكون خير أمّ . وفى كتب الأخبار من هذه الوصايا شىءٌ كثيرٌ مستفيض .

نساء العمالقة

كان للنّساء عند العمالقة فى العراق منزلةٌ عاليةٌ ، ومكانةٌ ساميةٌ ، فكنّ يتمتّعن بحريّتهنّ واستقلالهنّ كنساء الأمم المتمدينة فى هذا العصر ، وكنّ مساويات للرجال

فى الحقوق ، يُشاركنهم فى أعمال التجارة والصناعة والزراعة ، ويزاولن المهن القلمية ، وينخرطن فى خدمة الدواوين والحكومة ، وكان الزواج وثيق العُرى عندهم ، لايُعتدُّ به إلا بعقد كتابى . وكان للمرأة عند زوجها نصيبٌ كبيرٌ من الإجلال .

نعم كان للرجل أن يقتنى الجوارى ويتسرّى ، ولكن لايُقبَل منه ذلك إلا إذا كانت زوجه عقيماً ، فهو يفعله ابتغاء النّسل لاغير .

النساء فى العصر الاسلامى

كانت المرأة العربيّة فى العصر الإسلامى ، مشهورةً بالعفّة والأنفة ، معروفةً بسداد الرأى ، ورُجحان العقل ؛ وكان علمها على الجملة غزيرًا ، وفضلها عظيماً ، وتأثيرها فى الدولة كبيراً .

وكانت تقرأ القرآن ، وتحفظ الحديث ، وتنشد الأشعار ، وتروى الأخبار ، وتُشارك الرجال فى شئون السياسة ، وتسير معهم إلى ساحات القتال .

وقد اشتهر كثيرٌ من نساء المسلمين وجرت بهنّ الأمثال ، منهنّ عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها . فانها كانت ذات عقلٍ راجح ، وعلمٍ واسع ، وكانت حجّةً فى فهم الحديث ومسائل الدين .

ومنهن عائشة بنت طلحة بن عبد الله الصحابى ، فقد كانت ذات عقل ورأى وعلم وأدب ؛ وكثيرًا ما كانت تجلس فى بيتها بالمدينة فيقعد إليها الشُّعراء ويُنشِدون أشعارهم بين يديها فتجيزهم .

ومنهنّ تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الرشيد الملقبة بالخنساء ، الشّاعرة المعترف لها بالتّقدُّم ، وكانت ذات رأيٍ وعفّةٍ ودِين ، ومما يدلّ على نُبلها وفضلها ما كان من أمرها فى واقعة القادسيّة ؛ وذلك أنه كان لها بنون أربعة ، نفروا فى جيوش المسلمين لفتح فارس ، فودّعتهم وخطبتهم أوّل اللّيل فقالت :

« يا بَنِىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مُختارين ، والله الذى لاإله إلا هو ، إنكم لبنوا رجلٍ واحدٍ ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدةٍ . ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم . واعلموا أن الدارَ الآخرة خيرٌ من الدار الفانية (اصبرُوا وصابرُوا ورابطُوا واتّقوا الله لعلّكم تُفلحون) . فاذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، فيمّموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، تَظفروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخُلد » .

فلما أسفر الصُّبح ، بادروا مراكزهم . وتقدموا واحداً بعد واحد ، ينُشدون الأراجيز حتى قُتلوا عن آخرهم . فبلغها الخبر فقالت :

« الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة » .

وقد ظهرت قوّة النِّساء بأجلى مظاهرها فى أيّام الدولة العباسيّة ، فقد أحرزت نفوذاً واسعاً . وأثّرت فى الدولة تأثيراً كبيراً ، اعتبر ذلك فى أمّهات الخُلفاء العبّاسيِّين . فقد كانت (الخيزران) أمّ الهادى والرشيد ، ذات قوّة يهابها أولادها ، ويأتمرون بأمرها .

كما أنها كانت أيام زوجها صاحبة الأمر والنهى . ولما تولى ابنها الهادى أرادت أن تسلك معه مسلكها مع أبيه . فاستبدّت بالأمر دونه . ولم يمض على توليته أربعة أشهر حتى كان الأمر كله بيدها . وأخذت المواكب تروح وتغدو إلى بابها . فساءه ذلك وجرّد سيف عزمه وحال بينها وبين التّدخُّل .

لم يكن نفوذ النِّساء وسُلطانهن مقصوراً على أمّهات الخلفاء . فقد كانت أم موسى الهاشميّة القهرمانيّة فى أيام المُقتدر ذات دهاء ونفوذ ، حتى لقد بلغ من أمرها أن تكفّلت مرّة بالخلافة لأحد العبّاسيين من أصهارها . وأخذت تبذل الأموال للقوّاد وغيرهم . ولولا أن وشى الواشون بها إلى المُقتدر لأفلحت فيما تكفّلت به .

مما تقدم لك يتضح جليّاً أن تربية المرأة العربيّة لاتقلّ عن تربية المرأة الغربيّة ، بل ربما كانت أفضل منها من حيث الغَيرة والعفّة والأمانة .

فنرجو أن توفّق المرأة المصريّة إلى تربية صحيحة . تعلو بها إلى مكانتها الأولى من العزّ والسُّؤدد .

والله الموفّق لما فيه صلاح الحال . فى الحال والاستقبال .

المحاضرة الثانية :

واجبات المرأة

ينبغى للمرأة أن تعلم علم اليقين أن عليها واجبات لابدّ من أدائها لتتميم وظيفتها ، وبدونها ينقص شأنها فى العالم ، بل تكون كلاً على المجتمع الإنسانى .

وتنحصر تلك الواجبات فيما يأتى :

١ — نحو زوجها

عليها أن تشترك معه فى حالته . فتقاسمه سرّاءه . وتُشاطره ضرّاءه . وأن تكون مطيعةً له ، ذات حكمةٍ وتدبير ، لاتبذر فى ماله ، ولا تحمّله فوق طاقته فى النّفقات وفى الملابس والزينة الباطلة . وبالإجمال يجب عليها أن تعتدل فى جميع الأحوال .

ومن أراد التفصيل فليراجع واجبات المرأة نحو زوجها فى كتاب سعادة الزوجين لصاحب هذا المقال .

٢ — نحو أولادها

المرأة مُطالَبةٌ بتعليم أبنائها وبناتها فى صغرهم النّشاطَ والهمّة والغَيرة المحمودة . وألا تُلقِىَ عليهم القصص الخرافيّة ، أو الحكايات المخيفة التى لايقبلها العقل السليم .

ويجب أن تعلّم بناتها ما يجب عليهن لأزواجهن وأسرتهنّ ، وتعلمهّن الأشغال اليدوية التى لاغنى لهنّ عنها ، وتبعدَهن عن الكسل ، وتدرّبهنّ على النّظر فى جميع الأمور المنزليّة . وتبثّ فيهنّ روح العفّة والاستقامة . وأحوال التدبير المنزلى والاقتصاد فكلها أمورٌ واجبةٌ لايُغنى عنها مال ولا جمال .

وعلى العموم تجدّ فيما يجعلهنّ أهلاً لأن يكنّ ربّاتِ بيوتٍ وأمّهاتِ أطفال .

وعليها تعليم أبنائها احترامَ والدهم وطاعتَه . واحترام الأهل والأقارب والإخوان والجيران ، ويجب أن تكون والدةً شفيقةً من جهة . وقاسيةً من جهة أخرى ، فلكلٍّ

من الشفقة والقسوة مقام خاص . وكثيراً ما تغلط الأم . فتحسب أن الشفقة تقضى عليها بترك ولدها يسير على حسب هواه ، يفعل ما يشاء ولو خالف الصواب ، فاذا صدر منه فعل القبيح، أو كلام غير لائق، تغض الطرف عنه ، وتعتذر أن قلبها لا يطاوعها على تأديبه .

والحقيقة أن قلبها يخدعها . وهذا يضر بولدها ، لأن سكوتها على ذنوبه ناتج من ضعفها وجهلها . وسكوتها على كل شيء قبيح يؤدى إلى فساد الخلق، وهذا ما يسمى بالشفقة الضارة . أما التأديب فيصلح حال الأولاد ، ويجعلهم رجالاً عاملين نافعين .

والواجب على المرأة ألا تميل كل الميل إلى أحد أولادها وتهمل الآخرين ، بل تسهر على الصغار . وترشد الكبار ، وتحفظهم من مخالطة الأشرار ، وتهتم بهم فى السنين الأُوَل من العمر ، وتراعى أخلاق كل منهم وطباعه ، وتوسع أفكارهم بالأمثلة الحسنة . وتكون قدوة صالحة لهم . لأن الصغير يلاحظ دائماً حركات والدته وتصرفاتها مع أهل بيتها . وكلامها معه أو مع غيره . ويقتدى بها أكثر مما يقتدى بغيرها .

ويحسن أن تعلم بنتها أن تخيط ما تحتاج إليه وهى أم ، وتدربها على ذلك بخياطة بعض ثيابها . لأن ذلك يرغبها فيها . ويعودها تدريجياً القيام بباقى الأعمال المنزلية .

وحبذا الأم التى تقول لبنيها كما قال إسبرطه لبنيه :

« أظهروا أنفسكم رجالاً . وزينوها بالمقاعد الحسنة التى تفيدكم فى سن الرجولة »

فان غرست مثل هذه الأخلاق فى نفوس أولادها وهم صغار جنت ثمار تعبها وكبرها وهم كبار . لأن التمدين السائر الآن فى جميع البلدان ليس إلا نتيجة اجتهاد المرأة وحسن تربيتها . و يرجع كل الفضل للأمهات فى تربية البنين والبنات .

٣ — نحو منزلها

لتعلم المرأة أن المنزل جسم هى روحه وحياته . فاذا تغافلت عنه وأهملت شأنه عتراه السقم والضعف . وكانت حياته ناقصة .

فلتحرص أولاً على صحتها ما استطاعت . فبصحتها تكون صحة الجميع ، وباعتلالها يكون الخلل والاعتلال . وينبغى أن تكون كثيرة الصبر والجلد . فانها إذا رتبت

أحواله ، سهُل عليها كلّ ذلك ، وإذا أشكل عليها أمرٌ من أموره فلتشاور فيه ربّ منزلها وسيده ، وهو زوجها ، فباشتراكهما ومعاونتهما يكون صلاح البيت وعمرانه .

وليست سُلطة المرأة فى دولتها الصغيرة مقصورةً على تدبير المنزل وترتيبه ونظافته بل من ذلك جذب قلب زوجها نحوها ونحو منزله حتى لايخرج منه ، ويضطرّ للاتفاق فى الخارج ، فتكون الخسارة عليها وعليه . وذلك بأن تزيّن له وجه الحياة بأنسها ورقّة أخلاقها ، وتحلّىَ لديه عيشة المنزل بجميل طبعها ، وحُسنِ صنيعها ؛ فلا تقع عيناه إلا على حسَن ، ولا يتردد فى آذانه إلا طيّب الحديث ، ولا يدخل منزله تعباً مهموماً إلا وجد ما يُزيل هذا ، وذلك بلطيف الابتسام .

هذه هى خلاصة واجبات المرأة ، فنرجو الله أن يوفّقها للعمل بها ، لتفلح حال الأُسَر المصرية ، وتسعد الأمّة بها .

المحاضرة الثالثة :

المرأة ووظيفتها

لمناسبة نجاح الآنسة نعيمة الأيوبى فى امتحان مدرسة الحقوق ، وحصولها على شهادة (الليسانس) وطلب التحاقها بالمحاماة ، وفوز غيرها من طالبات كليّة الآداب بشهادة الليسانس أيضا ، قد تجدّد الكلام فى هذه الأيام عن المرأة ووظيفتها ، وقامت طائفةٌ من المتحيزين للمرأة الجديدة . يهللون ويكبرون بهذا الانتصار الباهر ، ويدّعون أن المرأة المصرية قد بلغت غايتها . وأصبحت تُضارع الرجل فى أعماله - بخٍ بخٍ .

على أنهم لو أمعنوا النّظر قليلاً . وبحثوا مليًّا فى وظيفة المرأة التى خُلقت من أجلها ارجعوا إلى الحقّ . وعلموا أن هذا خروجٌ منها عن حدود وظيفتها . كما سنبيّنه بالأدلّة الآتية :

الدليل الأول

قال حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا فى كتاب تربية المرأة فى باب وظيفة المرأة فى الصحيفة رقم ١٧ ما يأتى :

إن المرأة أضعف من الرجل جسماً وإدراكاً .

أمّا جسماً . فلكونها معرّضةً للوارم الأنوثة . وهى (كما هو ثابت) أمراض تهدّ القوى . وتضعف البنية بشهادة الأطبّاء .

وأما إدراكيا فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل . وتربية الأطفال والتحفّظ عليهم . غيرَ معرّضةٍ مثل الرجل لمناشئ تنمية القوّة الإدراكية . فتكون النتيجة اللازمة لكل هذه المقدمات . أن المرأة لا تساوى الرجل فى كلّ حيثية إنسانيّة .

وجاء فى الصحيفة ١٩ : إن الله خلق المرأة للملاذّ الدنيوية . وحفظ الشئون المنزلية ، وإنه لم يخلق النّساء لمقابلة الرجال . ولا للآراء والسياسات . ولو شاء لأعطاهنّ الشّجاعة والبسالة . والفتوّة والتّهامه . مع أن الأمر بخلاف ذلك .

ولو أرادت المرأة أن تسلك مسالك الرجال . وتتعوّد على تحمّل ثقيل الأعمال لتقوى وتساوى الرجل فى جميع أحواله . وتُضاهيه فى أقواله وأفعاله ، أفلا يكون ذلك منها

خروجاً عن الوظيفة التى خصّها بها الله سبحانه وتعالى ؟ لأنه كما أن نظام الكون وسعادته قضيا بأن يخلق النّاس أطواراً ، وبأنّ أعمال الرجال يجب أن تكون مقسّمة بينهم ، وبأن يكون لكل منهم وظيفةٌ مخصوصة ينقطع لها فيتقنها ؛ فطائفة للسيادة ، وطائفة للسياسة ، وطائفةٌ للعلم ، وأخرى للبأس والتجارة . كذلك أراد الله أن يكون لكلّ من صنفى بنى الإنسان ، ولكلّ من (المرأة والرجل) عملٌ مخصوصٌ لايتعدّاه ، وإلا حصل الخلط والتّشويش ، وبمجموع عمليهما تمّ السّعادة لكليهما .

الدليل الثانى

قال المرحوم الأستاذ الفاضل الشيخ عبد العزيز جاويش ، مفتش أوّل اللّغة العربية بوزارة المعارف ، فى المحاضرة التى ألقاها بمدرسة الصناع اللّيلية بشبرا ، ونُشرت خلاصتّها بجريدة اللّواء فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ ما يأتى :

نعم ، إن الله خلق بين الرجل والمرأة بعض فروق فى أصل خلقتّهما . فبينا نرى الرجل شديداً، قويًّا صبورًا ، ذا همّة ونشاط ، لأنه منوطٌ بتحمُّل المشاقّ واقتحام الأخطار واجتياز العقبات التى تعترضه فى سبيل الحياة ، والدفاع عن شرفه وعرضه ، وحاله وحريّته ، بالذّود عن بلاده ، وصدق جهاده - نرى المرأة ضعيفة الجسم ، رقيقة الطبع ، سريعة التأثّر والانفعال ، وذلك لمناسبة أشغالها التى (تنحصر) فى تدبير المنزل ، ورعاية الأولاد .

فاذا مرض زوجها أو ابنها . فلا تذوق للنّوم طعماً . وتلبث بجانبه ساهرةً تُراعيه وتُواسيه ، وتعتنى به هالعةً جازعةً ، دامعة العين ، مُنفطرة القلب .

انظروا إلى الأم ومركزها . تجدوها مع اشتغالها بتدبير المنزل ، أستاذًا أوّلا لأولادها وعائلتها ، بل للأمّة بأسرها . فهى التى تُرضع أولادها مع ألبانها المبادئ الشّريفة ، والأخلاق المرضيّة .

وتعلّمهم الكلام والمشى والاعتماد على النّفس ، وكل ما يلزمهم فى دور طفولتهم ، فهى على أمّتها إمّا مَلَكٌ كريمٌ ، أو شيطانٌ رجيمٌ . والفرق بين الحالين ينحصر فى درجة تربيتّها وعلمها .

فاذا كانت الأمّ متعلّمة ، ذات أخلاق سامية ، وآداب عالية ، عارفةً ما لها وما عليها من الحقوق والواجبات . شبّ ولدها بجميل الخصال ، متعودًا أجمل الفعال ،

متطبعاً أجمل الطباع وأكرمها ، بما يتغرس فى قلبه ، وينعكس فى صورة أخلاقه ، مما يكون بأمه من هذه المزايا والصفات .

فهى التى إن شاءت جعلت من ولدها رجلاً شجاعاً ذا شمم وإباء ، ونفس لاتقبل الضيم . طماحة للعلا والسؤدد . والرفق بإنماء هذه الخصال فى نفسه ، وإصلاح ما تراه منها فى حاجة إلى الإصلاح .

وترى منه الأم بعد ذلك ساعداً قوياً ، وخادماً أميناً ، وعضواً نافعاً ، عاملاً على رقيها وفلاحها .

إلى أن قال :

وليس المقصود بتعليم المرأة اقتصارها على معرفة القراءة والكتابة والحساب ، والتكلم باللغات الأجنبية ، بل المراد منه أن تعرف ما يجب عليها لزوجها وأولادها وذوى قرابتها وسائر الناس ، فلا تبدى زينتها إلا لبعلها . كما يجب أن تحافظ على سمعته وشرفه ، ولا تنتهز فرصة غيابه فى أشغاله للتجول فى الطرقات . وكنس الشوارع بذيل ردائها الطويل . إلى غير ذلك مما هى أعلم به منا ؛ ولا تفتح نوافذ البيت إلا لتجديد الهواء ، فلا تتخذها أبراجاً تنتقل فيها ، مشرفة على الرجال لإغرائهن وإغوائهن ، ولا تهمل شأن أبنائها فى إرضاعهم من تديها والاعتناء بهم وملاحظتهم فى لعبهم ولهوهم الخ ، مما هو معلوم ومشهور .

ثم تأخذ بعد ذلك فى معرفة العلوم المختصة بحياتها المنزلية . كالخياطة ، والطبخ ، وترتيب الأثاث . ومبادئ الطب المنزلى . حتى يتسنى لها القيام بالإسعافات الضرورية عند ما يصيب خدامتها أو أحد أبنائها جرح أو ألم . فلا يحتاجون إلى دعوه الطبيب للصغيرة والكبيرة . ولا إلى ممرضة ندت أكثر منها حناناً وشفقة على أولادها .

هذا خلاصة ماقاله المرحوم الشيخ حاويش . وفيه حدد وظيفة المرأة وأعمالها ، وهو يتفق مع آراء صاحب السعادة طلعت حرب باشا المذكورة فى الدليل الأول .

وإليكم ما قاله الفيلسوف الألمانى الشهير (إرشر شوبنهور) فى كتابه : كلمة على النساء . تعريب المرحوم صبرى حسن بك رياض المطبوع سنة ١٩٠١ فى صحيفتى ٨ ـ ٩ :

ـ إن شكل المرأة وحده لكاف فى الدلالة على أنها لم تخلق لعظيم الأشغال العقلية .

ولا لجسيم الأعمال اليدوية ، وألا نصب لها فى حياتها غير مُقاساة سقام الحمل وآلام الوضع ، وعناء القيام بتربية الأطفال ، وأنها دائماً مضطرة لأن تخضع لرجلٍ تعيش معه رفيقةً صابرةً ، تهيئ له ما لذّ وطاب من الطعام والشراب » .

« وكما أنها لم تُخلق للكدّ والنَّصب ، كذلك لاقُدرة لها على تحمُّل شديد الحزن والترح ، ولا مزيد السرور والفرح ، إنما يمكنها قضاء حياتها فىسكون وعُزلة ، وجعلها حياةً طيِّبةً أرغد من حياة الرجل بدون أن تكون بالطَّبيعة غايةً فى الهناء ، أو متدنيةً فى الشَّقاء » .

« والذى يجعل المرأة كفؤا للقيام بتربية الأطفال ، أنها مهما قضت من العمر ، فهى فى جميع أطوار حياتها كاليافع ، وسطاً بين الناشئ فى ضعفه ، والفتى فى قوته ، لاتخرج عن حد طفوليتها ، ولا تفترّ عن مصاغرها ، وأبسط دليلٍ على ذلك مشاهدتها وهى صائمةً طول يومها ، تحمل طفلاً فى يديها ترقصه وتغنى له ، ولا تجد من الرجال بين العالم أحداً يقدر على القيام بعملها هذا مهما عظُمت قوة إرادته » .

الدليل الرابع

انظروا إلى ما جاء بجريدة الأهرام الغراء فى ٢ يوليه سنة ١٩٣٣ تحت عنوان :

« الحكومة الألمانية ومكافحة البطالة »

(برلين فى أول يونيو) لمراسل الأهرام الخاصّ :

« وافقت الوزارة أمس على القانون الجديد الخاصّ بمكافحة البطالة ، ويتضمَّن برنامج النازى : إعادة النساء إلى دائرتهن الصحيحة ، وإنقاص الضريبة على أرباب العائلات الذين يستخدمون الخدم . ولكى تُشجِّع الحكومة جلّ الشبان على الزواج ، قررت أن تقرض الزوجين عند قرانهما مبلغاً لايتجاوز ألف مارك لشراء أثاث منزلهما ، على شرط أن تتعهّد الزوجة ألا تقبل عملاً ما دام زوجها يكتسب ١٢٥ ماركاً فى الشهر على الأقلّ » .

يُستدلُّ من هذا التلغراف أن حكومة ألمانيا حدّدت وظيفة المرأة فى دائرتها الصحيحة ، وهى العمل بالمنزل ، واشترطت عليها ألا تقبل عملاً آخر ما دام زوجها قادراً على الكسب ، ولهذا قررت إعادة النساء إلى دائرتهن الصحيحة وعدم مزاحمة الرجال فى أعمالهم .

بناء عليه

ليس للمرأة أن تتطاول إلى أعمال الرجال وبالعكس ، إنما ينبغى لها أن تشتغل بوظيفتها التى لا تقل أهميةً عن وظيفة الرجل بالنسبة إلى الهيئة الاجتماعية : أى أنها تقتصر على العناية بتنظيم بيتها ، وتربية أولادها ، ورعاية زوجها . كما أنه على الرجل السعى وراء معاش أسرته ، وتسهيل راحتها ، وحسن رعايتها . فالمرأة من جهة مساعدة للرجل . والرجل من جهة أخرى مدافعٌ عنها وحامى ذمارها .

فاذا أرادت المرأة أن تتطاول إلى أعمال الرجال فهى كما ثبت بالأمثلة القاطعة ليست معدةً لذلك جسماً وعقلاً . كما أنه لا يخطر ببال الرجل أن ينحرف عن مركزه الطبيعى لمزاحمة المرأة فى عملها . الأمر الذى لو أراده لما استطاع إليه سبيلاً .

وخلاصة النصح للمرأة أن تجعل همها الاجتهاد فى تدبير أمور منزلها ، وتربية أولادها على المبادئ الدينية الصحيحة لتكسبهم فى المستقبل مقدرةً على القيام بالأعمال ، وأن تبعدَ عن أفكارهم الخرافات . ومطالعة القصص والروايات التى إذا تأصلت فى نفوسهم . قلما يزول أثرها . ويكون نفعها أقل من ضررها .

ويكفى المرأةَ فخراً وشرفاً حسنُ قيامها بتدبير شؤون البيت ، وتربية الأولاد ، وخدمة الزوج . فبذلك يكون لها حقيقةً المركزُ الأول فى الهيئة الاجتماعية .

والله يتولى شؤون العباد فيما أراد .

وظيفة المرأة

وظيفة المرأة . هى أن تقوم بترتيب وتكميل الحياة الداخلية للأسرة أولا ، وأن تعمل على تكميل الحياة العامة الخارجية وتهذيبها ثانياً ، بدون أن تنزل فى ميدانها ، وتشارك الرجال فيها . يظن البعض أن فى هذا ما يحط من قدرها ، ويقضى عليها بالسجن والهوان . وحرمانها قسطها فى الحقوق الإنسانية . ولكنهم فى خطإٍ مبين .

نحن نقول . ونكرر القول بأن وظيفة المرأة ، هى أن تعتنى بالحياة الداخلية ، وأنها لا تشتغل بالشؤون الخارجية إلا بقدر ما يناسب طبيعتها ، ولا يسمح لها بالخروج عن دائرتها . ولا نقول هذا القول جزافاً . بل بما نعلمه من طبيعة المرأة ، وأنها لم تخلق لجسيم الأعمال البدنية . ولا لجسيم الأشغال العقلية . وإدراكنا لما يقتضيه عملها من

العناية الكبرى ، فان أمكنها أن تؤدىَ وظيفتها العائليّة ، وبعض الأعمال الخارجيّة فلا نرى مانعاً من الاعتراف لها بحق الاشتغال بهذه الأعمال .

نضرب لذلك مثلاً :

امرأةٌ متعلّمةٌ متزوّجةٌ ، وليس لها أولادٌ صغار ، فثل هذه الزوجة لانمنعها من الاشتغال بوظيفة التّعليم فى مدارس البنات أو الأطفال الصغار . ولكن يجب ألا يُشغلَها تحضير دروس الغد ، وتصحيح كراساتِ التلاميذ عن القيام بواجب زوجها ، ومؤانسته وتجديد قوّته وعزيمته ، وتحبيب المنزل إليه . بما تجتهد هى فى إيجاده ، مما يُنزل السّكينة فى فؤاده ، ويشرح صدره ، ويوكّد عقيدة الزوجية ويكملها .

كذلك يجب ألا تشغلها الدروس عن ملاحظة توافر شروط الصحّة والنّظام وقواعد الاقتصاد فى المنزل .

فاذا ما شغلها الدّرس عن شيءٍ من ذلك (وأمثاله كثيرةٌ) فانها تأثم لتركها وظيفتها الطّبيعية لوظيفة غير طبيعية .

فاذا كان لها أولاد صغار كان إثمها أعظم لشدّة ما يحتاجه الأولاد الصغار من مراقبة أمهم ذكوراً كانوا أو إناثاً .

وكيف تدرس الأمّ طبائع نفوسهم ؟ ومتى تتفرّغ لذلك إذا كانت بالنهار فى حلقات الدرس ، وباللّيل فى البحث والتّنقيب فى الكتب ، وتحضير درس الغد ، وتصحيح كرّاسات التّلاميذ ؟ ثم إنها تكون مجرمةً حقيقةً إذا اشتغلت بالأعمال الخارجية وهى حامل . فاذا فعلت ذلك اضطراراً كان المجتمع بأسره مجرماً من دونها .

إن من يعلم حقيقة ما تتطلّبه وظيفة المرأة من العناية والتفرّغ . لاسيما الزوجات ذوات الأولاد ، لايستطيع أن يُبيح لها الاشتغال بأعمال الحياة الخارجية .

كما أن من يعرف طبيعة المرأة ، وأنها شديدة النّفور ، قويّة الوجدان . يكاد قلبها يستعصى على عقلها ، لايُبيح لها أن تتعرّض لأشراك شياطين الإنس . ولما يعكّر مزاجها أو يثلم شعورها .

إن المرأة ينبغى أن يكون فى استطاعتها أن تنشّئ أبناءَها وبناتها نشأةً طيّبةً صالحةً . وأن تشير على زوجها بالآراء الصائبة . وأن تجدّد صبره . وتشجّعه على القيام بعمله . وتقوّىَ عزيمته . وتقيه غائلة الحزن واليأس . حتى إذا دخل بيتها فى أمسه وقد أنهك التّعب قواه . ومسّه شيطان الكآبة . وخامرت قلبه وساوس الملل . خرج من بيتها

مبكرًا ، وقد امتلأ فؤاده قوةً ونشاطاً ، وانتعشت نفسه سرورًا وطرباً ، وأقبل على عمله بكل همةٍ وشجاعة .

إن مثل هذا الرجل يصعب عليه جدًا أن يعمل ما يعكِّر صفو هذه الحياة السعيدة ويتعذّر عليه أن يمسها بسوء ، لأنه يجد زوجته على أحسن ما تكون من الأخلاق الوديعة والمعاملة الحسنة ، وتبدو له ذات جلالٍ واحترام .

فاذا كانت هذه هي وظيفة المرأة العاقلة ، فهل يُعقل أن يكون حُسن أدائها ، وتفرُّغها لها علامةً على احتقارها ودناءة مركزها فى العائلة أو فى المجتمع الإنسانى ؟ حاشا وكلا ، إن من يقول ذلك لهو فى جنون ، بل فى جهل مطبق بمعرفة وظيفتها ؛ على أن قاعدة التّضامن فى الحياة فى تقسيم العمل توجب على الزوج والزوجة أن يتعاونا كلٌ فى دائرة وظيفته على تربية أبناء وبنات اليوم (رجال المستقبل ونسائه) أو قل تربية الأمّة بأسرها .

إن مثَل من يرى فى تخصيص المرأة بالعائلة تحقيرًا لها ، كمثل من يرى أن فى تقسيم وظائف الجنديّة بين مُشاةٍ وراكبين ومجاهدين حِطّةً لفريقٍ دون فريق ؛ أو أنّ أخذ فريقٍ من الأمة للجهاد الحربى هوانا للمجاهدين ، مع أنه لاسبيل إلى نظام الحياة الاجتماعيّة أو الفرديّة إلا بتقسيم العمل .

وبناء على ذلك . فليس فى العائلة سيِّدٌ ومسود ، أو رفيعٌ ووضيع ، وإنما هو محض تعاون وتضامن فى السعى إلى الغاية العليا ألا وهى إبلاغ الإنسانيّة كمالها وسعادتها .

وإذا قال قائل : لمن تُعطى الرياسة فى العائلة ؟ فالجواب عن ذلك سهلٌ بسيط ، تُعطى الرياسة للرجل . لأنه مكلّف كفاية احتياجات بيته ، واشتراكه مع المرأة فى تربية أولاده من جهة أخرى . بدليل قوله تعالى (الرِّجال قَوّامونَ على النِّساءِ بما فضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أنفقُوا مِنْ أموالهم)

وقوله تعالى (وللرِّجال عليهنَّ درجةٌ) أى منزلةٌ رفيعةٌ .

وليست المرأة كما يدّعى البعض خادمةً للرجل ، ذليلةً فى بيته ، ولكن لتؤدى وظيفتها الإنسانية أحسن أداء . وتسعى لما فيه سعادتها وسعادة العائلة ، بل سعادة الأمّة بأجمعها .

نسأل الله أن يوفقها لمعرفة حقيقة وظيفتها . ويعينها على القيام بأدائها أحسن قيام .

صفات المرأة الفاضلة

إذا أردت معرفة المرأة الحكيمة التي تُبلّغك ذروة الرغد والحبور . وتدرّ عليك مناهل الخيرات والبركات ، وتريك طرق الهداية وسبل السّعادة . فاعلم أنها هي التي بآدابها وكمالها تصون نفسها ، وتحفظ عفافها ؛ وبحُسن تربيتها وعذوبة كلامها ، تضبط طياشة أولادها ؛ وبعواطف حنوّها ووداعة أخلاقها ، تطفئ نار غيظ قرينها ؛ وبلطفها واحتشامها تسوس خادماتها وخادميها ، وبحكمتها ترفع علم السّلام فوق رءوس الأنام .

تلك المرأة التي ما تدرّعت بدرع العلم والآداب ، إلا لتريك حقيقة الحياة ؛ وما تسلّحت بالطّهر والحياء إلا لتسقيك راح المَسرة والهناء . تلك التي تعرف جيداً أن أحسن جزاءٍ لها ، وخير مكافأة لمثلها هو أن تقدّم في كل يومٍ من أيام حياتها مثالاً حسناً لبناتها ، ليقتدين بها يوم يُعهد إليهنّ زمام الإدارة المنزليّة . تلك التي تبذل ما في وُسعها لتُعين زوجها على الزمان ، وتبذُل جهدها سعياً وراء ترتيب المنزل ودوام النّظافة وحُسن تربية الأولاد على نظام الطّاعة ومحور الآداب ، لينشرح بذلك صدره ، ويطيب بنتائجه خاطره ؛ وهي تشتغل آناء الليل وأطراف النهار . لابالزينة وبهرجة الأزياء . بل بما يجعل الزوج عندما يدخل البيت مع ضيفه شاهداً على فضلها وكمالها .

تلك التي لاتغفل طرفة عينٍ عن واجبات المرأة الصالحة نحو رَجُلها وأولادها وبيتها . ولا تطلب أجرًا أو مكافأةً على أتعابها الدائمة . إلا الانعطاف عليها بنظرة الولاء والإخلاص . ولفتة الحنوّ والمحبّة . وعين الشكر والرضاء ؛ تلك التي بلطفها واحتشامها تُقاسم بعلها العُسر . وتجرع معه كئوس النّوائب بقلبٍ طاهر . ونيّةٍ صافية . وصبرٍ مخلص . فان مرض يوماً اعتنت بمعالجته . وتألمت لأوجاعه بلا امتنانٍ . وبكت لبكائه بلا ضجر ولا ملال مهما طالت العلّة واستفحل المرض ، تلك التي تسهر على أطفالها بكلّ هدوءٍ وسكينةٍ وصبرٍ . ولا سيما إذا مرض أحدهم . فإنها تقضي سواد ليلها بجانبه طالبةً له الصحة والشّفاء ، حالة كون زوجها غارقاً في بحار النّوم . متمتّعاً بلذّته . ولا يدرك كل ما في فؤادها من القلق والشّجون .

تلك التى تقدّر الأشياء حقّ قدرها . وتعرف كيف تدعو الخدم والحشم إلى احترامها . وضبط أشغال بينها بلا نزاع ولا خصام . يزريان بها ، أو يحطان من مقامها حتى إذ أخرج أحدهم من دائرة خدمتها . لاينقل عنها إلا كل حسن ومليح ، وهى تصمّ آذانها عن كل ما تسمعه من جيرانها وأنسبائها من الوشاية وغيرها . ولا تلتفت إلى القيل والقال . محافظةً على الشّرف والكمال .

هذه هى صفات المرأة الفاضلة التى يجد معها الرجل الراحة والسّعادة ، وتنشر بين العائلة علم الاتحاد والسّلام . وتربط الهيئة الاجتماعية برباط الحبّ والوئام ؛ تولّد فى جنان رجلها آمالَ السّعادة ، يوم يشعر بثقل حمله ، وتشدُّ قواه ، وتُنهض عزيمته بحُسن الرجاء . وجميل العزاء حينما تجده معسورًا ، وتبثُّ فى نفسه روح الهناء والسّرور عند ما تراه مقبلاً وهو من الدهر كئيب . ومن مكافحة الأيام ومعاركة الأشغال حزين .

وهى التى لاتضيّع يومها أمام المرآة . وتشتغل بصفّ الشّعر وشدّ الصدر ، وجرّ الذيل . إلى غير ذلك مما يفتخر به بعض النّساء اللّواتى لاهمّ لهنّ إلا الاشتغال بأنواع المُبتدعات والأزياء ، ولقد أصاب من قال :

وأعظم نعمةٍ من فضل ربى على الإنسان لامرأةٌ حكيمه

وأعظم نقمةٍ بين البرايا على الإنسان لامرأةٌ ذميمه

فاذا عرفت ذلك أيها الرجل . أوجبَتْ عليك المحبّةُ الإنسانية ، والنّخوة الأدبية معاملتها باللُّطف والحلم ومكارم الأخلاق ؛ كما تريد أن تعاملك هى ، فتتمتعان بثمر الراحة والهناء . وتقضيان العمر بالسّعادة والرخاء .

واعلم أن المرأة الفاضلة التى شرحتُ لك صفاتها . هى شريكتك فى الحياة ، وقاعدة بيتك وأساس راحتك . والحكيمة فى أمر معيشتك . إذ لاتطلب منك فوق طاقتك ، ولا تكلّفك أكثر مما فى استطاعتك . لأنها تعتبر الزواج سرًا مقدساً ، وتتخذه مقام فضلٍ وطهرٍ وأدبٍ وكمال ، كما يعتبره الرجل العاقل الذى لايحنث بعهده ، ولا يخلّ بنظامه . بحيث يكون على الدوام بشوشاً ضحوكاً لدى دخوله بيته ، ومقابلة زوجته ومحادثتها بأخباره . ليكون الاثنان على ثقة تامّةٍ من بعضهما .

والحكيم من لايضرب عليها ستورًا . أو يجعل الخدور لها قبورًا ، ما لم يكن ذلك

بشريعته مسطوراً ، وأن يمنحها سُلطاناً مطلقاً على بيته وأولاده وخَدَمه ، ويردّد على مسامعها أمثال الفضائل ، وما ينجم عن القبائح من المآثم والرذائل ، وألا يجعل خضوعها بحكم الاستبداد والاعتساف ، بل بروح الولاء والإنصاف ، ولا يضنّ عليها بالمال . ولا يحطّ من قدرها ، ولا يبخسها أشياءها ، ولا يُغالطها أمام الأولاد والخدَم ولا يخفى عنها سرّا ، ولا يعاتبها جهراً .

ومتى قلّدتها بحكمتك قلائدَ الحسان ، تجدْها كملاكٍ فى ثوب إنسان .

وقد أحسن من قال :

إنما المرأة مرآةٌ بها كل ما تنظره منك ولك

فهى شيطانٌ إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهى مَلَك

المحاضرة الخامسة :

عفاف المرأة تاجها

ملحوظة : ملحق بالمحاضرة الثالثة عشرة . من المحاضرات الخاصة بالرجال عن العفاف وأقسامه

العفّة وإن كانت لازمةً للرجل ، فهي للمرأة ألزم وأوكد . وكانا مشتركين فيها .

وسبب ذلك أن عوائد جميع البلاد وطبائع جميع المدن ، وعُرْف أرباب السياسة والدول والملل . كل ذلك يقضي بأنه لايليق من النّساء إلا كمال الصيانة والعفّة ، وسلوك سبيل الحياء أكثر مما يُطلب من الرجال .

ففي الحديث الشريف « إنّ اللهَ إذا أرادَ أن يهلكَ عبداً نزَعَ منهُ الحياءَ ، فاذا نزَعَ منهُ الحياءَ لم تلقَه إلا مقيتاً » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إنّ لكلّ دينٍ خُلُقاً . وخُلُقُ هذا الدّينِ الحياءُ » .

وقال الشّعبي : حلية الرجال السّماحة والفصاحة . وحلية النّساء العفّة والقناعة ، فالمرأة التي خلعت ثوب الحياء . فكأنها تنازلت عن سلوك سبيل العفاف والصّون ، لأن خلع ثوب الحياء منها علامةٌ قويّةٌ على خدش الأمانة التي يترتب عليها من العواقب الوخيمة ما لايخفى على كل عاقل .

فإن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته الربانيّة . وضع النّسل في بُطون الأمّهات فلا يُبيح [illegible] هتك حرمة هذا النّسب . فاذا تخلّت المرأة عن العصمة وتهاونت في عرضها . فقد تدس في الأسرة ما ليس منها . فلا تكون أعضاء الأسرة في الواقع ونفس الأمر بينهم قرابة حقيقية يبنى عليها صدور المحبّة بينهم ، بل يكونون في الحقيقة أعداء . [illegible] من عداوتهم كامنة . فهي في الحقيقة تكون قد أدخلت في الأسرة عدواً في ثوب صديق .

[illegible] تقوم تربيتها . والسّلاح الذي تدافع به عن شرفها وكرامتها . [illegible] قوّة عند الرجال .

[illegible] لكن أصلاً طبيعياً في المرأة . فكلّ الوسائل التي تتّخذ فيها باطلةٌ

كما قال أحد الأدباء : العفاف الحقيقى لايحتاج إلى حارس ، ولا يدعو إلى وضع المرأة بين جدران أربعة (حيطان) .

فاذا كانت المرأة عفيفة بالطبع والإرادة . استطاعت أن تقى نفسها طيش الأهواء وعمى الحبّ .

هكذا يكون العفاف مرشدها فى طريق الغواية ، ومصباحها فى الظلام . وعنوان شرفها وفضيلتها مدى الأيام . وأساس سعادتها وسعادة أسرتها فى المستقبل .

وعفاف المرأة فى الأسرة . هو الركن الأول الذى تتوطد عليه دعائم التربية . والسبيل الأقوم الذى به تصل الفضيلة وحسن التربية إلى قلوب البنات والبنين .

أمثلة من عفاف المرأة

١ — المرأة العفيفة :

قدمت امرأة مكة وكانت من أجمل النساء ، فبينما عمر بن أبى ربيعة يطوف إذ نظر إليها ، فوقعت فى قلبه . فدنا منها فكلمها . فلم تلتفت إليه .

فلما كان فى الليلة الثانية ، جعل يطلبها حتى أصابها . فقالت له : إليك عنى يا هذا . فانك فى حرم الله ، وفى أيام عظيمة الحرمة . فألحّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشتهرها .

فلما كان فى الليلة الأخرى قالت لأخيها : اخرج معى يا أخى فأرنى المناسك فانى لست أعرفها . فأقبلت وهو معها . فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها . فنظر إلى أخيها معها . فعدل عنها . فتمثلت المرأة بقول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقى صولة المستأسد الحامى

فلما بلغ أمير المؤمنين (المنصور) هذا الخبر قال : وددت أنه لم تبق فتاة من قريش فى خدرها إلا سمعت بهذا الحديث . فأنعم بها من امرأة عفيفة .

٢ — مثال لعفة ليلى الأخيلية :

هى ليلى بنت لكيز بن مرة بن أسد بن ربيعة بن كلاب . وكانت أصغر أولاد لكيز . فنشأت فى حجره . وترعرعت فى أحضانه . وكانت تامة الحسن كثيرة الأدب .

خطبها كثيرٌ من سُراة العرب . منهم عمر بن صهبان من أبناء ملوك اليمن .

وكانت ليلى تكره أن تخرج من قومها . وتودّ لو أنّ أباها زوّجها لبرّاق بن رومان ابن عمها . إلا أنها لم تعص أمر أبيها وصانت نفسها من البرّاق تعفّفاً ، فلقّبت بالعفيفة .

وكانت فى أثناء ذلك حروب بين بنى ربيعة وقبائل طىّ وقُضاعة ، أبلى فيها البراق بلاءً حسناً ، ثم خمدت الحرب . وآن وقت زفاف ليلى ، فسمع بخبرها ابن كسرى ملك العجم ، فأراد أن يخطبها لنفسه . فكمن لقومها فى الطّريق ونقلها إلى فارس ، فبقيت هناك أسيرةً لاترضى بزواجه إلى أن انتزعها البرّاق من غاصبيها ، واستحقّ أن يتزوّج بها .

ولما ضيّق عليها العجم وأهانوها لتخضع لإرادة ملكهم ، جعلت تستصرخ بالبراق وبإخوتها فقالت :

ليتَ للبرّاق عيناً فترى	ما أُلاقى من بلاءٍ وعنا
يا كُلَيْباً وعقِيلاً إخوتى	ياجنيــدا ساعدونى بالبُكا
عُذّبَت أُختكمو يا ويلكمْ	بعذاب النُّكر صبحاً ومَسا
غلّلونى قيّدونى ضربوا	ملمس العفّة منى بالعصا

إلى أن قالت :

يا بنى تغلِب سيروا وانصروا	وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا العار على أعقابكم	وعليكم ما بقيتم فى الدُّنا

فلما بلغ بنى ربيعة قول ليلى هذا . استفزّتهم الحميّة وخنقتهم العَبرة ، وساروا جميعاً لنصرة ليلى إلى أن أظفرهم الله بمطلوبهم .

فانظروا إلى عفاف تلك المرأة الأعرابيّة التى لم تفرّط فى عرضها حتى لأولاد الملوك ، وقد صوّبوا إليها السهام . ورَوّها الموت الزّؤام .

فهكذا تكون المرأة العفيفة . وهكذا تكون العفّة التى نرجو أن تتمسّك بها المرأة المصرية لتكون مثالاً للفضيلة ، وعنواناً للشّرف .

العفاف تاج المرأة

كتب نبوليون إلى زوجته جوزفين :

نتهى إلىّ انبوء كتابك الذى تلومينى فيه على ذمّ النّساء ؛ والحقّ يقال إننى أكره

المرأة الدسّاسة المُنافقة ، لأنني اعتدتُ عِشرة النّساء الصالحات ، الطّيّبات القلوب ، وأنا أحبهن من صميم فؤادى ، لأنكِ بصَلاحكِ وطيب قلبكِ علّمتِنِى الحبّ كيف يكون .

إنك لتعلمين أنى عفوت عن رجلٍ مذنب من أجل امرأةٍ فاضلة ، لأننى لما رأيت (مدام دى هانز فيلد) وأريتها رسالة زوجها ، اندفعت تبكى وتنتحب ، وقالت بصوت الحزن والأسى : إن هذا لاريب خطّ بنانه ، فوصلت تلك الكلمات المؤثّرة إلى قلبى وقلت لها : إذن يا سيدتى اقذفى بهذه الرسالة فى النار فلا تبقى لدىّ حُجّةٌ على زوجك ، فأحرقتها واستعادت راحة قلبها ، لأن زوجها نجا مع أنه كان قبل عفوى على حافّة القبر . وأنت ترين من هذه الحادثة يا جوزفين أنى أحبّ النّساء الطّيّبات البسيطات المخلصات إكراماً لك .

العفة والأمانة

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذى تقوم به تربيتها . والسلاح الذى تدافع به عن شرفها وكرامتها . وهو عندها بمثابة القوّة عند الرجل .

وعفاف المرأة فى الأسرة ، هو الركن الأوّل الذى تتوطّد عليه دعائم التربية ، والسّبيل الأقوم الذى تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء ، ولا فرق فى أن يكون العفاف فى الأمّ فطريًّا أو اكتسابيًّا لينتقل إلى نفوس بناتها . فينشأن معه قويّاتِ الإرادة ، عزيزاتِ النّفس . ويتّخذنه دليلهنّ الصادق الأمين فى طريق المستقبل . حيث تسير الفتاة غالباً مدفوعةً بقوّة الوهم . مجذوبة بتيّار الضعف النّفسانى ، فاذا كانت عفيفة بالفطرة والنّشأة ، استطاعت أن تقى نفسها طيش الأهواء وعمى الحبّ .

هكذا يكون العفاف سندها فى الضّعف . ومرشدها فى الغواية . ومصباحها فى الظّلام ، وزينتها مدى الأيّام . وأساس سعادتها وسعادة أسرتها فى المستقبل ، ولا يتمّ للزوجين سعادةٌ فى الحياة ، ولا يهنأ لهما عيشٌ إذا فارقتهما فضيلتا الأمانة والعفاف .

فاذا لم تكن المرأة أمينةً على عرضها ومال زوجها ، وحريصةً على شرفها . وما بين يديها من كَسب رجُلها ومقتصدة فيه ، أو كان الرجل مُعرضًا عن زوجته ،

سالكاً سبيل الغيّ والفساد . فقد ساءت حال الدار ووقع فيها الشّقاق ، وأحاط بسكانها البلاء والشّقاء .

وما رفرفت الأمانة والعفّة على دار إلا وأكسبتها السّعادة والهناء .

والأمانة المفروضة على كل من الزوجين. تشمل المحافظة على الأرواح والأموال، وصيانةَ الأعراض والأنساب . وهى نتيجة روابط الزوجيّة ؛ فانّ عقد الزواج يفرض على كل من الزوجين الأمانة . بحيث يُعَدُّ كلّ تقصير من أحدهما فى تأدية حقوق الآخر نقضاً لعهد الزوجيّة . وخروجاً عن حدودها .

أما العفّة فجزء من الأمانة بين الزوجين ، وهى فضيلةٌ دقيقة تقضى على كلٍّ من الزوجين أن يصون عرضه عن الانتهاك . وأن يحرص على علاقة الزوجيّة ، حرصاً يُبعدها عن كلّ دنس . ويصونها من كل سوء ، ولا يُدرَك معنى الزوجيّة إلا بهذه الخصيصة التى هى أساس روابط الجمعية الانسانيّة ، لأن الزواج الحقيقى لايتمّ إلا باختصاص كلّ من الزوجين بالآخر . ولا سبيل إلى ذلك الاختصاص إلا بسلوك سبيل العفّة .

وفى انتهاك حرمة العفّة هدم لسياج الأنساب . وفى هذا من الشّقاء والبلاء ما فيه .

والزوجان على السّواء مُطالبان بتأدية هذه الأمانة . وسلوك سبيل الحياة العُظمى أمانة الحرص على الأعراض .

غير أن المتعارف أن المرأة مُطالبةٌ بذلك اكثر من الرجل . لأن الطّبيعة اختصتها بمحافظة على الجمال فى بطنها .

وفى الحديث الشريف « الحياءُ حَسَنٌ . ولكنّهُ من المرأةِ أحسَنُ » .

ولا عيب من العيوب النّفسية والجسمية تُضيّع هناء الزوجين . ويذهب بسعادتهما ويمحو عيشهما . كخصلة المرأة للرجل فى نفسها . فخير ما يصبو إليه الرجل فى زوجته عفافها الذى هو سلاحها .

وقد أشار الله تعالى إلى وجوب العفّة والتصوّن فى كتابه العزيز فقال :

(قُلْ للمؤْمنينَ يغضّوا مِن أبصارهمْ ويَحفَظوا فُروجَهم ذلكَ أزْكى لهمْ إنّ اللهَ خبيرٌ بما يصْنَعونَ . وقلْ للمؤْمناتِ يغْضُضْنَ من أبصارِهنّ . ويحفَظْنَ فروجهنّ . ولا يبدينَ زينتَهنّ إلا ما ظهرَ منها . وليَضْرِبْنَ بخمُرِهنّ على جيوبهنّ) .

وهناك أحاديثُ شتّى فى الحثّ على التمسّك بأهداب الحياء .

منها قوله صلى الله عليه وسلم « إنّ اللهَ إذا أرادَ أنْ يُهلكَ عبداً نزعَ منهُ الحياءَ فاذا نَزَعَ منه الحياءَ لم تلْقَه إلا مقيتاً » أى ممقوتاً محقّراً عند النّاس .

وقال أيضا :

١ — « إنّ لكلّ دينٍ خُلُقاً ، وخُلُقُ هذا الدّينِ الحياءُ » .

٢ — « إنّ اللهَ تعالى يُحبُّ الحيِيَّ الحليم ، ويبْغُض الفاجرَ البَذىء » .

٣ — « إنّ شرَّ النّاسِ منزلةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ من تركهُ النّاسُ اتّقاءَ فُحْشهِ » .

وقال عمر رضى الله عنه : ما أُعطى المرءُ بعد إيمانه خيراً من امرأةٍ صالحةٍ .

وسُئلت عائشة رضى الله عنها : أىّ النّساء أفضل ؟ فقالت : التى لاتعرف عيب المقال . ولا تهتدى لمكر الرجال . فارغةُ القلب إلا من الزينة لبعلها . والإبقاء فى الصيانة على أهلها .

وقال بعض الحكماء : النّساء هنّ معراج الشّرف بعفتهن . ونَيْر المصائب بابتذالهن .

وكان أهالى أثينا القدماء يمنعون الرجل الذى يجتمع بغير زوجته ويُعاشرها . أو يُخالط النّساء المتبرّجات أن يكونَ من أرباب مشورة المدينة . لأنه لايؤمن على المصلحة العامّة . فأنعم بهم وبقانونهم .

ومن هنا ترى أنه فى كل العصور . القديم منها والحديث . كانت الشرائع والقوانين حتى الوضعيّةُ منها . تُطالب الرجل والمرأة بالعفّة على حدّ سواء . وقد جاء بالمادّة ٤١٦ من الشّريعة العبريّة :

يجب على الزوجة ألا تخون زوجها . ويُطلب منها مساعدته وإعانته فيما يحتاجُ إليه . ويجب عليها أن تتودّد إليه . وأن تُظهر له الميل والحنو . ويَحرمُ عليها كلّ التّحريم الاختلاءُ بغيره . ولو كان ابناً أو أخاً . وإذا وُجد معها أجنبيّ فى مكان . وجب أن يكون المكان مفتوحاً . ولها أن تجتمع بالصبىّ الذى لم يبلغ التاسعة من عمره .

وهذه المادة توافق الشّرع الإسلامى إلا فى جواز الخلوة إذا كان الباب مفتوحاً . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « من كانَ يؤمنُ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ فلا يَخْلُوَنَّ بامرأةٍ لا تحلّ له . فإنّ ثالثهما الشّيطانُ » .

وقال « إيّاكم والدُّخولَ على النّساء » .

كيف تحافظ المرأة على عفافها ؟

لاشك في أن التربية والتهذيب من أقوى الأسباب التى تساعد الإنسان على التحلى بالفضائل . والتخلق بالمكارم ، وتبعده عن مواطن الزلل ، وسلوك سبيل الشر ، ولذلك يمكن القول : إن أهم الوسائل التى ترقى أخلاق البنت هى التربية والتهذيب .

وخير التهذيب ما كان على آداب الدين وقواعده ، فاذا ربيت البنت تربية دينية صحيحة شبت على التقوى . والتمسك بالعفاف . والمحافظة عليه ، ولما كانت البيئة التى تنشأ فيها البنت . والمؤثرات الخارجية ، تجعل التهذيب وحده غير كاف لتقويم أخلاقها . نظراً لأن الطبيعة خلقت المرأة ضعيفة . وميالة إلى دواعى الشهوات ، وجب أن يحافظ على البنت من كل ما ينشئ فى نفسها تأثيراً سيئاً ، وذلك بابعادها عن كل ما يهيج عواطفها ، تهييجاً تخشى عواقبه .

فلا يصح أن تغشى دور الملاهى وأماكن الرقص ، كما أنه يحسن بها عدم قراءة الروايات الغرامية . والاختلاط بمن فسدت أخلاقهن من الفتيات .

ويجب أيضاً لمصلحة الفتاة . ألا تجتمع بالمتزوجات من صديقاتها ، بل يلزم أن يقتصر المجتمع الذى توجد فيه على من حسنت أخلاقهن من الفتيات أمثالها .

أما الاختلاط بالرجال فهو أسوأ ما يكون . ويتحتم ألا تختلط الفتاة برجل ما .

قال أحد الحكماء : العفة حجاب يمزقه الاختلاط .

قالت السيدة فاطمة رضى الله عنها : خير للمرأة ألا ترى رجلا ولا يراها رجل .

وفى المثل الألمانى : يجب أن تحفظ البنت بين أربعة أناجيل ، أو فى وسط أربعة جدران .

المحاضرة السادسة :

حرية المرأة

١ — لقد سلكت المرأة المصريَّة فى هذا العهد مسلكاً معيباً ، وأسرفت فى الحريَّة إسرافاً فاحشاً. حتى خرجت عن حدود الشَّرع الشَّريف ، والأدب المنيف. وأصبحت متطعناً لبنى جنسها ، بل للأجنبيَّات اللاتى قلدنهن ّ فى عاداتهن ّ وأزيائهن ّ .

فمن تلك الحريَّة الباعثة على الفجور ، خروجُ النِّساء للاستحمام فى الحمامات العامَّة عاريات الأجساد بشكل تخجل منه الفضيلة ، وماحوادث حمامات (استانلى باى) ورأس البرّ وغيرها ببعيدة عنَّا ، فهى مسطورةٌ ومرسومةٌ على صفحات الجرائد .

ومنها الرقص الخليع فى صالات أُعدّت لذلك ، وهناك فى عُرف أهل هذا الفنّ يُباح رقص البنت مع الشَّاب ، والمرأة مع الرجل ولو بدون سابق تعارف بينهما . وهذا ما يسمُّونه عندهم (بالتَّعارف الودى العائلى) المطلوب الذى تنشْده الحياة الاجتماعيَّة الحاضرة ؛ فترى المرأة والرجل يتحفَّزان للقيام بعد أن تُناديهما الآلة الموسيقيَّة (الأوركستر) بنغمة تهيج العواطف ، وتحرّك الأشجان . وتبعث فى النَّفس أحطّ الغرائز وأسفل الرغبات . فتحملهن على الدخول فى معمعة الرقص المعروف عندهم (بالشارلستون) .

فاذا ما تسلَّطت النَّغمة على عشَّاقها . بعثهن ّ على القيام . فيضعن الصدور على النُّحور ، ويد إحداهن ّ على ظهر صاحبه . والأخرى فوق كتفه . ويدوران دورتهما عدّة مرّات بهذه الطريقة المخجلة التى يحمرّ منها وجه الحياء خجلاً . ويقف أمامها الدِّين وجلاً .

ظنّ البعض أن حفلات الرقص الخليع واسطة لتسهيل التَّعارف بين الشُّبَّان والفتيات تمهيداً للزواج . ولكنه ـ ولا أظن ـ نازلةٌ نزلت بسوق الزواج . وجعلته على تأخُّر وكساد كنازلة الرقص . ولا كارثةٌ حاقت بعفاف العذارى كهذه الكارثة ؛ ولا أعرف شابًّا اختار شريكة حياته من بين الراقصات . بل بالعكس كانت نتيجة هذا الرقص النُّفورَ من الزواج . وسوءَ الظنّ بالفتيات . وخُسراناً حاق بسمعتهن وشرفهن .

ويقولون: إن الرقص هو لغاية التسلية والدفء. فاذا كان الأمر كذلك فلم لايمارسه الرجال مع الرجال. والنساء مع النساء؟ ولماذا لايتم مع الرجل وزوجته مثلاً؟ ولماذا يشترط فيه أن يتم بالاحتكاك والتلاحم والضم والتعانق. أو بعبارة أوضح بوضع النار مع الهشيم؟.

فمن ذا الذى ينكر أن عادة الرقص تهتك وخلاعة وفجور، حتى لو كان من أهل الدعارة والفسوق؟

لقد ابتدع الغربيون هذه البدعة فيما ابتدعوه. وربما كانت ذات فائدة لهم، وهى تدريب اكتساب الدفء وقت البرد. مراعاة لشدة البرودة فى بلادهم، ولأن عوائدهم تسمح لهم بذلك كما يقولون. ومع ذلك فقد انتشر الفساد فى بعض الممالك الغربية. بسبب سلوك البنت طريق الحرية فيما يزعمون. وهو طريق الخلاعة والاختلاط الغير محدود. واللباس العديم الحشمة. فعانت تلك الممالك بسبب فسادها من الجرائم ما أقلق راحتها حتى صار يضرب بها المثل المشهور فى كل حادثة تقع عندهم (فتش عن المرأة) اعترافاً منهم بأن الفتاة هى علة معظم الجرائم الحاصلة بينهم الآن.

فالحرية التى تتمتع بها المرأة الغربية هى التى خولها لها نظام بلادها وقوانينها الوضعية وعاداتها القومية.

ولقد نجم عن ذلك بالطبع مخالطة الرجال والنساء فى الخلوات والطرقات والحوانيت والمدارس والمصانع. وفى بطون الأودية. وعلى رءوس الجبال؛ سواء كانوا محارم أو أجانب. ولا يخفى أن هذا فى أغلب الأحوال مذهبة للحياء، مضيعة للشرف. مجلبة للفساد والعار.

ولطالما لفتت حالة المرأة فى أوروبا وأمريكا أنظار الكتاب. وعلماء التربية، لكثرة ما رأوا من عدم استقرارها. وعدم ميلها إلى تدبير شئون منزلها. وانصرافها عن كل شىء إلا الكسب والتنزه. والتعب بمختلف الطرق والأساليب.

وهناك خلاف كبير بين حالتى المرأة الغربية والمرأة المسلمة، فان الأولى أخرجتها قوانين بلادها وعدم حكمة رجالها عن دارها فى سبيل الحصول على قوتها، ثم اقتادتها ضرورة المخالطة إلى الوجود أحياناً حيث لاينبغى أن تكون.

أما المرأة المسلمة الشرقية. فهى المرأة الطبيعية الفطرية. التى ضمنت لها أحكام دينها التشريعية نفقاتها على الرجل وأسباب حياتها. فهى ليست فى حاجة إلى كثرة

الخروج إلا لضرورة شرعيّة . وفى حدود الأدب والقانون . وليست حرية المرأة ، كما يرغب بعض المتفرنجين من الشبان المغرورين الطائشين ـ مساواتها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، ولا فى ترك زيها الشرقى وعاداتها القوميّة ، وخروجها فى زيها الحالى . وخروجها عن حدّ الكمال ، واختلاطها بالشبان والرجال ؛ ولا فى سيرها فى الشوارع والطرقات طوع إرادتها ؛ تفعل ما تشاء . وتصنع ما تختار . ولكنها فوضى ، تُخرج المرأة عن طبيعتها ، وعن مبدإ قيامها بالعمل وحاجات الأمّة . إنما الحرية الحقيقية هى الاعتدال فى السير ، والمحافظة على الآداب . والحشمة والوقار . وفعل الخير . والابتعاد عن الشرّ ، واجتناب ما حرّمه الله ، وفعل ما أمر به .

حريّة المرأة هى أن تعرف حقّها فتطالب به . وتعلم واجبها فتؤديه . وتقف عند حدّها فلا تخرج عنه ، كما ذكرت ذلك فى كتابى (عظة النّساء) .

٢ — ويكفى دليلاً على صحة ما أقول . ما نشرته جريدة الأهرام الغرّاء فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٣ عن لسان الآنسة عليّة فهمى (خريجة السربون بباريس) معبرةً عن شعورها نحو النّساء المصريّات عند عودتها من أوروبا . وقد قضت شهراً فى الإسكندريّة ، ورأت ما رأت من تهتّك النّساء . وقد استنكرت ما رأته حولها وقالت : « إن كل ما حولنا لايكاد يكون طبيعيّاً . فنحن نندفع نحو الغرب . فى حين أن على الشّرق أن يحيا حياةً شرقيّةً لأسباب عدّة : منها الجنس . والطبع . والثّقافة » .

« والمرأة الشّرقية تُحاول أن تنال كلّ حريتها كالغربيّة . فى حين أنها لم تستعدّ لها ، وقد رأيت رجالاً ونساءً لايفكّرون إلا فى الجسد . أما الفكر فيضعونه جانباً . فالمرأة إذا جلست عندنا إلى رجل تعجز عن أن تكون إلا امرأة . فهى عقليّاً قاصرةٌ عنه مندفعة ـ سواء كانت فتاة أم امرأةً شابّة ـ فى تقليد الغربيّة تقليداً أعمى » .

« ودليل عدم بلوغها صاحبتها الغربيّة . هو مارأيناه فى الإسكندرية . فانه لايعجبنى فتاة (استانلى باى) المستهترة مهما كانت حسنة النيّة . لايعجبنى أن تخلع ثيابها . وتضع لباس الحمام . وحولها عيونٌ شرقيّة تلتهمها التهاماً مرذولاً » .

« وقد عارضنى بعض صديقاتى فى أفكارى هذه . وفى امتناعى عن النزول إلى البحر . وضربن لى مثلاً (كان) و (نيس) وغيرهما . فعارضتهن بدورى قائلة :

إن العرى هناك طبيعى لتعوّدهم إياه . أما هنا فالشّرقى لم يتعوّده . ولسنا فى حاجة إليه إلا بعد مضىّ سنوات . ما دامت هناك عناصر الرقىّ الاجتماعى لم تتوفّر لنا بعد .

فلا يوجد عندنا إلا مجتمعٌ مختلطٌ . لايقوم إلا على أفكارٍ منحطّة ، أو على الغزَل ، ولذلك فلا حاجة لنا به كذلك الآن . وعندى أن على المرأة المصريّة أن تتعلّم ألوف الأشياء التى حولها قبل أن تُطالب بحريتها ، ولست أعنى بهذا بعض اللّواتى تلقّين ثقافةً عالية ، وأثبتن كفايةً واتزاناً » .

« ولست أدرى ماذا يقصدن بأن يصرن (مصريّات) ؟ هل يُردن الرقص والتمتّع وحياة المسرح والملاهى (والتهييص) ؟ اللّهُم كلا ، إنها فى فهم الحياة كما ينبغى ، وليس لها قبل أن تنير عقلها ، وتقوّى إرادتها وتُحرم شجاعتها أن تذهب إلى الشاطئ. فتمدُّ جسمها نصف عريان » .

« وعلى الفتاة المصرية الجديدة ، أن تعتدل فى طلب حريّة لاتدركها ، أو تُسىءُ فهمها . وتجد من الجانب الآخر خطأ الرجل المصرى ، الذى إما أن يُطْلِق امرأته تسرح كما تشاء . وإما أن يضيّق عليها الخناق (كأنها سجين) » .

هذه هى بعض آراء الأستاذة عليّة فهمى . وهى آراء معقولة ، لها قيمتها الأدبيّة ، لأنها صادرة من فتاة مصرية ، تشبّعت بأقصى معانى الحريّة فى أعظم بلدٍ يفهم معنَى الحريّة (وهى باريس) مدى سبع سنين . فيستحيل أن يُقال عنها إنها رجعيّة ، ولكنها تخشى الطفرة (والطفرة مُحال) .

ونريد السير إلى الأمام فى رفقٍ وحذر ، ونريد فى أثناء هذا السير نحو النُّور ، التزوّد من أسلحة الحياة كالمعرفة والفضيلة .

وعلى كلّ حال . فيجب أن يكون سيرنا إلى الأمام فى الطريق الطبيعى الذى اختطّه للمرأة الشّرعُ الشّريف والأدب الرّفيع . أما الخروج عن هذا ، فهو خروج عن الجادة ، وانحراف عن سواء السبيل .

فلتعلم الفتاة المصريّة ، أن المدنيّة الصحيحة ليست فى تقليد الأجانب فى مدنيّتهم : بل هى الآداب والأخلاق الراقية ، والمحافظة على تعاليم الدين القويم ، واتّباع العادات القوميّة الفاضلة .

ولتعلم أن الأمّة إذا تركت تقاليدها القوميّة ، وجهلت أو تجاهلت تعاليم دينها الحنيف . وقلّدت الأجانب فى أمورهم ، وجرت معهم فى اتّباع السيىء من عاداتهم لم يمض عليها قليلٌ من الزمن إلا وهى أثرٌ بعد عَين ، وانمحت معالمها ، وضاعت مدنيّتها .

فالتّقاليد عند علماء الفرنجة أنفسهم ، وأخصّ بالذكر منهم الأستاذ (لوبون) هى روح الأمّة التى تبعث فيها الحياة . وتعصمها من التّفكّك والانحلال .

ولتعلم أن الفرنجة يهمّهم أن يقلّدهم الشّرقيّون عامّةً ، لتضيع معالمهم ، وتنتهى قوميتهم ، وأنّ الانغماس فى تقليدهم يعود على الأمم الشّرقيّة بالخيبة والوبال وسوء الحال .

وها هى ذى بلاد الأندلس ليست منّا ببعيد ، فقد قضى الإسبان على مدنيّها ، وأقاموا على أنقاضها مدنيتهم وعاداتهم . فصارت فى عالم النّسيان وكأنها لم تكن .

فلتنتبه الأمّة المصرية عموماً . والمرأة المصرية خصوصاً من غفلتها ، ولتحافظ على عاداتها وقوميتها ، إذا أرادت أن تحيا حياةً طيّبةً شريفةً سعيدةً .

والله الموفّق لما فيه صلاح الحال .

المحاضرة السابعة :

تساهل الرجال سبب فساد النساء

قرأت فى جريدة الأهرام فى ٢٣ - ٣ - ١٩٤١ خبرا لفت نظرى ، وكدّر خاطرى . وهيّج مشاعرى ، وهو :

(ضبط نادٍ للمقامرة خاصّ بالسيّدات والفتيات)

« اتّصل بمكتب حماية الآداب أن سيدة تقطن بشارع (سان استفانو) بضاحية مصر الجديدة . قد أعدّت منزلها للمقامرة بعد صدور الأمر باغلاق أندية القمار ، وأن كثيراً من السيّدات يختلفن إليه ، ويزاولن المقامرة حتّى الساعة الرابعة صباحاً وقد استصدر اليوزباشى صالح زكى رئيس المكتب أمرا من النّيابة بمهاجمة المنزل ، واستصحب نفرًا من رجاله عند منتصف ليلة أمس الأوّل . وداهم المنزل . فضبط به عشر سيدات وفتيات يلعبن (البوكر) . ثم صادر ما وجده أمامهن من النّقود وأدوات اللّعب . وأخذ فى التحقيق مع صاحبة المنزل .

فبقدر ثنائى وتشكرى على همة الشّرطة ومكتب حماية الآداب وغيرته على المحافظة على الأموال والأعراض والآداب . بقدر أسفى وحزنى على ما وصلت إليه حالة النّساء من التهتّك والفجور . وخروجهنّ عن حدود الكمال . حتى أصبحن يلعبن القمار لكسب المال من طريق الحرام . ويا للمصيبة ! ويا للعار ! .

وفى كل يوم نقرأ على صفحات الجرائد أخبارًا محزنة فى مداهمة بعض البيوت السريّة والبيوت الداعرة . وضبط كثير من النّساء والفتيات المقامرات . لهذا أخذتنى غيرة دينيّة . ودفعتنى الحميّة الإسلامية ، لأن أكتب كلمةً على تهتّك النساء وخروجهنّ عن حدود الأدب فأقول :

أيّ مسلم غيور لا يتكدّر . بل أيّ حرّ شريف لا يتحسّر . عند رؤية النّساء وهن فى الشّوارع والطّرقات . وفى المجتمعات والحفلات . عاريات متبرّجات ، فى حالة يحمرّ لها وجه الحياء خجلاً . وتذوب لها قلوب الأحياء أسفاً وحزناً . حتى أصبح الإنسان الحرّ الغيور . يخشى عند خروجه من منزله لكيلا يرى هذه المناظر المكدّرة التى لا تبيحها الشّرع . وتأباها الإنسانيّة الحقّة ، ولا يحبّذها ويميل إليها إلا كلّ

شاب غِر ، ورجلٍ مفتون ، لا يُهمُّه ضياع وقته وحياته فى سبيل الشيطان .

وإنى أرى أن السَّبب فى فساد النِّساء وتهتُّكهن هو تساهل الرجال ، والسماح لهن بالخروج على هذا الحال وعدم الاعتدال ، فماذا ينتظر الرجال بعد سوء الحال ، وهتك العِرض ، وضياع المال ، وبعد أن ثبت لهم بالأفعال لا بالأقوال ؟ .

أيها الرجال ماذا جرى لعقولكم حتى رضيتم أن تفجر نساؤكم وبناتكم ؟

أيها الرجال : أولى لكم من الاشتغال بالسياسة العمومية ، أن تسوسوا بيوتكم ، وتحفظوا نساءكم وبناتكم من هذا التَّدهور الخُلُقى .

أيها الرجال : نساؤكم وبناتكم من نعم الله عليكم ، فأمسكوهن خشية أن تزول هذه النعم منكم ، وكفى ما فرّطتم فى الأيَّام الماضية .

أيها الرجال : أعراضكم فوق أرواحكم ، وقد فرّطتم فيها كثيرًا ، أفلا تشعرون وتُفيقون من هذه الغفلة ؟ .

أيها الرجال : أعراضكم أغلى وأثمن من أموالكم ، وقد طرحتم بهن فى مهاوى الفساد والدمار ، أفلا سمعتم قول حسَّان شاعر الإسلام :

أصون عِرضى بمالى لا أضيِّعه   لا بارك الله بعد العِرض فى المال

أيها الرجال : اسمعوا وعوا ، إن الله ولاَّكم أمر نسائكم لتصلحوا الولاية ، فأسأتم لهن بتفريطكم وتساهلكم ، فهل أنتم مُصلحون ؟ .

أيها الرجال : ما بلغ النِّساء والبنات هذا الحدّ ، وخرجن إلى الهزل من الجَدّ ، إلا من تساهلكم ، وضعف رأيكم فى سياستهن ، وخَوَر عزيمتكم فى حجبهن ، ومنعهن عن الخروج ، كأنه لا غَيرة فى قلوبكم على أعراضكم (قبَّح الله من لا يَغار) .

أما علمتم بأنه لو ضاعت الغَيرة من الرجال ، وفُقِد الحياء من النِّساء ، فقولوا على الدين العفاء ؟ .

أيها الرجال : إذا تكلَّم الواحد منكم مع الآخر فى حالة النِّساء الآن أظهر التَّحسُّر والأسف ، وقبَّح هذا الحال ، وخاف سوء المآل ، ولكن إذا دُعِىَ إلى تغييره أعرض ونأى بجانبه وقال : (دع الخلق للخالق ، نسأل الله الستر ، فلا اعتراض ولا انتقاد) .

أينتظر الواحد منكم أن يأتِىَ غيرُه فيصونَ له حريمَه ؟ أم تنتظرون أن تقلب الحكومة نظامها ، وتتدخل فى أموركم الخصوصية ، وهى تباعدت عنها احترامًا لحريتكم الشَّخصيَّة ؟ وكيف تتدخل هى وأنتم لاهون ساكنون ؟ .

وسكوتكم هذا دليل الرضا بما أنتم له كارهون .

والله ما شاعت هذه المُنكرات فى النساء المسلمات . إلا لتفريطكم فى الحجْر عليهن . وتساهلكم فى أمورهن . وخروجهن عن حد الأدب والاحتشام .

فاحذروا أيها الرجال سوء عاقبة هذا الحال . فالحرّ العاقل لايسلِّم بذلك ، ولا يرضى بتهتُّك النساء واختلاطهن بالرجال والشبان . ولا تنسَوْا أيها الرجال ، أنه كلما كثر خروج المرأة ومخالطتها بغيرها من النساء زاد طلبها للملابس والحُلىّ ، إمَّا تشبهاً بغيرها ، وإن كنّ أعلى منها مقاماً وأكثر ثروة . وإمَّا تشبهاً لما هومعروض فى الأسواق استلفاتاً لأنظارهنّ ، وترغيباً لهن ليرقن فى نظر الرجال والميل إليهن ، مع أنها لو لزمت جانب الحشمة والوقار . لكانت فى غاية الاحترام والاعتبار ، ولما وجد سفيهٌ من نفسه مطمعاً لمداعبتها ومعاكستها . ولا أدرى ماذا أقول ، وقد ضاعت من الرجال العقول ؟ .

أقول : أين أهل النهضة والاستنهاض ؟ أين أهل الغَيرة على الأعراض ؟ كانوا وكان فعل ماض . وهل يستقيم الظلّ والعود أعوج .؟

ولو قارنَّا بين الماضى والحاضر لرأينا أن السَّبب فى تمادى النساء على هذا الحال والتزام الرجال الصمت والسُّكون فى هذا المقام،رغماً عن تحقُّقهم ضرره أدبيًّا وماديًّا ، هو الوهم السَّائد على عقول النِّساء والرجال فى فهم الحرية الشخصية ، التى ابتليت بها مصر من عهد الحرب الماضى للآن ، بحيث أصبحت المرأة تخرج عن طاعة زوجها ، وتجرى فى ترك الحجاب على مشيئتها . وقد آنست من الرجل ضعفاً وتساهلاً فى حقّه فكادت تُنكره كما قالت إحدى السيدات عند سؤالها عن سبب ترك الحجاب وعدم تقنُّعها :

مولاى يعجب كيف لم تتقنَّعى ؟ قالت له : أتعجُّباً وسؤالاً ؟
ما كانت الحسناء ترفع سترها لوقد رأت فى ذى الجموع رجالاً

نعم إن المرأة ما وصلت إلى الحالة التى نراها عليها الآن ، واسترسلت فى هواها توسَّعت فى مطالبها حتى أصبحت مثال التبرّج الفاضح ، والعار الواضح ، إلا بسبب تهاون الرجال وتساهلهم وإهمالهم وتركهم للنساء الحبلَ على الغارب .

- أرجل : إن كنتم تعرفون ما لكم من الحقوق التشَّرعيَّة المقدَّسة على النِّساء .

فما عليكم إلا أن تَعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وتنهضوا نهضة الرجل الحرّ الغيور لردعهن عن الغيّ والفساد . وهدايتهن إلى طريق الهدى والرشاد .

واعلموا أنكم بين يدى ربكم مسئولون عن كلّ هذه المخازى والآثام ، ولا عذر لكم فى تفريطكم فى حقّ يؤدى التفريط فيه إلى ما حرّم الله ورسوله « كلكم راعٍ وكلّ راعٍ مسئولٌ عن رعيّته » .

وما جعل الله أمر نسائكم بأيديكم إلا لأنه يعلم ما فيهنّ من ضعف العقل والدين . وخوَر العزيمة عن مغالبة هوَى النَّفس، فكنتم بذلك قوّامين عليهنّ . ولذا قال الله تعالى (الرّجالُ قوّامونَ على النِّساءِ) .

فاتّقوا الله فى نسائكم وبناتكم ، واعملوا على ما فيه حفظهنّ وسلامتهنّ ، حفظاً لشرفكم . واتّباعاً لأمر دينكم .

المحاضرة الثامنة :

مسئولية المرأة فى تربية أولادها

لتعلم المرأة أنّ أكبر نصيب من المسئوليّة فى تربية الأولاد واقع عليها ، سواء كانت فيما يتعلّق بالوجه الأدبى ، أو الوجه الصّحىّ ، ولا يُسمح لها أن تعتمد على الزوج فى قضاء هذه المهمّة ، لأنه يكفيه الجهاد الأكبر خارج المنزل لكسب ما يقوم بحاجاته بل يُهمّ الرجل الذى يعمل طول نهاره مجاهداً فى السّعى على طلب رزقه ورزق أولاده أن يجد أجرة عمله عند عودته إلى بيته سلاماً وراحةً وهناءً .

وغاية ما يُسمح للمرأة أن تطلبه من زوجها . هو ألا يُكثر من أنواع التّحبّب والتّودّد لأولاده ، خوفاً من أن يُفسد عمل الأمّ ، ويُضيع عليها الأتعاب التى تبذلها فى سبيل تربيتهم وتقويم معوجّهم .

ولكن يجب أن تُطلعه على المنهاج الذى تسلكه فى قضاء مهمتها قياماً بواجب المشورة ليكون على معرفةٍ من خُطّةِ سيرها ، فيُمدّها بثاقب رأيه ، وجليل إرشاده ، وما يكون به صلاحُ الأولاد ونجاحُهم .

ومن المعلوم أن تقدُّم الأمّة ، يكون بتقدُّم المرأة ، كما أنه لايتمّ إن كانت فى تأخُّرٍ وانحطاط ؛ فهى فى الحقيقة والدة الرجل ، ومهذّبته ، وشريكته فى الحياة وأتعابها . بل هى أصل سعادته ، ومورد بهجته . وأعظم عامل على نجاحه وتوفير ثروته .

وهى التى بحُسن آدابها . تغرس فيه الفضائل ، وتعلّمه كيف يحبّ وطنه ، وكيف يخدم بلاده . وبالعكس هى منشأ فقره ، ومنبع شقائه ، لأنها بجهلها تُلقيه فى حُفرة الذّل والهوان ، وتجرّه إلى التّقهقر ، وتميل به إلى الضياع والخسران .

فهى الأساس الأوّل لتربية الأولاد ، وجعلهم رجالاً للمستقبل .

ومن الوجوب العينىّ أن تتعلّم كيف تربى أولادها التّربية الحقيقيّة المطلوبة .

فأوّل واجب عليها المحافظة على صحة أولادها وعقولهم ، لأن الولد لايكون رجلاً حقيقياً . إلا إذا وجد من يعتنى بصحة جسمه وعقله ، ويقوّم أخلاقه ، ويكسبه من

الصفات الحسنة مايؤهله لأسمى الأعمال ، وأرفع الدرجات ، وينال به رضاء النّاس عنه . لأنه لاغنى للواحد عن العالم . فهو يعيش بالكل ، وبه يعيش المجتمع الإنسانى ؛ فاذا لم يكن جامعاً لشروط التهذيب والاستقامة سقط ، وكان السبب فى سقوطه فساد الأساس الذى نشأ عليه « أى فساد تربية الأم » .

لأن الطفل فى صغره يكون سريع الانقياد لين الفطرة ، تنطبع فى ذهنه صورة أخلاق مربيه .

وبما أن الأمّ هى الملازم الأوّل للمولود فى ذلك العهد ، وجب عليها أن تُدرك ماهية التربية وقوانينها ، لكى تتمكّن من سياسة ولدها ، وتقويمه على الوجه الذى يكون به عضواً نافعاً فى الهيئة الاجتماعيّة ؛ وإلا إن أهملت تربيته . ونشأ على ما تميل إليه طبعه وهواه ، نشأ عنيداً عاصياً شقيّاً ، وأصابها من شقائه النّكد ومرارة الحياة ، إلى أن يبلغ السنّ التى فيها يُفارقها إلى المدرسة ، حيث يدخلها وهو جاهل . فيحتاج لتهذيبه من الوقت والتّعب أضعاف ما يلزم لمن تربى فى حجر والدته (التى هى المدرسة الأولى لولدها) .

وأخذ عنها الأخلاق المرضيّة ، والأفعال الحسنة ؛ وادّخر من حكمتها المبادئ القويمة ، والآداب الصحيحة .

فالمرأة التى تهمل تربية أولادها . ربما وصل الأمر ببعضهم لأن يكيل لها الصاع صاعين ، ويُعيد إليها الشتمة شتمتين ، والضّربة ضربتين . وهى مع ذلك تبتسم له استخفافاً . وتعذره ناسبةً فعله وقوله إلى حداثة سنّه . ولا تنظر فى أمر عقابه وتهذيبه . وتنتظر السنّ التى فيها يعقل معنى تلك الشتائم والقبائح . فيبتعد عنها من تلقاء نفسه . مع أنه متى وصل إلى هذه السنّ تمكّنت منه تلك الأخلاق ، وتعذّر قلعها منه .

وبعض الأمّهات يتوعّدن أولادهن بالشّكاية إلى أبيهم ، ويردّدن جمل التهديد لأولادهن بالاقتصاص منهم عند حضوره . حتى إذا عاد الوالد المسكين من أشغاله تعباً . أخذت تزيد فى همومه . وتُضاعف فى متاعبه . لسرد عيوب أولادها . وقبيح أعمالهم ؛ فإما أن يغضى الأب عن مساوئ ابنه اكتفاءً بما يقلقه من الأشغال . وإما أن تهيج غضبه فيعنّفه ويضربه بقسوة لما وقع منه . وفى هذا الحال لاتفيد الولد العقوبة . بل يتعلّم منها احتقار والدته القاصرة عن تربيته بنفسها . وكُره والده الذى يهينه بقسوةٍ وحشيّة .

وهكذا يشُبُّ الولد عقوقاً . لايعرف لوالديه مهابةً ولا احتراماً ، مع أن الأمّ العاقلة تتحاشى ما استطاعت تمثيل الأب فى أعين أولادها بما يبعث الخوف والرعب فى نُفوسهم منه . وينزع المحبّة الأبويّة من قلوبهم .

فعلى الأم العاقلة أن تتلافى هذا الخلل ، وتختبر بنفسها تأثير كلّ حركةٍ منها على أولادها . متّبعةً الوسائل المفيدة ، كلٌ بحسب طبائعه وأمياله .

فان أحسنت سياستها معهم فازت بالمرغوب . ونالت السُّلطان المطلق على إرادتهم .

ومما يُساعدها على ذلك ، عامل الحبّ المُتبادَل بينها وبين ولدها ، فاذا عرفت كيف تستخدم تلك العواطف . خضع لها ولدها . وكانت ثقته بها تامّة ، إذ لايُنكَر ما للحبّ من النُّفوذ والسُّلطة على العقل .

وبناء عليه : لايحسُن أن تكل الأمّ أمر الاعتناء بصحة أولادها وتهذيبهم إلى الخدم الذين يجهلون فنّ التربية . وإذا عرفوا منها شيئاً . فأين لهم نظرات الأمّ الحنونة ، وابتساماتها المؤثّرة . التى قد يكون منها أكبر مهذّب . وأحسن مرشد .

أسأل الله أن يوفّق نساء مصر إلى حُسن تربية أولادهن ، حتى يكونوا رجالاً عاملين نافعين لأنفسهم ووطنهم .

باب التربية

مسئولية المرأة فى تدبير منزلها

إن المرأة هى ربّة المنزل ، وبيدها زمامه ، تقوده إلى حيث تشاء . ولها فى تدبيره الدّوْر الأوّل ، وعليها المسئوليّة العُظمى ، لأنها وحدها قادرةٌ على سعادة الرجل أو شقائه .

وبعبارةٍ أُخرى متوقّفٌ عليها حظّ الرجل فى دُنياه . فكل منزلٍ ترى فيه امرأةً عاقلةً عاملةً عالمة بتدبير منزلها ، فالسَّعادة أليفه . والسُّرور حليفه ؛ وكلّ منزلٍ ترى فيه امرأةً جاهلةً فاسدة الخُلُق ، فأطلق عليها لسانك بالنَّدب . ودمعك بالبكاء ، واعلم أن حليف ذلك المنزل النّكد والشّقاء .

ويُقال فى الأمثال : (الرجل يجنى ، والمرأة تبنى) : أى الرجل قائمٌ بالتّحصيل والكسب فى الخارج . والمرأة هى التى تتناول منه ما يحصله بكدّه واجتهاده . فتصرفه فى أبوابه وتضعه فى مواضعه ، كما يرشدها إليه العقل السليمُ . والفكر الصّائب المُلمّ بأحوال المنزل ، الخبير بشئونه .

وهذا كلامٌ فى غاية الحكمة ، وأصالة الرأى ، لأنه كم من بيوتٍ غنيّة افتقرت بعلّة المرأة وسوء تدبيرها ، وكم من منازلَ عامرةٍ خَرِبت مما أصابها من المرأة وهدمها لها وتدميرها . وكم من نساءٍ أضعن أثمن شىء لديهنّ وهو حبّ رجالهن . بسبب كسلهن وإهمالهن واجبات منازلهن .

وحقيقةً لاشىء أصعب على الرجل العامل النّشيط الذى يقضى نهاره مُكبًّا على تحصيل رزقه من أن يُشاهد بجانبه امرأةً كسولة جهولة مهملة ، لا تُحسِن إلا الإنفاق على الملابس والزينة الباطلة ، ولا تميل إلا إلى البطالة ، فلا تصحو من نومها مثلاً إلا بعد أن يقضى زوجها المسكين السّاعات العديدةَ فى التّعب والعناء .

ومن الغريب أنّ كثيراً من النّساء يشتكين عدم رضا الأزواج عن عيشهنّ . مع أنهن علّة تلك الشّكوى ، فاذا أحببن أن لا يسمعن شيئاً من ذلك . فليبدأن باتمام

واجباتهن المنزليّة بدون إهمال ولا تهاون فبذلك ينلن رضا أزواجهن ، ويفزن بالحمد والثّناء . ويعشن في راحة وهناء .

فضل المرأة المدبرة

ذكرت إحدى المجلات على سبيل الفكاهة والاعتبار ، أن فتاةً كانت مولعةً بحبّ الموسيقى ، وكان عندها بعض آلات الطرب . ولما تزوّجت باعت ثاني يوم زفافها جميع ما كان لديها من تلك الآلات ، واشترت بأثمانها آلةً للخياطة وأشباهها ، فعلم زوجها بذلك . وسُرّ كثيراً به . وأخذ يذكر ما فعلته في كلّ مجلس وناد ، وكان لتلك السيدة أربع أخوات غير متزوجات ، فما لبثن بعد زواجها ، وانتشار فضلها في تدبير المنزل حتى أقبل الشبّان فتزوّجوا جميعهن لوثوق النّاس أنهن سيكنّ في حسن التّدبير كأختهنّ .

وهذه القصة جديرةٌ بأن تكون عظةً وذكرى، لكلّ فتاةٍ شرقيّة ، وكلّ بيتٍ في بلاد الشّرق . لأن تدبير المنزل ، لايكون فقط بترتيب المفروشات ونظافة الملابس والأدوات . وجودة الطّعام ؛ بل هو أيضاً بتوفير المال . وحُسن الاقتصاد في المعيشة . فاذا كانت المرأة مُسرفة . أمكنها أن يكون منزلها نظيفاً مرتّباً ، ولكنها لاتكون حائزةً على الثّناء الواجب لأنها مُسرفة . ولا فضل لها فيما تأتيه مع الإسراف .

ولا يخفى أن الشّبان الشّرقيين أصبحوا ينفرون من الزواج ، ولم يكن هذا النّفور لقلّة المال أو لنقص قليل في الجمال . إنما خشية إسراف المرأة . وعدم قدرتها على تدبير منزلها . الأمر الذى يكون مع الفقر ويلاً فوق ويل ؛ وانتشر هذا الاعتقاد عند كثيرٍ من الشّبان ، وهو صواب لاجدال فيه ، لأن تدبير المنزل من أهمّ ما تتمّ به الراحه . ويحلو به العيش . فاذا لم تكن الزوجة مدبّرة ، لم يكن (حسن معيشة) ، وإذا كان الشابّ موقناً بعدم حصول التّدبير فلا تقدُم على الزواج مطلقاً خوفاً من الإسراف في الإنفاق .

وكثيرٌ من البنات يلمن الشّبان على عدم الزواج . ويزعمن أن السّبب في ذلك هو نقص المال ، وليس لأنهنّ غير قادراتٍ على تدبير المنزل أو تحسين المعيشة . وقولهن هذا مقبول . ولكنهن السّبب فيه . لأن الشّاب لا يطلب المال إلا خوفاً من ألا يكون

هناك حُسن تدبير لمنزله . ومتى امتنع ذلك التّدبير فقد لزم بدون شكّ أن يقوم المال مقام التّدبير .

وهذا غالباً معظم السّبب فى سوء حال المتزوّجين . وابتعاد معظم الشبان عن الزواج .

هذا ، وليعلم النّساء أن الحيلة فى تدبير المنزل هى مالٌ حقيقىّ ، لأن أكثر الأفرنجيات يشتغلن فى الأسواق ، ويشاركن رجالهن فى الأعمال ، فلذلك لاتكون منازلهن إلا للنوم فقط . أما سائر أسباب الحياة ، فتُقضى فى الفنادق وأمثالها .

فاذا لم يكن للرجل توفيرٌ من امرأته فى منزله ، بأن كانت لاتستطيع صُنع الطّعام ، أو خياطة الملابس ، كان له مورد ثانٍ من عملها ليسدّ ما نقص منها .

وأما النّساء الشّرقيات فلا عملٍ عندهن إلا فى المنازل . وهذه الأعمال أيضا هى مالٌ حقيقىّ . فاذا كانت المرأة التى لاتدبير عندها تنفق على بيتها عشرين قرشاً فى اليوم مثلاً ، وكانت المرأة المدبّرة تُنفق عشرة قروش ، كان لزوجها منها عشرة قروش يوميًّا وفرّتها له بتدبيرها ، وكأنها بذلك تشتغل مثله . ولا حقّ له فى الشّكوى منها .

وبالإجمال . فان تدبير المنزل كلّه لايقوم إلا بتوفير المال ، وحُسن السّياسة فى إنفاقه وتدبيره .

ولما كان أمر المنزل موكولاً للمرآة وحدها كان من أهمّ ما يجب عليها اعتبار المال وحُسن التّقدير فى الإنفاق .

فعلى جميع النّساء والفتيات أن يعتبرن بهذا الشأن ، حتى تحسُن حالة العائلة ، ويكثر الزواج ، وتمتنع الشّكوى بأن المرأة عالةٌ على الرجل لأنها لاتُعينه .

المحاضرة العاشرة :

آراء وأفكار

محالٌ مساواة المرأة بالرجل

١ — حضرة الفاضلة صاحبة ومديرة مجلة النهضة النسائيّة :

السلام عليكِ ورحمة الله ، وبعد : فلا بد أن يكون وصل إلى علمكِ الشّريف ، الضجّة الهائلة التى قامت فى هذه الأيّام من بعض الرجال . الذين يرون فى أنفسهم أن الرجل منهم يُساوى المرأة . وأن المرأة أصبحت فى نظرهم واعتقادهم تُساوى الرجل فى الحقوق والواجبات . بما وصلت إليه من التّعليم والتّفكير ، مُستشهدين ببعض النّساء الغربيّات ـ العالمات الكاتبات ـ والطالبات فى الجامعات ، وهم يريدون بهذه الحركة اختلاط المرأة بالرجل اختلاطاً عامّاً فى الأندية والمجتمعات . ويصرّحون بأن لها حريّة اختيار الرجل كما هو للرجل . ولا بدّ لها من حقّ الطّلاق مثله .

ولعلّهم يريدون أيضا القول بأن لها حقّ الزواج برجلٍ أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة ، أى تعدد الأزواج ، كما للرجل تعدُّد الزوجات .

والأغرب من هذا كلّه ، أنهم يطلبون (مساواة المرأة بالرجل فى الميراث) مدّعين بأن الشّرع ظلمها فى هذا الحقّ . وهم بهذه الدّعوة الخرقاء الباطلة ، قد خرجوا عن حدود الدين . وخالفوا قول أحكم الحاكمين (للذّكَرِ مثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ) ، فيالها من جرأةٍ طائشة ، وويلٌ لهم مما يدّعون .

وقد أنكر عليهم ذلك حضرة صاحب السّموّ الأمير الجليل عمر طوسون باشا ، فأرسل كتاباً بتاريخ ٢٨ يناير سنه ١٩٣٠ إلى حضره صاحب المعالى وزير المعارف العموميّة يلفت نظر معاليه إلى المُناظرة التى أُلقيت فى كلية الحقوق فى هذا الموضوع قائلاً :

إنه لا يسوغ الجدل فى نصوص الإسلام القطعيّة (كمسألة الميراث) فى معهدٍ تهيمن عليه حكومة مصر الإسلامية . ويطلب من معاليه أن يجعل حدّا لهذا التصرّف المقوت .

فأجاب معالى الوزير شاكرا لسموّه غيرته الدينيّة ، وأنه سيفحص هذا الأمر

بالعناية الواجبة ، لإجراء ما يتفق وقوانين البلاد . والمحافظة على حرمة الدين الكريم .

وقد قامت جمعية مكارم الأخلاق من ناحيتها بواجب الشكر لسموه على هذا الشعور الدينى الشريف .

فيحق لنا أن نقول : جزى الله سمو الأمير ومعالى الوزير خير الجزاء ، وجعلهما عضداً ونصيراً للدفاع عن الدين الإسلامى . وإطفاء هذه الفتنة .

قال الله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب) .

هذا ، وكنت أعتقد أن فى خطاب سمو الأمير . ورد معالى الوزير القول الفصل فى هذا الموضوع . وإيقاف هذا التيار الجارف (تيار الإلحاد) والضرب على أيدى أولئك الملحدين ، ولكن قرأت فى جريدة الأهرام الصادرة فى يوم الأربعاء ٥ فبراير سنة ١٩٣٠ خبراً كدرنى وأحزننى وهيج مشاعرى . وهو أن الدكتور (فخرى فرج ميخائيل) ألقى محاضرة فى مساء الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٣٠ بالجامعة الأمريكية فى نفس الموضوع ، وأثار بمحاضرته عضب لفيف كبير من السامعين حيث تعرض للدين الإسلامى الحنيف بخصوص مسألة الميراث (مدعياً بأن الشرع ظلمها فى هذا الحق) وطعن بذلك فى الإسلام ، وشهر بنصوص أحكامه .

وعلى أثر ذلك . انسحب معظم الحاضرين . محتجين على هذا الفعل الشنيع . معانين استياءهم على لسان جريدة الأهرام . مستصرخين وزير المعارف . وحضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، وفضيلة شيخ الجامع الأزهر ونواب البلاد .

وقد شرعت النيابة فى التحقيق مع الدكتور المذكور . لتعاقبه على ما صدر منه تأديباً له ، وعبرة لغيره .

وكنت أود ألا أتكلم فى هذا الموضوع . ولكن طلب إلى بعض الإخوان أن أكتب كلمة فيه ، فرأيت بعد البحث والتنقيب ، أن أنشر على صفحات مجلتكم الغراء آراء بعض علماء الدين ، وعلماء الاجتماع فى هذه المسألة التى أصبحت حديث الناس فى المجتمعات ، فأقول وبالله التوفيق ، والهداية لأقوم طريق :

١ ــ قال العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد ماضى أبو العزائم فى العددين ٤ ، ٥ الصادرين فى نوفبر وديسمبر سنة ١٩٢٣ من مجلة النهضة النسائية ما خلاصته :

« إن الله سبحانه وتعالى أنزل المرأة منزلة الرجل فى جميع الأحكام الشرعية فيما ينالها

من الرضوان والخير . فما قال سبحانه : المؤمن ، إلا وقال : والمؤمنة ؛ وما قال سبحانه : المسلم ، إلا وقال : والمسلمة ؛ إلا فى أمور اقتضتها منزلتها فى المجتمع ، فأسقط عنها شهودَ الجُمُعة والجماعات بشروط مخصوصة ، والجهاد إلا لضرورة بعد استطاعتها ، وأسقط عنها تكليفها بالنَّفقة على غيرها لأنه خلقها ضعيفةً دائمة العمل فيما خصَّصه سبحانه وتعالى لها من الحمل والرضاع . وهو عملٌ شاقٌ . »

« ولما كانت غير مكلَّفة بالنَّفقة حتّى على نفسها جعل لها سبحانه وتعالى نصف ما للذَّكر من الميراث ؛ وجعل شهادتها أقلَّ من شهادة الرجل ، لاشتغالها بنفسها عن ملابسة أهل الأعمال الدنيويَّة ، ولشدَّة تأثُّرها بالظَّاهر المحسوس . بخلاف الرجل .

« وفيما عدا ذلك . فالرجل والمرأة سواء . فى العلم ، والعمل ، والسَّعى وراء الخيرات . فما أوجب على الرجل عملاً من الأعمال . ولا طالبه بواجب من الواجبات . إلا وكانت زوجته شريكةً له فى هذا الحكم » .

« وتزيد عليه أن لها علوماً أُخرى يجب أن تتلقَّاها فى المدرسة المنزليَّة لم يُطالب بها الرجل : كعلم تدبير المنزل . وحُسن تربية الأبناء . وعلم قانون الصحة ، وخواصِّ الأشياء التى تُستعمل فى المنزل مما يلزم للمأكل والمشرب . ومعرفة التأثيرات الجويَّة . ومضارِّ الأوساخ . تنتفع بتلك العلوم عند ما تكون كملكٍ عظيمٍ لرعيَّةٍ سميعة مطيعة . ولو جهلت شيئاً من ذلك لأفسدت المملكة . وبفساد تلك المملكة الصغيرة يسرى الفساد إلى المملكة الكبيرة . فالمرأة مطالبة بما طولب به الرجل وأكثر » .

« أنزل الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أحكامه المقدَّسة . فجعل الرجل والمرأة سواء فى جميع أحكامه . من حيث العقيدة والعبادة والمعاملة . ولعلمه سبحانه وتعالى حقيقة المرأة ومنزلتها من الوجود وضعفها . لأن الله الخالق سبحانه هو الذى أسقط عنها الصلاة زمنَ الحيض وزمنَ الوضع . والصيامَ بشروطٍ مخصوصةٍ زمنَ الحيض والوضع والرضاعة . وأسقط عنها شهود الجمعة والجماعات . وأسقط عنها الحجَّ إلا مع محرمٍ أو زوج . وأسقط عنها الجهاد . وأسقط عنها النَّفقة حتّى على نفسها . وكلَّف الوالد أو الزوج أو الأخ الكبير بالنَّفقة عليها . ذلك لعلمه سبحانه وتعالى أنه خلقها أضعف من الرجل عظاماً وشرايينَ وأوردةً . وأعدَّها للحمل والوضع والرضاع ، تنتابها الأمراض فى كل شهرٍ مرتين بالحيض .

[illegible] أن تتخلص تلك الاضطرابات . وتُنهك قواه فى الوظائف الحيويَّة .

وتهدده الأمراض طول حياته فى أدوار متعاقبة ، وأزمنة متناسقة ، لابد وأن تصير قوته ضعفاً ، وشدته عجزاً ، وهمته سقماً » .

« وهذه هى حال المرأة بالنسبة للرجل » .

« وقال تعالى : (يا أيها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الَّذى خلقَكم منْ نفْس واحدة وخلَقَ منها زَوْجَها وبَثَّ منهُما رجالاً كثيرًا ونساءً ، واتَّقوا اللهَ الَّذى تَساءَلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رَقيباً) » .

« فبين لنا سبحانه وتعالى أنه خلق المرأة من الرجل . فلو نظرنا بعين البصيرة ، إلى أن المرأة من الرجل ، وإلى الوظائف الحيويَّة التى تقوم بالمرأة من حيض وحمل وولادة ورضاعة ، ثبت لنا جليًّا انحطاط المرأة عن الرجل فى الجسم والعقل . وذلك لأن خلقها من الرجل ، يستلزم (عدم مساواتها له) وذلك لأنها لم تُخلق منه بطريق التَّناسل . بل بأخذ جزء منه بقدرة الله تعالى ، فهى كجزء من الرجل : ولأن جميع هذه المظاهر الحيويَّة مما يؤثّر على جسمها وعلى نظامها العصبى ويجعلها فى حاجة له من التهيج والانفعالات النَّفسانيَّة والاضطراب العقلى يجعلها لاتُساوى الرجل » .

« ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر الرجل بأن يقوم للمرأة بما لابدَّ منه لها ، قال تعالى : (ومتِّعوهنَّ على الموسع قَدَرُهُ وعلى المقتر قدرُه متاعاً بالمَعرُوف حقًّا على المحْسنين) »

« ولم يوجب عليها أن تُرضع ابنها لزوجها إذا أبت ذلك ، وأوجب على الرجل أن يُرضع ابنه بالأُجرة ، كلّ ذلك إعلاناً لمنزلة المرأة ، وتعظيماً لها فى الإسلام » .

« وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السُّنَّة المُطهَّرة ما يجب على الرجل للمرأة حتى قال : (خيرُكم خيركم لأهله ، وأنا خيرُكم لأهلى) » .

« ومن إكرامه سبحانه وتعالى للمرأة أن جعل الطَّلاق ، وجعل للحاكم أن يطلِّق المرأة من زوجها قهرًا لعُسر النَّفقة ، أو لفقد عضو التَّناسل قبل الدُّخول بها ، أو لسوء العشرة » اهـ .

هذا ، وقد جعلت التَّشريعة الإسلاميَّة (الطَّلاق بيد الرجل دون المرأة) والسبب فى ذلك أنه ليس من الحكمة جعله بيد المرأة ، لأنه يغلب على خُلُقها الطَّيش والخفَّة وعدمُ الرويَّة فى الأمور ، فهى توقعه لأقل حادث . أما الرجل فهو أثبت منها جَناناً وأقلَّ طيشاً وخفَّةً ، وأكثر رويَّةً واختبارًا وحكمةً .

فلهذا جعلت الشَّريعة زمام الطَّلاق بيده دونها .

على أن هناك أحوالاً تجعل المرأة قابضةً على زمام الطّلاق كالرجل ، وذلك أن ذا أن تشترط على الزوج حال العقد أن توقع الطّلاق بنفسها .

وهذا مجمعٌ عليه من أرباب المذاهب ، فان لم تشترط ذلك ورأت من زوجها ما يكره من الاضطهاد وسوء العشرة مثلاً ولم يمكن الإصلاح بينهما ، فلها أن ترفع دعواها إلى القاضي وهو يفصم عقد زواجها من زوجها متى ثبت لديه أضرار زوجها لها

هل يمكن أن تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات ؟

٢ — وقال الأستاذ محمد فريد وجدى بك ضمن مقالة نُشرت فى جريدة المؤيّد الغراء بعددها الصادرين فى ٣٠ سبتمبر وأول أكتوبر سنة ١٨٩٩ : هل المرأة مساوية للرجل فى سائر الحيثيات ؟ فالجواب : لا .

وهل لدينا دليل على هذا الجواب السلبى أصدقُ من وجود المرأة من ابتداء الخليقة إلى الآن تحت سيطرة الرجل يوجّهها كيف يشاء ، ويحكم عليها بمُقتضى ميوله .

إذا كانت المرأة مساويةً للرجل من الجهتين الجسميّة والعقليّة ، فلماذا رضخت كلّ هذه الألوف المؤلّفة من الأعوام لسُلطان الرجل وجبروته ؟ .

ثم قال : هل الرجل أقوى من المرأة جسماً ؟ الجواب : نعم .

وهذه حقيقة لا مريةَ فيها البتة ، فان أقل نظرة لحالتها الطبيعيّة ، من حيث لوازم الأنوثة وعوارضُها ، ومن حيث الحملُ والوضعُ والإرضاعُ ، واستغراقُ عواطفها فى الهيمنة على أطفالها ، وهى الأمور التى يخلو منها الرجل بالمرّة ، قلنا أقلّ نظرة فى حالتها هذه التى يعدها الفسيولوجيون أمراضاً تكفى لأن نحكم بأنها أقلّ من الرجل قوّةً ونشاطاً .

ثم قال : هل المرأة أضعف من الرجل إدراكاً ؟ نقول : نعم . وأحوال الشّعوب الحاضرة والغابرة تؤيّد هذا القول بالشّواهد العينيّة ، فإن كل الأعمال الاختراعيّة والاكتشافات العلميّة التى بُنيت عليها السّعادة الإنسانيّة صدرت من الرجل دون غيره اللّهم إلا بعض أمور صغيرة تمّت على يد المرأة فى العصور المتأخّرة ، ولكنها غير ذات أهمّيّة .

والخلاصة : أن المرأة أضعف من الرجل جسماً وإدراكاً . أما جسماً فلكونها

معرّضةٌ للوازم الأنوثة ، وهى أمراض تهدّ القُوى ، فتُضعف البنية بشهادة الأطبَّاء .
وأما إدراكاً ، فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل وتربية أطفالها . والتَّحفُّظ عليهم غيرَ معرَّضةٍ مثلَ الرجل لمناشئ تنمية القوّة الإدراكيَّة .
فتكون النَّتيجة اللازمة لكلّ ما تقدّم أن المرأة لاتُساوى الرجل فى كلّ حيثية إنسانيَّة .
ثم تكلَّم عن وظيفة المرأة وقال : إن للمرأة أعمالاً غير ما للرجل ليست بالأقلّ أهميَّةً من أعماله ، ولا بالأدنى منها فائدةً ، فهى تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله .
الرجل يسعى ويشقى ويكدّ ويتعب ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله .
وامرأته ترتّب له بيته ، وتنظّف له فرشه ، وتجهّز له أكله ، وتربى له أولاده ، وتلاحظ له خدمه ، وتحفظ عينه من المحارم ، وهو يسكُن إليها .
وإن الله عزّ وجلّ خلق المرأة للملاذّ الدنيويَّة . وحفظ الشُّئون المنزلية ، وإنه لم يخلق النساء لمغالبة الرجال ، ولا للآراء والسياسات . ولو شاء لأعطاهن الشَّجاعة والبسالة والقوّة والشّهامة ، مع أن الأمر بخلاف ذلك .
(أما ما ذكر عن بعض النساء الشّهيرات اللاتى حضرن الحروب . فهذا نادر . والنادر لاحكم له) .
ولو أرادت المرأة أن تسلك مسلك الرجال ، وتتعوّد على تحمُّل ثقيل الأعمال . لتُساوىَ الرجل فى جميع أحواله وتضاهيَه فى أقواله وأفعاله . أفلا يكون ذلك منها خروجاً عن الوظيفة التى خصّها بها سبحانه وتعالى ؟
لأنه كما أن نظام الكون وسعادته ، قضيا بأن يُخلقَ الكون أطوارًا . وبأن أعمال الرجال يجب أن تكون مقسَّمةً بينهم . وأن يكون لكلّ منهم وظيفةٌ مخصوصةٌ ينقطع لها فيتقنها : فطائفةٌ للسيادة ، وطائفة للسياسة . وطائفةٌ للعلم ، وطائفةٌ للبأس والنَّجدة ، كذلك أراد الله أن يكون لكلّ من صنفى بنى الإنسان : المرأة والرجل عملٌ مخصوص لايتعدّاه ، وإلا حصل الخلط والتَّشويش ، وبمجموع عمليهما تتمّ السَّعادة لكليهما .
ولقد حصلت فى أحد المجامع مُناقشةٌ بين عدة من فتيان وفتيات ، فأخذت فتاةٌ تخطب فى أن الرجال هاضمون حقوق النِّساء . ولماذا لاتدخل المرأة فى الوظائف العامَّة ؟ ولم لايكون من النِّساء وزيرات ومديرات وقاضيات ونائبات ؟ .
فقال لها فتى من الحاضرين : نحن مستعدُّون لتسليمكن كل هذه الوظائف .

ولـكن على شرط أن تقُمن بأعمال الجنود ، من حفر خنادق ، وبناء استحكامات ومكافحة . وقت اشتعال نار الوغى ، واستخراج فحم ومعادن من المناجم ، ومباشرة حرث وزراعة فى الغيطان . وبناء جسور على الأنهر ، وحفر تُرع وغُدران .

فقالت الفتاه : فى الإمكان أن نقوم بهذه الأعمال إذا لم نتزوج ونحمل ونلد .

فقال الفتى : إذا كان غرضكن أخذ هذه الوظائف مدة ثم قيام الساعة بعدها ، فانتظرن آخر الزمن .

هذا . ولقد ثبت لعلماء العُمران أن توزيع الأعمال أقوى معارج التَّقدُّم والمدنيَّة ، فاذا اشتغل النِّساء بأعمال . والرجال بأعمال كان من وراء ذلك التَّقدُّم والنَّجاح ، وناهيك بالفساد الذى تراه من الرجال الذين يتشبهون بالنِّساء ، والنِّساء اللاتى يتشبهن بالرجال . . . ولقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الاثنين . وروى عن عمّار ابن ياسر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « ثلاثةٌ لايدخلون الجنَّةَ : الدّيُّوث . والمترجِّلةُ من النِّساء . ومُدمنُ الخمر » وفسَّر المترجلة بالتى تتشبَّه بالرجال .

آراء بعض علماء الفرنج

بأن المرأة لايلزم أن تتعدّى وظيفتها ، وبأن اشتغالها بأعمال الرجل مقوّضٌ لبناء المدنيَّة ، مفسدٌ لنظام العائلة

٣ — كتب العلامة الشهير . والفيلسوف العمرانى طائر الصيت (جون سمون) مقالةً فى مجلة العلماء عن المرأة الأوروبيَّة ، وسوء تأثير الإفراطيَّة عليها وعلى مجتمعها برهن فيها على أن الحقوق التى تنتحلها المرأة المتمدينة لنفسها ، خروجٌ عن الحدّ ، وغلوّ كانت نتيجته وخيمةٌ للغاية ؛ وشدّد النَّكير كثيرًا على اشتغال النِّساء خارج بيوتهن ، ومزاحمتهن للرجال فى الأعمال . عادًّا ذلك مقوّضاً لبناء المدنيَّة ، مفسداً للنظامات العائليَّة . واستطرد فى الكلام إلى أن قال :

« المرأة التى تشتغل خارج بيتها تؤدّى فى الحقيقة عمل عامل بسيط ، ولكنها لاتؤدى عمل امرأة » ثم قال :

« النِّساء قد صرن الآن نسَّاجات وطبَّاعات الخ ، وقد استخدمتهن الحكومة فى معاملها . وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ، ولكنهنّ فى مقابلة ذلك قد قوّضن دعائم عائلاتهنّ تقويضاً » .

نعم ، إن الرجل قد صار يستفيد من أجرة امرأته ، ولكن بإزاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له فى عمله .

ثم قال « وهناك نساءٌ أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر ، وفى محلات التجارات ويُستخدمن فى الحكومة كمعلّمات . وبينهن عددٌ عديدٌ فى التلغرافات والتليفونات والبوستة . والسكك الحديدية . وبنك فرنسا ، والكريدى ليونيه ، ولكنّ هذه الوظائف قد سلختهن من عائلاتهن سلخاً » .

ثم أطنب فى مضارّ ذلك ، وختم فصله بقوله :

« يقول بعض الفلاسفة : إن الحياة محفوفة بالمكاره ، ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا طعم الحبّ طول عمرهم . أما أنا فأقول : إن الحياة طيّبةٌ هنيئةٌ ، بشرط أن يلزم كلٌّ من الرجل والمرأة المحل الذى خصصه الله تعالى لكل منهما » .

٤ — وقال الأستاذ (فريرو) البحّاث فى أحوال الإنسان وتطوّراته :

« إنه يوجد فى انجلترا كثيرٌ من النّساء اللواتى يتعاطين أشغال الرجال ، ويتركن الزواج بالمرّة . وأولاء يصحّ تسميتهن بالجنس الثالث : أى أنهنّ لسن برجال ولا بنساء لمنافاتهن للأول طبيعةً وتركيباً ، وللأخريات وظائف وأعمالاً » .

وقد درس هذا الأستاذ أحوالهنّ درساً مدققاً ، فوجد أنهن بتركهن الزواجَ ، وانتزاعهن أنفسَهن من وظائفهن الطبيعيّة كالأمومة وما يتبعها ، قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنات جنسهن ، وصرن فى حالة من الكآبة تُشبه أعراض الماليخوليا ، فكأن الفطرة البشريّة تُقيم عليهن الحجة على إغفالهن حقوقَهن .

ثم قال « وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافى للسنن الطبيعيّة ، فان هاته النّسوةَ بمزاحمتهنّ للرجال ، صار بعضهن عالةً على الجمعية لايجدن ا يشتغلن به ، ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ عنه خلل اجتماعى عظيمُ الشأن » .

هذا موجز ما كتبه ذلك الأستاذ . ومنه يتضح للقارئ اللّبيب وجوب الحذر من تمهيد السّبيل أمام النّساء لتعاطى أشغال الرجال بالوسائل العادلة ، الكافلة لراحة الجنسين .

ولا يغرّنا ما نسمعه عن بعض النّابغات بأوروبا وأمريكا فى العلوم الطّبيعية والفلكيّة ، فانهن فضلاً عن كونهن لم يبلغن شأو الرجال فيها على الإطلاق . جانيات على هيئتهن الاجتماعيّة بعدم إرادتهن الزواجَ إلا بعد أن يبلغن سن الهرم تقريباً .

وبذلك فهن باشتغالهن بما لاينفع وطنهنّ بشىء يُذكر ، يُحرمنه مما يطالبنَ به

من الذرية الصالحة . فان الواحدة منهن لو تركت أشغالها الفلكية مثلاً ، العديمة الجدوى ، ورضخت لحكم طبيعتها ، فتزوجت وهى شابة لاستطاعت أن تهدى الجمعية الإنسانية بخمسة علماء من ذريتها ، يستطيع الواحد منهم أن يؤدى أضعاف أعمالها مما يكون له أثر يذكر فيشكر .

ثم إن عالمات العالم المتمدن يعددن جانيات فى نظر علماء العمران ، لابتعادهن عن الوظيفة الحيوية التى خلقهن لها الخالق عز وجل ، فقد ثبت بالإحصاء أن المرأة العاملة ، لاتتزوج قبل أن يبلغ سنها الخامسة والأربعين . كما روته مجلة المجلات الفرنسية .

فقل لى بأبيك ماذا ينتظر منها من التنسل بعد هذه السن ؟ وهل يستفيد الوطن من أبحاثها فى علم الطبيعة أو السياسة أو التشريع مثلاً ، بقدر ما يخسره من حرمانها إياه من ذريتها التى نبغ فيها فيلسوف مثل (جون سيمون) أو طبيعى مثل (هكسلى) أو عمرانى مثل (سبنسر) ممن يفيدون الإنسانية فوائد حقيقية .

هذه الحالة يشكو منها الغربيون أنفسهم . ويعدونها تدخلاً من المرأة فى غير شأنها واشتغالاً بغير ما هو مطلوب منها ، مما يبعد بها عن لوازم جنسها ، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف (جون سيمون) فقال ما معناه : (إنى لأسر إذا كانت امرأتى دكتورة ، فانى أود أن تكون المرأة مرأة) .

وما ذلك إلا لعلمه أنها بدكتوريتها فى التشريع مثلاً ، لاتستطيع أن تجمع بين دقائق القوانين ودقائق علم التربية التى تطلب منها ويعتمد فيها عليها .

٥ — وقال الأستاذ محمد جميل بيهم فى كتابه « المرأة فى التاريخ والشرائع » ما نصه : المرأة دون الرجل .

ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن المرأة المصرية كانت هى والرجل على مستوى واحد فى الحرية والمساواة ، فقال (بيبل) :

(إن اليونان وبينهم أهل أثينا ، هم البادئون فى تمييز حقوق الرجل) .

بيد أنه إذا دققنا فى التاريخ ، نجد أن المساواة المطلقة ربما لم توجد فى العالم قط بين الجنسين ، فهذه المرأة المصرية مع حفظها المنزلة الشريفة التى خصتها بها الطبيعة ، ومع أنها كانت مصدر النسب ما برحت تحت سلطة الرجل ، فلقد شوهد بين نقوش المقابر أن احترام النساء كان بنسبة تقديسهن للحقوق الزوجية ، وأمانتهن لأزواجهن .

على أن ما وصل إلينا من الآثار التى تحكى بعض الوصايا للرجال ، أن يعاملوا

زوجاتهم المعاملة اللينة ، يشير ضمناً إلى أن هذه المعاملة كانت غير مرعية غالباً .

ومما يضعف فكرة المساواة على إطلاقها ، نظامهم فى وراثة العرش ، فانه وإن كان للمرأة عندهم حق التاج ، إلا أن ذلك الحق ما كان ليتم لها إلا متى فقد الوارث من الذكور .

ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة حسب رواية (ديودور) فان جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات إزاء أربعمائة وسبعين ملكاً .

هذا ، ومن أدلة ميزة الرجل عندهم أيضاً ، أن المرأة ولو ارتقت إلى العرش كانت تشعر بأنها فى مقام هو للرجل وليس لها . فان الملكة (هتشبسوت) التى حكمت قبل ١٥٥٠ سنة من المسيح كانت مجبرة على لبس ثياب الرجال ، مراعاة للرأى العام .

وإذن فان كل استقلال ومساواة للمرأة المصرية هو نسبى ، والرجال كانوا قوامين على النساء .

فهل بعد ذلك يقوم نفر من الشرقيين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات ؟ ألا ساء ما يدعون ، وهؤلاء مثلهم كمثل (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) .

والله الموفق لما فيه صلاح الحال . بين النساء والرجال .

المحاضرة الحادية عشرة :

السيدة خديجة

أم المؤمنين رضى الله عنها

« تفضّل حضرة صاحب العزّة على بك فكرى الأمين الأوّل بدار الكتب المصرية بإتحافنا بتلك المحاضرة النفيسة عن سيرة السيدة خديجة رضى الله عنها ، فنشكر له همّته الوثّابة . وبحثه المستفيض » .

قال عزّته بعد المقدّمة (عن مجلة النهضة النسائية) :

أدركت السيدةُ خديجة أواخر عهد الجاهليَّة ، وكانت من أشراف نساء قريشٍ نسباً ، وأوفرهنّ مالاً ، وأرجحهنّ عقلاً . وأجملهنّ خَلْقاً ؛ جمعت فى تلك النَّفس العالية كلّ مزيَّةٍ مشرّفة . وخصلةٍ باهرة .

أبوها (خويلد) من أشراف قُريشٍ ورجالاتها البارزة .

أما أمُّها فهى (فاطمة) ويتَّصل حبل نسبها بالشَّجرة النَّبويَّة المباركة ، وبذلك أصبحت أمّ المؤمنين خديجةُ . أقربَ الزوجات الطاهرات إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نسباً .

كان لها مكانةٌ سامية بين قومها ، لجمال خَلقها ، وكمال خُلُقها ؛ فخطبها لأوّل مرّة (عتيق بن عابد) فتزوّجته ، ثم مات عنها ، فتزوّجت شريفاً آخر . هو (أبو هالة) وولدت منه ولداً اسمه (هند) إلا أنه لم يعش طويلاً ، وترمَّلت مرّةً ثانيةً .

ظلَّت أمّ هند فى نضارة الشَّباب . تحفُّ بها أسباب الرفاهة والعزّ ، تقطُن منزلاً فخماً . وحولها العبيد والجوارى . فترمُقها الأنظار ، وترمق ما هى فيه من عزّ ورفاهية . ويتكاثر حولها طُلاّب يدها من أعيان قريشٍ ووجوهِها ، فترفض كلّ طلبٍ من غير أن تُفضِّل أحداً على أحد . وقد كانت بعيدة النَّظر عالية الهمَّة ، ترسل أموالها فى تجارةٍ إلى الشام فى مواسمَ معلومةٍ . فتشترى ما يروق لها من أمتعة الهند واليمن وسائر الأمصار ، لتبيعها بالربح الجزيل .

هبت عاصفةٌ من عواصف الاضطراب فى نفس السَّيدة خديجةَ على أثر حُلْمٍ رأته ذات ليلة : فقد رأت فيما يراه النائم شمساً عظيمةً تهبط إلى منزلها من سماء مكةَ ، فيغمر ضوؤها ما يُحيط المنزل من أماكنَ وبقاعٍ ، قامت من نومها مضطربةً هائمةً وسارعت نحو دار ابن عمها (ورقةَ بن نوفل) وكان حَبْرا عالماً بتأويل الأحلام ، وتعبير الرؤيا . وما كادت تُفضى إليه بقصة رؤياها ، حتى تهلَّل وجهه بشرا وقال لها : إنّ تلك الأنوار علامةُ مجىء خاتَمِ النبيِّين ، ودخولها المنزلَ ـ أى دار بنتِ عمِّه (خديجةَ) ـ دليلٌ على أنها ستتزوّج منه . كيف يتصوّر الإنسان مبلغ التأثُّرات النَّفسيَّة التى تملَّكت ذلك القلب النقىّ الطاهر ؟

أصبح خاتَمُ الأنبياء بعد هذه الحادثة محورَ آمالها ، ومحطَّ أفكارها .

بدأت تفكِّر فى حُلمها الجميل ، وتنتظر بكل ما أوتيت من صبرٍ وجلدٍ هـذا النبىّ العظيم .

وبينما نساء قريشٍ مجتمعاتٌ فى عيد لهنّ بالكعبة الشَّريفة ، إذ تمثَّل لهنّ رجلٌ من اليهود ، فلما قرُب نادى بأعلى صوته : يا نساء أهل مكة ، سيكون فى بلدكنّ نبىّ يُقال له (أحمدُ) فمن استطاعت منكنّ أن تكون له زوجةً فلتفعل ، فكذّبنه ورمينه بالحصى ، وكانت بينهنّ خديجة فلم ترْمه كما فعلن . إنما ظلَّت فى مكانها واجمةً لاتستطيع حركةً من كثْرة ما انتابها من ضربات القلب .

رأت ما عمله النساء الأخريات ، فاجتهدت فى أن تملك رُوعَها ، إذ كانت ترتعد ويرقص قلبها الطَّاهر ، وهى تفكِّر فى آمالها وأحلامها ، هل أدرك النِّسوةُ اضطراب أمِّنا السَّيدة (خديجة) وهن يرمين الرجل بالحصى ؟ إنها لبشارةٌ عُظمى ، أحلتها من نفسها العالية مكانَ الإجلال ، إنها لبشارةٌ كبرى ، رأى العالم من ورائها كلّ خيرٍ وسعادة .

وكان للرسول الأكرم محمد بن عبد الله أمينِ قريشٍ ، وفخرِ الكائنات صلى الله عليه وسلم منزلةٌ ساميةٌ فى نفس عمِّه أبى طالب تفوق مكانة أولاده الذين من صلبه . كان يُجالسه ويؤاكله ، ويأنس به كل الأنس .

وبينما هما فى مجلسٍ من تلك المجالس ومعهما (عاتكة) أخت أبى طالب ، وعمَّة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) وقد فرغوا من طعام العشاء ، فقام الأمين إلى شأنٍ من شئونه ، وإذا بعمِّه يلتفت إلى أخته يقول لها مدفوعاً بعوامل الإعجاب والتَّقدير : لقد شبّ

محمد (صلى الله عليه وسلم) وصار رجلاً ، وآن له أن يتأهَّل ، فماذا ترين فى ذلك ؟ فأجابت : إنه فقير . وخديجة مثرية تتاجر بأموالها ، وتؤجِّر أناساً يخرجُون بتجارتها إلى الشام ، فليتّها تعطيه بعض المال فيتاجرَ به ، ويعملَ على نمائه ، حتى تتوفَّرَ له نفقات العرس . فاستصوب العمّ هذا الرأى ، فاستدعى ابنَ أخيه وقال له : ها هى ذى ناقتى ، أهبك إيَّاها يا محمد . وليتك تتقدَّم إلى خديجة ، إنها تفضّلك على غيرك ، وترسلك مع رجال ركبها إلى الشام . فتئوب إلينا رابحاً .

أما الأمين (صلى الله عليه وسلم) فكان جوابه لعمه : إذا شاءت خديجة أرسلت تطلبنى . فأدركتِ العمَّة من حوارهما أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لن يسعى فى الأمر بنفسه لما هو عليه من عزّة النَّفس . ولذلك عوّلت على أن تقوم هى بما يكفل له النَّجاح .

وقد تمّ لها ما أرادت . إذ أن خديجة ما كادت تسمع ما دار بين العمّ وابن أخيه حتى تذكَّرت رؤياها ، وداخلها سرورٌ خفىٌّ لاتعلم مصدره .

خُيِّل إليها أن محمداً الأمين (صلى الله عليه وسلم) هذا هو خاتمُ النَّبيِّين ، فأجابت سؤال (عاتكةَ) وشفعت ذلك بطلبه إليها .

توجَّه الأمين (صلى الله عليه وسلم) إليها وكان عمره وقتئذٍ خمساً وعشرين سنة ، فعرضت عليه أن يخرج فى تجارةٍ لها إلى الشَّام . وتعطيَه أفضلَ ما كانت تُعطى غيره من التُّجار . وأشار عليه عمُّه بقبول ذلك ، وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب إلى الشام ومعه عبدٌ لخديجة اسمه (مَيسرة) ، فلما رجع بالبضائع إليها ، باعتها . فربحت أضعافاً . وكان هذا بدءَ تاريخٍ جديدٍ للسيدة خديجة مع محمدِ بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) .

لقد جذب الرسول الهادى (صلى الله عليه وسلم) أمّ المؤمنين بلطفه وشخصيَّته البارزة . وأخلاقه العالية . فوهبته قلبها . وتعلَّقت نفسُها الطَّاهرة بسلك محبَّته بكلّ ما فيها من قوَّةٍ وجلَد .

فما أكثرَ غبطةَ السيدة خديجة إذ عرفت هذا السيد الجليل ، وما كان أجدرها أن يتعلَّق قلبها الطاهر به . وما أقوى نورَ فِراستها إذ علمت أنه لانظير له ، وأن سعادتها لاتتمّ إلا به . وما أحقَّها أن تغتنم الفرصة ، وتسبِق إلى تزوُّج هذا الشَّريف ، الذى جمع إلى شرف النَّسب شرف الخلال .

جلست أمّ المؤمنين ذات يوم تسبح فى بحار من التّفكير والتأمّل ، ثم انتفضت فجأةً ونادت مولاتها نفيسة ، وقد تمكّن منها الشّوق الشّريف كلّ التمكّن ، وأخبرتها أنها سترسلها إلى دار محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فسألتها عن سبب الرسالة فأجابت : لتعرف هل له ميلٌ للزواج أم لا ؟

فقامت على أثر ذلك تزور محمداً (صلى الله عليه وسلم) فى بيته .

جاءت نفيسة هذه محمدَ بنَ عبدِ الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبعد حديثٍ قليلٍ قالت له : ما يمنعك أن تتزوّج ؟

فاعتذر لها بقلّة المال ، اللازم للقيام بشئون العائلة .

فأجابته : فان كُفيتَ ودُعيتَ إلى المال والجمال والكفاءة ؟

فلما سمع النبيّ ذلك أجابها : ومن هذه التى تصفينها ؟

فأجابته فى الحال : خديجة بنت خويلد .

فردّ عليها (صلى الله عليه وسلم) : وهل يصحّ هذا الأمر ؟

فقالتَ : ما عليكَ لو قبلتَ ؟ أعدكَ باقناعها .

قالت له ذلك ، وصمتت تنتظر ما سيبدو منه ، ولكنه ظلّ ساكتاً لا يُجيب ، وأحدث هذا الكلام حركةً فى فؤاده ، وبأىّ شىء يتحدّث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ إلا بقوله : خديجة الشّريفة ، المعروفة بالطاهرة ، هى المناسبة ، هى الموافقة ، هى الصالحة ؛ اذهبى يا نفيسة فإنى سأخطبها .

فرجعت وقد رأت منه هذا الحال ، تحمل إلى سيدتها بُشرى القَبول ، فأجزلت السيدة خديجة كرامتها .

ولقد نزلت هذه البُشرى برداً وسلاماً على قلبها ، فسُرعان ما عيّنت موعد العقد فى الحال ، وأرسلت نفيسة إلى دار الأمين (صلى الله عليه وسلم) ثانياً تُخبره بالحضور إليها فى اليوم المُعين ، فقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك مسروراً ، وبدأ الطّرفان منذ ذلك اليوم فى معدّات العرس .

كانت السيدة خديجة وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يتقابلان قبل يوم الزفاف ، وقد استأذن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم عمّه فى الذّهاب إلى دار خديجة ، فأذن له ، ثم أرسل وراءه مولاته (عتبة) لترى ماذا يفعلان ، وفيم يتحادثان ؟ .

فتعقّبته امتثالاً لأمر مولاها ، وكان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قد وصل قبلها ،

فأخذت السيدة خديجة رضى الله عنها تقول : بأبى أنت وأمى . أقسم إننى لاأفعل هذا لريبة أو سوء . وإنما أطلب من المولى أمرًا أرجو أن يتحقّق ، وهو أن تكون نبيّه المرسلَ . وإذا اختارك الله لهذا الأمر الجليل ، عرفت قدرى ورفعتَ شأنى ، ودعوت إلى الله من أجلى . فكلّ ما أطلبه من الله هو أن يجعلك لى .

فأجابها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله : والذى نفس محمدٍ بيده ، لأتذكرنّ جميل صُنعك معى إذا تمّ لك ما تشتهين . وأما إذا كان رسوله المختار غيرى فانك تصلين إلى غرضك إن شاء الله ، ما دمتِ تفعلين كل هذا فى سبيل الرسول .

هذا مادار بينهما من الحديث . نقلته (عتبة) إلى مولاها أبى طالب كما رأته وسمعته .

ثم أقبل القوم من بنى هاشم يوم الإملاك ـ وهو يوم العقد ـ وفيهم كريم فتيانهم، ونجيب عشيرتهم : محمدُ بنُ عبد الله (صلى الله عليه وسلم) يحفّ به عماه : أبوطالب ، وحمزة . فنزلوا من بنى عمّهم أكرم منزلٍ وأسناه ، حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو ابن أسد عمّ السيدة خديجة (رضى الله عنها) .

وبعد أن اكتمل عِقد اجتماعهم ، قام أبو طالب بن عبد المطلب سيدُ قريشٍ وإمامُها فقال :

« الحمـد لله الذى جعلنا من ذرّيّة إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضِئضِئِ مَعَدٍّ ، وعنصر مُضَرَ . وجعلنا حضَنَةَ بيته ، وسُوّاسَ حرَمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً . وجعلنا حُكّام النّاس » .

« ثم إن ابن أخى هذا محمدَ بنَ عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لايوزن به رجلٌ إلا رجح به شرفاً ونُبلاً ، وفضلاً وعقلاً . وإن كان فى المال قُلاًّ ، فان المال ظلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائلٌ ، وعاريةٌ مستردّةٌ . وهو والله بعد هذا له نبأٌ عظيمٌ ، وخطرٌ جليلٌ . وقد خطب إليكم رغبةً فى كريمتكم « خديجة » وقد بذل لها من الصداق ماعاجله وآجله ستّ أواقٍ من الذهب (وقيل أربعمائة دينار) » .

ثم قام على أثر ذلك ابنُ عمها ورقةُ بنُ نوفَلَ ، وهو الذى فسّر لها رؤياها الجليلة . فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضّلنا على ماعددتَ . فنحن سادةُ العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله ، لاينكرُ العربُ فضلكم ، ولا يردُّ أحدٌ من النّاس

فخركم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معشر قريشٍ أنى قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بنِ عبدِ الله » .

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد عمّ خديجة ، فالتفت إليه أبو طالب وقال : يا ورقة ادع عمَّها يُشارِكُكَ فى العقد .

فنهض عمرو بن أسد فقال :

« اشهدوا علىّ معاشر قريشٍ أنى قد زوّجت محمدَ بنَ عبد الله (صلى الله عليه وسلم) خديجة بنت خويلد » .

فما أعظمها من كلمةٍ جمعت بين القمرين النّـيّرين . وبهذا أصبحت خديجة الطاهرة زوجة محمد (صلى الله عليه وسلم) . وهكذا صادق القوم على زواج النبىّ (صلى الله عليه وسلم) من أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) جالساً بجانبها أثناء العقد ، فلما انتهت الصيغة طلبت إليه أن ينحر جزوراً من الإبل التى أصدقها عمـه أبو طالب مهراً ، فذبح إحداها فى الحال وأطعم القوم ، وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنّين .

أما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد أُفعِمَ صدرُه سروراً ، حتى إن أباطالب عند ما لاحظ حالته الروحيَّة حمد الله كثيراً .

سعادةٌ يا لها من سعادةٍ ، تلك الحياة الطيِّبة الصالحة ، التى أمضاها النبىّ الهادى فخر العالمين (صلى الله عليه وسلم) مع سيدة النِّساء (خديجة أمّ المؤمنين) .

كانت خديجة فى بيتها، مع زوجها الجليل ، فخرالكائنات ، والمثل الأعلى فى المودّة والوداعة ، وحُسنِ المعاشرة ، والترفُّعِ عن الكُلْفة ، وبذل المعونة ، تقوم بأداء واجباته ، وقضاء لوازمه بجلالٍ خاصّ بها ، وتجتهد فوق ذلك كله بكل ما آتاها الله من ذكاءٍ وفطنة ، وبكلّ ما جُبِلت عليه من شفقةٍ ورقّةٍ أن تجعل أيام حياته تمرُّ براحةٍ وهناء ، وأُنسٍ ووفاء .

كان النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فى نظرها شخصا فذّاً ، يستحقّ الحبّ الصادق والتّقديس ، وما كانت تشاهده فيه من درجات الكمال ، يزيد من قدر صفاته النادرة ، ومزاياه الجمّة رفعةً ، هذه الحالة الروحيّة دفعتها إلى بذل النّفس والنّفيس فى سبيل مرضاته وما فيه سعادته ، وأن تُبدّد بيدها الكريمة ماقد يتلبّد فى سماء حياته من سُحب الهموم والأكدار .

إن الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحسنة الفطريَّة التي امتاز بها الرسول صلى عليه وسلم في تلك الأيَّام في بيئة عمَّ فيها الجهل ، والميل مع الأهواء ، لمما يُلفت الأنظار ، ويستهوى الألباب .

كان نبيُّنا المعظَّم (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى ، والمعجزة الكبرى ، في نظر الجميع ، وليس في مقدور امرأة متوسطة الذكاء أن تشارك مثله في الحياة ، تقطع معه مراحل العمر .

ولقد كان رسولنا الهادى ، ومرشدنا الأعظم (صلى الله عليه وسلم) موفور الحظِّ سعيد الطالع ، إذ رزقه الله امرأةً صالحةً تقيَّة كخديجة ، ذات شخصيَّة عالية ، تدرك جلالَ قدره ، وعظيم استعداده ومواهبه ، فيلتذُّ فكرها بمعنويته ، وتُشاركه في نورانيَّته ، وتملأ بمهارتها كل أيام حياته .

كانت (السيدة خديجة) في نظره النَّغمة الحُلوة التي لاتنساها الأذن ، والابتسامة العذبة التي لا يُمحى خيالها من صفحة الذهن .

مضت حياتهما المشتركة في وئامٍ وسلامٍ ، فقضيا خمسة وعشرين ربيعاً ، لم يعكِّر صفوَها عتابٌ صغير ، أو غضبٌ طفيف .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصُّ زوجته باحترام كبير ، فلها في نفسه أسنى منزلة ، وفي قلبه أسمى مكان ، لايفتأ يعترف بفضلها ، حتى إنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوَّج من سواها ، مع أنها كانت أكبر منه سنًّا .

وله منها صلى الله عليه وسلم ستة أولاد : اثنان ذكور ، وأربع إناث ؛ وهم : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقيَّة ، وأمّ كلثوم وفاطمة الزهراء .

المحاضرة الثانية عشرة :

السيدة عائشة رضى الله عنها

١ — السيدة عائشة : هى بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، من أعلام قريش عزًّا وجاهاً، وأحد الأربعة المقرّبين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها (أم رومان بنت عامر بن عويمر) الكنانيّة .

عقد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام الثالث من انتقال زوجته السيدة خديجة إلى دار الخُلد والبقاء ، إلا أنه لم يدخل بها فى عامه ، لأن الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السّعادة وقتئذٍ .

زفافها

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجرته من مكة إلى المدينة المنوّرة ، وعند ما وصل أهل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى المدينة ، نزلوا فى بنى الحارث ابن الخزرج . وفى الشهر الثامن من الهجرة النّبويّة ، قام الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من الأنصار ، فنزل دار صديقه فى الغار ، ودخل على السيدة عائشة رضى الله عنها ، وقد كانت هذه الزوجة الثانية المباركة من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم الصادق الوعد الأمين ، صبيّةً حسناء ، ذات غضارةٍ ونضارة .

وكانت أمّ المؤمنين (عائشة) لبيبةً فطِنةً شاعرةً خطيبة . يلقّبها الرسول صلى الله عليه وسلم (بالحميراء) ، ويحبها محبّةً أكيدة ، وكان من دواعى سروره صلى الله عليه وسلم أن يرضيها ، ويعمل ما فيه سُرورها ، حتّى توثّقت محبّته لها ، وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر .

فمن أمثلة محبته لها ، أنه قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ وهو جالسٌ عندها ما معناه :

« إنى أعلم وقت غضبك من حيث تقولين إذ تحلفين : وربّ إبراهيمَ ؛ أما إذا كنت راضيةً عنى ، فتحلفين بربّ محمد ؛ فأجابت : إنى يا رسول الله إذا غضبت أغفلت اسمك ، فأما حبى لك فلا يتغير » .

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أكثر أوقاته بجانب زوجته المحبوبة (عائشة) ، وكان النّاس أملاً في الحصول على رضا الرسول صلى الله عليه وسلم يتحرّوْن بهداياهم يوم عائشة رضى الله عنها .

وكان الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو بجانبها ، فلذلك كانت السيدة عائشة تُشاركه فى تأثُّراته النّبويّة . إذ كانت واقفةً على دقائق أحواله وحركاته ، وكلّ شأنٍ من شئونه .

وقد شكا زوجات النبيّ صلى الله عليه وسلم من تحرّى المسلمين يوم عائشة لهداياهم ، فاجتمعن إلى (أمّ سلمة) التى تقدّمت بذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورجته أن يُحذّر الناس من ذلك . فقال لها صلى الله عليه وسلم : لاتؤذينى فى عائشة ، فانه والله ما نزل علىّ الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكنّ غيرها .

لم تيأس (أمّ سلمة) من هذا الإخطار النّبوى . بل عادت إلى تحقيق أملها ، وتوسّلت هذه المرّة بفاطمة الزهراء التى جاءت إلى أبيها تخبره بذلك . إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألها : هل تحبّين من أحبّه ؟ فلما ردّت عليه بالإيجاب ، قال لها : إذن أحبى (عائشة)

لقد كانت لعائشة رضى الله عنها منزلةٌ ساميةٌ فى نفسه صلى الله عليه وسلم حتى كان يقول لزوجه الطّاهرة : إن حبّه لها كالعُروة الوثقى لاانفصام لها .

فكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر اطمئناناً على مكانة هذه المحبّة فتقول : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ فيجيبها : إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدّل .

قناعتها وزهدها وإحسانها

وقد أثّرت تعاليمه العالية فى نفسها الكريمة . ووجدت منبتاً صالحاً ، حتى تسرّب قلبها النّبيل مبادئ الزهد والقناعة . فكان عُروةُ بن الزبير يقول عنها :

رأيتها تتصدق بسبعين ألف درهم فى سبيل الله ، وهى فى قميص خلَق .

وأخرج ابن سعد من طريق أم درّة قالت :

أتيت عائشةُ رضى الله عنها بمائة ألفٍ . ففرقتها وهى يومئذٍ صائمة ، فقلت لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترين بدرهمٍ لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت (لو كنت أذكرتِنى لفعلت) .

صفاتها الشريفة وعلمها الجم

للسيدة عائشة رضى الله عنها ميزةٌ خاصة ، وشرفٌ وجلالٌ بين مخدّرات العالم الإسلامى لم تتوفّر لسواها من السيّدات ، فقد كانت أديبةً لبيبةً عالمةً خطيبةً شاعرةً ، من أفقه النّاس ، وأعلم النّاس ، وأحسنهم رأياً فى العامة ، وعنها يقول عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بشعرٍ من عائشة رضى الله عنها .

يا له من فَخارٍ تحوزه السيدة عائشة ، تلك التى استطاعت فى فترةٍ قصيرةٍ من حياة الرسول الشّريفة ، أن تُدخل عليه السُّرور والراحة . وتعمر قلبه بالغبطة والأنس فكانت أمام عينيه الشّريفتين التمثال المجسّم للسّعادة ، وما كان ينقصها فى حياتها تلك إلا أن تكون أمًّا ، لكيلا تُحرَم من التّكنى باسم طفلها . إلا أن فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم لم يدع سبيلاً إلى غمّها من هذا القبيل ، فكنّاها بابن أختها عبد الله بن الزبير إذ كان قد درج فى البيت النّبوى ، وشبّ بين أحضان العائلة النّبويّة المطهّرة .

وكانت من أحبّ خلق الله إليه هى وأبوها الصديق ، كيف لا ، وقد أضاءت حياة الرسول بعلمها وجمال نفسها ، حتى صارت الجوهرة اللامعة فى تاج تلك الأيّام السّعيدة المباركة .

لقد كانت تاج الفَخار فى زمانها ، وخزينة السرور لسيد الكائنات . فطوبى، لتلك النّفوس العالية التى تترك أثرًا من السّعادة والأنس والصّفاء فى محيطها التى تعيش فيه وفى الأحياء التى تُشاركها ، والأشياء التى تُلامسها .

ولكن مع الأسف الشّديد حدث حادث مؤلم للسيدة عائشة غَيّر قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم عليها ، وحوّل بعض حبّه عنها فترةً من الزمن قصيرة . وهذا الحادث هو حديث (الإفك) الوارد فى سورة النّور من القرآن الكريم .

« وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم استصحب زوجته السيدة عائشة فى بعض الغزوات ، وبينا هو قافل إذ انفرط عقدها ، فرجعت لتلتمسه ، فظنّ سائس راحلتها أنها فى هودجها ، فسار مع الركب ، فلما رجعت لم تجد أحداً ، فمكثت مكانها ، فمرّ بها (صفوان بن المعطّل السلمى) فرآها ، فأركبها ناقته ، فأوصلها إلى الجيش ، فاتّهمها جماعةٌ من المنافقين .

فلما تحدث الناس بهذا الأمر ، وبلغ السيدة عائشة ، بكت حتى أصبحت لا يهدأ

لها بال . ولا تكتحل عينها بنوم ، فلما سمع أبوها أبو بكرٍ بكاءها ونوحها ، طيَّب خاطرها وقال لها : صبراً يا بُنيَّة . عسى الله أن يُنزل فى شأنك آية .

وبينا أبوها عندها وهى تبكى ، إذ استأذنت امرأةٌ من الأنصار ، فأذنت لها ، فلبثت تبكى معها . وبينا هم على تلك الحال إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس ، ولم يجلس عندها من يوم هذا الحادث ، وقد مكث شهراً لايوحَى إليه فى شأنها بشىء .

فتشهَّد الرسول عليه الصلاة والسلام حين جلس ثم قال :

« أما بعد : يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة ، فسيبرّئك الله ، وإن كنت ألممت بذنبٍ ، فاستغفرى الله وتوبى إليه . فان العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب ، تاب الله عليه » .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، استعصى دمعها ، لاستعظام ما بغتها به من الكلام . وقالت لأبيها وأمها : إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدّث الناس به حتى استقرّ بأنفسكم ، وصدّقتم به ، فلئن قلت : إنى بريئةٌ ، والله يعلم إنى لبريئة ، لاتصدّقون ذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ ، والله يعلم إنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا (أبا يوسف) حين قال :

« فصبرٌ جميلٌ والله المُستعانُ على ما تَصِفون » .

وبعد أن أتمَّت مقالتها ، تحوّلت واضطجعت على فراشها ، وهى تعلم أنها بريئة ، وأن الله مبرئها .

وقد حدث ما كانت ترجوه إذ نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آياتٌ فى براءة السيدة عائشة رضى الله عنها . قال الله تعالى :

(إنَّ الَّذينَ جاءُوا بالإفكِ عُصبةٌ منكم ، لا تحسَبوهُ شرًّا لكم بلْ هوَ خيرٌ لكم . لكلِّ امرئٍ منهم ما اكتَسبَ منَ الإثمِ ، والَّذى تولَّى كِبرهُ منهم لهُ عذابٌ عظيمٌ) الآيات .

وقد زال بعد نزول هذه الآيات ما كان بين الرسول وزوجه من الجفاء بسبب حادثة العِقد . فعاشا فى أنسٍ عظيم ، وراحة تامّة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأنس بالسيِّدة عائشة رضى الله عنها أُنساً عظيماً

حتى لم يعتر حبه لها بعد ذلك أدنى شائبة فى وقت من الأوقات . ولم تبدُ سحابةٌ واحدةٌ تعكّر سماء سعادتها منذ السنة السادسة حتى الحادية عشرةَ من الهجرة .

لقد وقفت حياتها فى سبيل مرضاة الرسول . وبذلت نفسها وحياتها فى صيانة ونشر الدين ، وفى إيصاله إلى درجة الكمال .

فى السنة العاشرة من هجرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أعلن الهادى صلى الله عليه وسلم أتباعه أنه سيزور مكة المكرّمة لأداء فريضة الحجّ ، فتوافدت القبائل والعشائر من الجهات زرافاتٍ ووحداناً على المدينة المنوّرة ينتظرون اليوم الموعود .

ولأيامٍ قلائلَ بقيت من ذى القَعدة ، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطريق بعد صلاة الظهر ، ومعه أهل بيته وأصحابه ، وأربعون ألفاً من حجّاج المسلمين ، فوصل مع هذا الجمع الحاشد إلى مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجّة . وبعد أن ابتهل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربّه ، وطلب المغفرةَ وحُسنَ المآب ، تقدّمت إليه القبائل الوافدة من الجهات الأخرى . فأدى الجميع فريضة الحجّ .

وقد لاحظ الرسول أثناء سفره ، أن البعير الذى يحمل هودج السيدة عائشة يسير بسرعةٍ كبيرة لخفّة جسمها ، ولقلّة حملها ، بينما كان البعير الحامل لزوجه الأخرى (السيدة صفيّة) يسير ببُطء وهوادة ، لسمنها ولكثرة حملها ، فأمر الرسول بأن يُنقل حمل السيدة عائشة إلى رحل السيدة صفيّة ، وحمل هذه إلى رحل الأخرى .

وجاء إلى عائشة يستسمحها لهذا العمل ، فغضبت من ذلك . فلم يحاوبها الرسول . ولما وصلت الحادثة إلى مسامع أبى بكرٍ والدها ، هرول نحو ابنته واحتدّ عليها ، فما كاد الرسول يرى ذلك حتى آخذ صديقه ، فأجابه : ألم تسمع ما قالت لك ؟ فأفهمه فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم أن الذى دفعها إلى ذلك هو غيرتها ، وأن المرأة إذا غارت لاتدرى ما تقوله ، بل تكيل القول جُزافاً .

وكان يوم عرفات يوم الجمعة ، فأدى الرسول فريضة الحجّ مع مائة ألفٍ من المسلمين ، وعقب الصلاة خطبهم خطبةً بليغة يقال لها خطبة الوَداع . وبعد الانتهاء من الخطبة أذّن بلال ثم أقام ، وصلى صلوات الله عليه الظهر ، ثم أقام بلال فصلى العصر .

وفى مساء ذلك اليوم ، نزل عليه الوحى بقوله تعالى : (اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتى ورَضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً) .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة . علم أبو بكر بقرب وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فبكى .

وبعد أن خطب صلى الله عليه وسلم النَّاسَ . وألقى على جماعة المسلمين نصائح عديدة ، سواء فى مكة أو فى طريقه إلى المدينة ، أنبأهم وهو فى موضع قريبٍ من المدينة بقرب صعود روحه إلى الرفيق الأعلى ، وعند وصوله إلى المدينة مرض الرسول صلى الله عليه وسلم مرض الموت .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هادئاً ساكناً فى أشدّ أوقات مرضه ، وكانت السيدة عائشة تلازمه على الدوام ولا تفارقه لحظةً واحدةً ، وكان وهو على ركبتها يسمع بلالاً مؤذّناً للصلاة ، فيقوم بقدر جهده وطاقته يصلى بالنَّاس .

٢ — ولما اشتدَّت عليه صلى الله عليه وسلم وطأةُ المرض ، وكان ذلك قبل وفاته بثلاثة أيَّام عجز عن الخروج إلى الصلاة . واجتمع الناس فى المسجد وآذنوه بها ، فهمّ بالخروج فعجز ، فقال : « مُروا أبا بكرٍ فليصلّ بالنَّاس » حتى إذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول رفعت روحه العالية إلى أعلى عليين حيث الرفيق الأعلى ، وهو فى حضن زوجه أمّ المؤمنين عائشة ، وما كادت تشعر بذلك حتى أجهشت بالبكاء ،

وكانت إذ ذاك فى الثامنة عشْرة من سنى حياتها ، فانزوت فى كسر دارها مع جواريها تقطع مراحل العمر فى هدوء وسكون ، وتقضى دقائق الحياة فى تلاوة القرآن ، وعبادة الدَّيَّان .

كانت على جانب عظيمٍ من الذكاء ، تلمّ بمسائل كثيرةٍ من الفقه ، كما أنها كانت على نصيبٍ وافرٍ من سائر العلوم .

كانت أحبّ زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم إليه ، وقضت معه شطرًا كبيرًا من الحياة ، فلا غرو إذا وعت فى حافظتها ما كانت تسمعه وتراه من ضروب الأحكام الدينيَّة . والمعاملات الشَّرعيَّة ، ولا عجب إذا رأينا الصحابة وعيون الأنصار ، يتَّخذونها مرجعاً فى غير قليلٍ من أحكام الدين ، ومسائل الشَّرع الشَّريف ، وقد ضربتَ بسهمٍ وافرٍ فى الفتاوى الشَّرعية .

فكانت إذا ذُكِرت أمام عطاء بن أبى رباح قال : « كانت عائشة أفقه النَّاس ، وأعلم النَّاس ، وأحسن النَّاس رأياً فى العامَّة » .

وعنها يقول عروة « ما رأيت أحدا أعلم بفقهٍ ولا بشعرٍ من عائشة » .

بلغت الأحاديث التى روتها السيدة عائشة ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . من ذلك مائة وسبعون حديثاً أجمع الاتفاق عليها ، وأخذ منها البخارى أربعة وخمسين حديثا .

أما فضلها وحسن رأيها ، فيكفى أن يزكيها مثل معاوية بقوله « لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة » .

وكانت تروى الشعر ، وتعلم وقائع العرب وحروبهم وسيرهم ، حتى إنه ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

وعندما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المال فى زمان خلافته ، وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان يعطى كلى واحدة منهن عشرة آلاف درهم . إلا عائشة فقد جعل لها اثنى عشر ألفاً . وقد عارض بعض الناس فى هذا الامتياز الصادر من رجل العدل عمر دون أن يفهموا الغرض منه . وسألوه عن السبب فأجابهم : ذلك لأن عائشة كانت محبوبة للرسول .

أما هى . فكانت تبذل ما لديها من مال ونشب فى وجوه البر والخير وتهوين حاجات أهل العوز والمساكين . وفى إعلاء كلمة الدين .

كانت تزور الكعبة فى كل عام ثم تعود إلى المدينة . فهذه الزيارات التى دامت إلى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة . هى فترات الحركة فى حياتها الساكنة ، فقد أمضت أيام حياتها على نسق واحد من النظر فى شئون الخير . ومن التفرغ إلى العبادات . وعلى ما يستعصى على المسلمين من الأحكام والمعاملات .

وكان لأهل المدينة عاطفة حب شديد. واحترام فائق نحو شخصها المحبوب . إذ كانوا يقدرون ذكاءها ، ويباهون بحسن رأيها ، ويرون فى زوجة الرسول المعززة بين ظهرانيهم ، الذكرى الخالدة التى تذكرهم بأيام السعادة والهناء والصدق والوفاء .

ولها خطب ووقائع شهيرة . وكانت هى السبب فى واقعة الجمل المشهورة فى الإسلام صحبة الزبير وطلحة . وهى تتلخص فيما يأتى :

واقعة الجمل

وهى أن عائشة خرجت من المدينة إلى مكة . وسيدنا عثمان محصور . ثم رجعت من مكة تريد المدينة ، فلقيها فى الطريق عبيد بن أبى سلمة أحد أولاد خالها . فقالت له : ما وراءك ؟ قال : قتل عثمان . قالت : فما صنع الناس بعده ؟ قال : اجتمعوا

وبايعوا عليًا . قالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لصاحبك ، ردّونى ، فانصرفت إلى مكة وهى تقول : قُتِل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبنّ بدمه .

ولما رجعت إلى مكة . ذهبت توًا إلى الحجر الأسود . وجمعت النّاس وخطبتهم خطبةً بليغة مؤثّرة . أفهمتهم فيها بقتل عثمان ظلماً . وحثتهم على طلب دمه .

فأثّرت هذه الخطبة فى نفوس الكثيرين . وتبعها عدد كبير من أهل البصرة ، حتى بلغ عدد جيشها ثلاثين ألف مُقاتل . من بينهم طلحة والزبير بن العوّام .

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين علىّ بنَ أبى طالب كرّم الله وجهه ، قام وخطب فى النّاس وأعلمهم الحال وقال : إنها فتنة ، وسأُمسك الأمر ما استمسك بيدى . وسار إليهم فى عشرة آلاف . والتقى الجمعان بظاهر البصرة فى مكان يسمّى (الخريبة) وجرت خطوبٌ وحروب . وانتهت بهزيمة جيش عائشة ، وقتل طلحة والزبير بن العوّام رضى الله عنهما .

وكانت السيدة عائشة على جملٍ فى هودج تراقب حركة القتال ، وقد ترامى جُندها على الموت . وسميت هذه الواقعة « بواقعة الجمل » . وكان خاتمة القتال سقوطَ الجمل بما غشيه من النّبال . وبقيت السيدة عائشة فى محفرها حتى المساء . وكان أخوها محمد ابن أبى بكرٍ من أصحاب علىّ كرّم الله وجهه . فأمره أن يمضى إلى أخته وينظرها هل هى سليمةٌ أم لا ؟ ثم أدخلها ليلاً إلى البصرة فى دار عبد الله بن خلف . وظلّت هناك حتى أوّل شهر رجب بأمر الإمام علىّ . وأحسن إليها كرّم الله وجهه غاية الإحسان . وجهّزها بكلّ ما ينبغى . وقد أذن لها بالرجوع . واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطّريق . وسيّرها صحبة أخيها محمد بن أبى بكر مكرّمة . وقد شيّعها ولدا الإمام علىّ : الحسن . والحسين رضى الله عنهما .

فلما كان يوم رحيلها حضر الإمام وحضر النّاس ، فقالت عائشة رضى الله عنها :

يا بَنِىّ لايعتب بعضٌ على بعضٍ . إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وإنه على معتبتى لمن الأخيار » .

وقال علىّ كرّم الله وجهه : والله ما كان بينى وبينها إلا ذاكَ . وإنها لزوجة نبيّكم فى الدنيا والآخرة

ثم سارت . وتبعها الإمام أميالاً . وتوجّهت إلى مكة وأقامت بها إلى أيام الحجّ وانصرفت إلى المدينة .

خلاصة تاريخ حياتها

لو استثنينا واقعة الجمل . لرأينا أن السيدة عائشة أمّ المؤمنين قطعت المرحلة الطويلة من حياتها من السَّنة العاشرة للهجرة إلى الثانية والخمسين منها فى العبادة وتلاوة القرآن ، والتضرُّع إلى الله ، وفى وجوه البرّ والمواساة . وزواية الأحاديث . وتخريج المسائل الفقهية .

على هذا المنوال البديع سارت السيدة عائشة فى حياتها الجميلة . تلك الحياة التى وقفتها فى سبيل إعلاء كلمة الحقّ والدين .

من أجل ذلك أحبها النَّاس . ومن أجل ذلك كان يتباهى بها أهل مكة . ويفتخر بشخصها الكريم أهل المدينة .

أقرّ علماء زمانها ، وفحول الرجال من معاصريها بنبوغها وتفوّقها حتّى ذاعت شهرتها فى الممالك والأمصار .

انطوت صفحة حياتها الخالدة . وانتهت فى العام الثامن والخمسين من الهجرة . حيث نزل بها قضاء الله الذى لامردّ له ، وكانت وصيتها عند ما وافاها القدر المحتوم أن تُدفَن بالبقيع .

توفِّيت إلى رحمة ربها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرّم . ودفنت فى تلك اللَّيلة بالبقيع . ومشى جميع أهل المدينة فى جنازتها . وقد صلى عليها أبو هريرة رضى الله تعالى عنه . أما الذين نزلوا قبرها فهم : عبد الله ؛ وعروة ولدا الزبير . والقاسم وعبد الله ولدا محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن .

ماتت السيدة الفاضلة عن خدمات جليلة . وحسنات شهيرة إلى الأمة الإسلامية . فتركت وراءها ذكرى خالدة . وسمعةً طيِّبة .

والسلام عليها يوم ماتت ، ويوم تبعث حيَّة .

وأرجو الله أن يوفِّق نساءنا المسلمات للعمل بسيرتها واتِّباع سنّتها .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

ملحوظة هامّة :

هناك محاضرات أُخرى أُلقيت بدار الجمعيّة فى الموضوعات الآتية :

اختلاط النّساء بالرجال . العمّة حجابٌ يمزّقه الاختلاط ، تبرّج النّساء ، أزياء النّساء . النّساء العاريات . حكم الشّريعة الغراء فى المغنّيات والراقصات ، وغير ذلك .

وجميعها مذكورٌ فى كتاب « مرشد الأنام لمعرفة الحلال من الحرام » المطبوع « بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر » ولا داعى لتكرارها هنا .

والصلاة والسلام على خير الأنام ، فى المبدأ والختام .

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه تمّ طبع كتاب :

المحاضرات الفكرية

للسيد على فكرى

مصححا بمعرفة لجنة التصحيح برياسة : الشيخ أحمد سعد على

القاهرة فى { ١٦ ربيع الثانى ١٣٧١ هـ
١٤ يناير ١٩٥٢ م }

ملاحظ المطبعة	مدير المطبعة
محمد أمين عمران	رستم مصطفى الحلبى

فهـــرس

المحاضرات الفكرية

صحيفة	الموضوع
٣	الإهداء
٥	كلمة الأستاذ محمد فريد وجدى بك
٧	كلمة المرحوم الشيخ محمد الحسينى الظواهرى
٨	كلمة الدكتور الحاج أحمد عارف الودينى
٩	المقدمه
١٠	المراجع
١١	المحاضرات العلمية فى عهد النبوّة
١٢	أولا — المحاضرات الخاصة بالرجال
	المحاضرة الأولى : التقوى
٢١	المحاضرة الثانية : الاستقامة
٢٣	الاستقامة سبب السعادة والسلامة
٢٤	هل يستقيم الظلّ والعود أعوج ؟
	عدم الاستقامة سبب الفضيحة والملامة
٢٥	كلمة ختاميه
٢٧	المحاضرة الثالثة : مرض الأخلاق وعلاجه
	علاج سوء الخلق
٢٩	المحاضرة الرابعة : سموم الأخلاق وتنقسم إلى عدة أقسام :.
	الأول : الاختلاط بفاسدى الأخلاق
٣١	الثانى : الكتب الضارّة كالروايات الغرامية والقصص الخرافيه
٣٢	الثالث : الصحف الساقطة
٣٣	الرابع : دور التمثيل الهزلى
٣٤	الخامس : دور التمثل الصامت
٣٦	المحاضرة الخامسة : التربية الأخلاقية وأثرها فى ارتقاء الأمم
٣٩	المحاضرة السادسة : الحقوق والواجبات
٤٠	الحقوق الطبيعية
٤١	الانتحار
٤٣	حقّ الحرية
	معناها والغرض منها
٤٥	أنواع الحرية
	النوع الأول : الحرية الشخصية
	الرقّ
٤٧	النوع الثانى : حرية الملك
٤٨	النوع الثالث : حرية المسكن
	النوع الرابع : حرية العمل والصحافة والتجارة
٤٩	النوع الخامس : الحرية المدنية
٥١	النوع السادس : حرية القضاء
٥٢	النوع السابع : الحرية السياسية

صحيفة	الموضوع
٥٢	النوع الثامن : حرية الأمم واستقلالها
٥٤	المحاضرة السابعة : الشرف
٥٨	وسائل الشرف
	١ — شرف الملوك
	٢ — شرف الوزراء والحكام
٥٩	٣ — شرف القضاة
	٤ — شرف المحامى
	٥ — شرف الطبيب
	٦ — شرف مهندسي الرىّ
	٧ — شرف الجندى
٦٠	٨ — شرف المعلم والعلماء
	٩ — شرف الموظفين
	١٠ — شرف التاجر
	١١ — شرف الزارع
٦١	١٢ — شرف الصانع
	١٣ — شرف الصحفى
٦٢	المحاضرة الثامنة : الدين المعاملة
	القسم الأول : المعاملة المادية
٦٤	١ — البيع والشراء
٦٦	التاجر الأمين
٦٧	التاجر الغاش
	مثال التاجر الصادق
	٢ — الإجارة
٦٩	٣ — الاستعارة
	٤ — الاستدانة
٧٠	٥ — الأمانات والودائع
٧٢	٦ — الوصيات على القاصرين
٧٣	٧ — أوامر الله تعالى للأوصياء فى أموال اليتامى والسفهاء
٧٥	٨ — اللقطات
٧٦	٩ — الأمانات التى ينقلها شخص إلى آخر
٧٧	القسم الثانى : المعاملة الأدبية
٧٩	مثال فى الوفاء بالوعد
٨٠	الخاتمة فى حسن المعاملة
٨١	المحاضرة التاسعة : المال
٨٢	المال فى نظر خواص البشر
٨٣	ليست السعادة فى الجشع والإيغال فى جمع الأموال
٨٤	المحاضرة العاشرة : البدع فى الموالد
٨٥	حول التبشير والمبشرين
٨٧	انتصار الدين على المدنية
٩٠	الدعوة إلى الدين
٩٢	أثر الدين فى النفوس
٩٤	لاسعادة إلا بالدين
٩٦	المحاضرة الحادية عشرة : كيف نربى أبناءنا
٩٩	كيف نربى بناتنا
١٠١	المحاضرة الثانية عشرة : الواجب
١٠٣	أداء الواجب
١٠٦	المحاضرة الثالثة عشرة : العفاف وأقسامه
١٠٧	أقسام العفة
١٠٩	ذكر ما قيل فى العفة

صحيفة	الموضوع
١١١	عفاف الرجل
١١٣	عفاف المرأة
	أمثلة من عفاف الرجل
١١٥	لاتأكلوا أموال الناس بالباطل
١١٦	العفاف قرين العدل والإنصاف
	الرجل النزيه والغلام الصادق
	نزاهة قوسيون
١١٧	نزاهة هنرى دى مسم
١١٨	المحاضرة الرابعة عشرة : عزّة النفس أو الكرامة
١٢٠	ذكر ما قيل فى عزّة النفس
١٢٣	١ — كريم النفس خير من كريم المال
	٢ — كريم النفس يصونها عن ذلّ السؤال
	٣ — عزيز النفس لايطيق الهوان
	٤ — كيف تذلّ النفوس الأبية
١٢٥	المحاضرة الخامسة عشرة : السعادة ووسائلها
١٢٧	الخلاصة فى السعادة
١٢٨	المحاضرة السادسة عشرة : التذكير بمولد البشير النذير
	القصد من الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم
١٣١	المحاضرة السابعة عشرة : خلاصة سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبىّ الإسلام فى أدوار حياته

صحيفة	الموضوع
١٣٧	المحاضرة الثامنة عشرة : شمائله وصفاته عليه الصلاة والسلام
١٤٠	حالته المعاشية
١٤٣	ملحوظة عن محاضرات أخرى
١٤٤	ثانيا — المحاضرات الخاصة بالإناث
	المحاضرة الأولى : تربية البنات
	١— تربية البنات عند قدماء المصريين وحظّ النساء منها
١٤٥	٢ — تربية البنات عند اليونان « فى إسبرطه »
١٤٦	٣ — تربية البنات فى أثينا
١٤٧	٤ — تربية البنات فى عصر الدولة الرومية
١٤٨	٥ — تربية البنات فى العصر الجاهلى نساء العمالقة
١٤٩	النساء فى العصر الإسلامى
١٥١	المحاضرة الثانية : واجبات المرأة
	١ — نحو زوجها
	٢ — نحو أولادها
١٥٢	٣ — نحو منزلها
١٥٤	المحاضره الثالثة : المرأة ووظيفتها
	الدليل الأول على وظيفة المرأة التى خلقت لأجلها
١٥٥	الدليل الثانى
١٥٦	الدليل الثالث
١٥٧	الدليل الرابع
١٥٨	ليس للمرأة أن تتطاول إلى أعمال الرجال وبالعكس

صحيفة	الموضوع
١٥٨	وظيفة المرأة
١٦١	المحاضرة الرابعة : صفات المرأة الفاضلة
١٦٤	المحاضرة الخامسة : عفاف المرأة تاجها
١٦٥	أمثلة من عفاف المرأة
	١ — المرأة العفيفة
	٢ — مثال لعفة ليلى الأخيلية
١٦٦	العفاف تاج المرأة
١٦٧	العفة والأمانة
١٧٠	كيف تحافظ المرأة على عفافها ؟
١٧١	المحاضرة السادسة . حرية المرأة
١٧٦	المحاضرة السابعة : تساهل الرجال سبب فساد النساء
١٨٠	المحاضره الثامنة : مسئولية المرأة فى تربية أولادها
١٨٣	المحاضرة التاسعة : مسئولية المرأه فى تدبير منزلها
١٨٤	فضل المرأة المدبرة
١٨٦	المحاضرة العاشرة : محال مساواه المرأة بالرجل
١٩٠	هل يمكن أن تساوى المرأة مع الرجال فى الحقوق والواجبات
١٩٢	آراء بعض علماء الإفرنج بأن المرأه لايلزم أن تتعدّى وظيفتها ، وبأن اشتغالها بأعمال الرجل مقوّض لبناء المدنية ، مفسد لنظام العائلة
١٩٦	المحاضرة الحادية عشرة : السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها
٢٠٣	المحاضرة الثانية عشرة : السيده عائشة رضى الله تعالى عنها زفافها
٢٠٤	قناعتها وزهدها وإحسانها
٢٠٥	صفاتها الشريفة وعلمها الجم
٢٠٩	واقعة الجمل
٢١١	خلاصة تاريخ حياتها

للمؤلف :

١ ــ المعاملات المادية والأدبية (أربعة أجزاء)

٢ ــ خلاصة الكلام فى أركان الإسلام

٣ ــ مرشد الأنام لمعرفة الحلال والحرام

٤ ــ البيان الفاصل بين الحقّ والباطل

تطلب من :

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
مصر ــ ص . ب . الغورية ٧١